بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده

٢٢ جمادى الآخرة ١٤٢٧هـ
١٧ يوليو ٢٠٠٦م

١٨ هامش (الاستواء) ص٩ تصحيح العنوان
٣١ آراء
٤٣ أخشى ـــــ ٤٤ عبوديته
٣٧ هامش (تكملة)
٥٥ فاتفقت
٧٦ طرفاها
١٨٥ هامش (شايعوا)
١٤٩ والطرائد
١٢١ الواو
٩٩ أولى
١١٧ مفضيًا

١٢٩ صلى الله عليه وسلم
١٧٢ صلى الله عليه وسلم
١٧٣ صلى الله عليه وسلم
١٧٩ والخضر

١٨٣ الآية (ألا إن أولياء الله..)
١٨٦ هامش (شايعوا
١٨٢ وما بعدها (إضافة هامشها

الموجز في
العقيدة الإسلامية
مختصر عقيدة الإمام السفاريني

ص ١٠٨/١١٠

ص ١١١ تعديل الصفات بعد التعريف... وبعدها

ص ٧٦ / ص ١١٤ | إضافة

الطبعة الأولى
١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م

رقم الإيداع القانونى
٧٢٦١ / ٩٩

الترقيم الدولى : 977-253-220-4

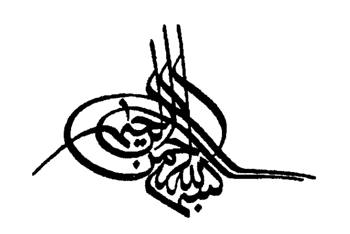
دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع
المركز الرئيسى : ٢ ش منشا - محرم بك - الإسكندرية .
ت : ٤٩٠١٩١٤ - فاكس : ٥٩٥١٦٩٥
يطلب من الدار العربية للتوزيع
٢ ش منشا - محرم بك الإسكندرية ت : ٥٤٣٦٨٢٣ - ٤٩٠٧٩٩٨
مكتب توزيع القاهرة ت : ٣٨٣٢٧٤٧

الموجز
في
العقيدة الإسلامية

مختصر عقيدة الإمام السفاريني

تقديم واختصار
د. مصطفى حلمي

دار الدعوة





الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه ومن والاه إلى يوم الدين، وبعد:

فإني أكتب مقدمة هذا الكتاب متوقعاً مقدماً الأصوات التي سترتفع معترضة وهي: إما ساخرة مستهزئة بلسان بعض العلمانيين المتوهمين أن تعميق التديُّن يعرقل التقدم ونحن في مطلع القرن الواحد والعشرين، وإما غاضبة بسبب اختصار أحد كتب التراث بغير إبداع وإنشاء جديد .

وبهدوء تام، وبنيَّة خالصة لإقناع كلا الطرفين، أراني أعذر أصحاب الطرف الأول لأنهم ضحايا الغزو الثقافي الغربي الذي صوّر لهم التدين في الإسلام على نمط التدين في المسيحية، إذ كان عائقاً هناك كما يذكر الفيلسوف برتراند رسل بسبب سلطان رجال الكنيسة وحجرها على العقول، ولو أعطوا اهتمامهم للثقافة الإسلامية لتبين لهم أن التجربة المسجلة بصفحات التاريخ أسفرت عن بلوغ أمة الإسلام قمة حضارتها المشعّة، عندما جمعت بين العقائد الإيمانية والعلوم التجريبية، كما نظّمت شئون حياتها بالتحقيق العملي للعبودية لله عز وجل في دروب الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والعلمية والتربوية، وكانت العقائد الإسلامية كالدوائر المتداخلة، يتصل بعضها ببعض بإحكام، والأمثلة كثيرة: فإن محبة الله تعالى وخشيته تورث اليقين والتقوى، ومحبة رسوله ﷺ تورث الحرص على الاقتداء به، والإيمان باليوم الآخر يساعد على بذل ما في الوسع من الصالحات للعون على اجتياز مراحل العمر الثلاث: في الدنيا ثم البرزخ ثم على الصراط في الآخرة .

وعلى أمتنا المحافظة على تراثها النقلي ومصدره الأعلى (الوحي)، والتعلّق بالدين كمنقذ لأزماتنا ومانع لانحدارنا الذي نشكوا منه، وحتى لا نمر بانحدار التجربة الغربية التي هوت بها إلى أزماتها الحالية كما عللها الفيلسوف الفرنسي المعاصر رينيه جينو بثلاثة أسباب:

١ ـ التهوين من شأن الدين والعمل على أن يصبح شيئاً يوضع في زاوية على حده .

٢ ـ إنكار الاعتراف بأي سلطة فعلية في الميدان الروحي،(وأصبح الدنيويون الجهلاء يستبيحون مناقشة أمور مقدّسة والطعن في طابعها، بل وجودها نفسه، وأصبح الدنيّ

يحكم على العليّ ، والجهل يضع الحـدود للحكمة، والخطأ يسبق الحقيـقة، والإنساني يحل محل الإلهي، والأرض تنتصر على السمـاء . وصار الفرد المقياس الذي تقاس به الأشيـاء جميعـا ويطمح إلى أن يملي على الكون قوانين استـخرجها من عـقله النسبي المحدود الذي يخطئ ويصيب .

٣ ـ تغلبت (وجـهة النظر الدنيوية) وارتفـع شأن الروح المعادي للتـراث النقلي وهو الروح الذي تلتقي فيه كل التيّارات الحديثة .

كذلك أعـذرهم تارة أخرى لأنهم لا يتابعـون حركة الأصـوليين المسيحـيين ذات النفوذ السياسي الواسـع في المجتمع الأمريكي ودول أوروبا المعتـنقة للمذهب البروتستـانتي تأييداً لإسرائيل التي أنشئت بدورهـا على أساس عقيدة دينيـة (!) وأخذت أبواق الدعاية المضللة تصف رؤساءها بأنهم علمانيين ولا دينيين حتى لا نصدّق ما يجرى أمام أعيننا من شعارات دينية لا تخطئها عين كلبس الطـاقية شعار التدين والبكاء أمام حائط المبكى وشـعار النجمة السداسية على العلم وحرص الجيش على تعيين حاخام في كل كـتيبة ويصاحبها في المعارك العسكرية كما شاهدنا في حرب سنة ١٩٦٧م .

ووراء هذه الظواهر ، يأتي تحليل أحد كتّابهم ليحـسم الأمر في صالح المتدينين اليهود: فإلى من يشكّك في واقع المجتمع اليهودي الراهن على أساس ديني، نقدّم خلاصة ما كتبه (شلومون بن عامي) الأستاذ بجامعة تل أبيب وعضو البرلمان الإسرائيلي عن حزب العمل، فبـعد أن تأسّف على تفتت الصـورة الأسطورية التي آمل المؤسسون من الصـهاينة على أن تكون بوتقة صـهر، انفجرت الصراعـات العنيفة بين الجمـاعات اليهودية في أنحـاء العالم وبددت الحلم فوقعت هذه الجماعات بين «الحاخمية» المتزمتة، وفجور العلمانية الملحدة .

ويختم مقاله بتصوير الصراع الدائر حتى الآن (حيث انتقل مع اليهود إلى أرض فلسطين المحتلة، وقد كانت الصهيونية العلمانية تخطـط لقيام «دولة يهودية» علمانية محاولة التوفيق بين القيم الدينية التي لا تؤمن بها وبين الحاجة إليها كإطار تاريخي، إلا أنه مع مرور الوقت أخذ نجم القوى الدينية المتطرفة في الصعود)[1] .

كذلك فإن الطابع المسيحي لحضارة الغرب ـ بالرغم من أنه غير ظاهر للعيان لأول وهلة

ـ أزمة العـالم المعاصر: بقلم العلامـة الفرنسي / رينيه جينو المعـروف بالشيخ عبـدالواحد يحيى، ترجمـة سامي محمد عبدالحميد . ط النهار للطبع والنشر ١٩٩٦م ، صفحات ١١٩-١٢٢-١٠٩ .

(١) نقلاً عن جريدة «الشعب» القاهرية في ٢ مارس ١٩٩٩م ص٧ .

ـ فإن الدين هناك يختفي وراء ستار، أمام أمة الإسـلام بالذات كما يرى الأستاذ العقاد كما سنرى ـ ولكنه يُستدعى من مكمـنه لإيقاظ باعث العداء نحو المسلمين بعد اختـفاء (الاتحاد السوفييتي) .

ونكتفي في هذه العجالة برأي المؤرخ البريطاني المسموع الكلمة في قومه ـ ارنولد توينبي ـ الذي عكف على تتبع حضارات العـالم كلها تاريخياً وفلسفياً وأثبت أن الحـضارة الغربية ليست إلا واحـدة بين ثلاثين حضارة سـبق لها أن انحلت وتدهورت، ولمنعهـا من اللحوق بسوابقهـا فلابد من العودة إلى الاتجاه الديني ويأمل بأن يكون خلاص الغـرب بالانتقال من الاقتصاد إلى الدين مؤكداً ذلك بقوله: (إن الغرب يستطيع بواسطة الدين أن يتصرف تصرفاً روحيا يضمن سلامته بالقوة المادية التي ألقتها بين يديه ميكانيكية الصناعة الغربية »[1] .

ويريد توينبي إحياء المسيـحية من جديد بالرغم من انقطاع صلتها بالأنظمـة في السياسة والاقتصاد والاجـتماع، فهو يرى بتأملاته وبحـوثه أن العقيدة مازالت باقيـة، يرضعها كل طفل غربي مع لبن أمـه، ويستنشقـها كل رجل وامرأة غـربيين مع الهواء الذي يتنفـسانه، مؤكداً تغلغل الدين في نفوس بني جلدته، وشاكـاً في (جدية الجهود التي بذلها كل من : ديكارت وفولتير وماركس ومـاكيا فيللي وهوبز وموسيليني وهتلر لانتزاع الصبغـة المسيحية عن الحياة الغربية)[2] .

وكان الأستاذ العقاد من الواعين لدخائل الغرب في دوافـعه الدينية بالمستعمرات وأغلبها يقع في عـالمنا الإسلامي ، فكتب يُعـرِّفنا بأن (السيـاسة اللا دينيـة تقف عند فـرنسا ولا تتعـداها إلى المستعـمرات)[3] ، كما أيقظـنا من غفلتنا بقوله (من ألقاب التـاج البريطاني «الحارس للديانة المسيحية»[4] .

(١) توينبي: بحث في التاريخ (نقلاً عن كولن ولسون، سقوط الحضارة ص١٦٥ ط دار العلم للملايين ـ بيروت ١٩٥٩م) .

(٢) توينبي : مختصر تاريخ العالم جـ٢ ص٢٠٨ .

ولكن أصابه الحـول عند النظر إلى أمة الإسلام فـكان حريصا على أن تظل الوحـدة الإسلاميـة نائمة، متوِّهاً بأن يضع الغرب في حسـابه أن النائم قد يستيقظ ومحذِّراً قـومه من هذه اليقظة (الإسلام والغرب والمسـتقبل) تعريب الدكتور نبيل صبحي ـ دار العربية ـ بيروت ١٣٨٩هـ ـ ١٩٦٩م .

(٣) الإسلام في القرن العشرين ـ حاضره ومستقبله، العقاد ص١٠٥ دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ ١٩٦٩م

(٤) نفسه ص٦١ .

كما لم يفته تتبع أمارات الصبغة المسيحية للحضارة الغربية، بما تكرر على ألسنة فلاسفتها وساستها من دعوة إلى الغزو باسم المسيح عليه السلام، وبدليل أن التبشير هو الأول في الترتيب قبل الاستعمار والاستغلال ، ومن رأيه أن الغرب يتحاشى إثارة العاطفة الدينية لدى المسلمين!

ويبقى حديثنا للطرف الثاني المعارض للتصرف في كتب التراث بالاختصار فنقول:

من مبررات الاهتمام بكتب التراث ومنها هذا الكتاب تصحيح العقائد التي شوّهت في السنين الأخيرة، إذ يُلاحظ أن عامة التصور الديني لدى المسلمين منذ عصر الاحتلال العسكري الأوروبي أخذ ملامح متباينة، فاختلف باختلاف المدارس الوطنية التي خطط المبشرون مناهجها، أو الأجنبية التي أنشأها الاستعمار لتربية أجيال تُسقى من معين ثقافته، مع فشو الأمية، وسيطرة الفرق الصوفية بعقائدها البدعية على الجماهير، فنتج عن ذلك اضطراب في التصور العقائدي وأصبحت ملامحه تتوزع في الغالب حسب التصنيف التالي:

١ ـ وقف البعض عند مظاهر التدهور ولم يعنوا بالبحث عن العقائد الصحيحة من مصادرها، إذ خلطوا بين أحوال المسلمين المتدهورة والإسلام في أصوله ومنابعه، فانصرفوا عن التدين وأهملوا الدين إلا في المناسبات والأعياد وعنوا بالشكل دون المضمون .

٢ ـ خضعت العامة للصوفية وعاشت أجواء من الجهل والخرافات، وأصبح التدين عندهم زيارة أضرحة واحتفال بالموالد .

٣ ـ اعتقد بعض خاصة المثقفين بوحدة الأديان فالإسلام عندهم كالنصرانية واليهودية دون تمييز .

٤ ـ غلب على أصحاب الثقافة الغربية تصور الدين كعاطفة قلبية تخضع للعلاقة بين العبد وربه ولا شأن له بالحياة الاجتماعية أو السياسية أو الاقتصادية أو التربوية .

وكانت الهزائم المتوالية، والتقهقر المشين في النِّزال مع قوى الغرب ورأس الحربة ـ إسرائيل ـ .

وكانت بوادر اليقظة التي جذبت الدارسين والمحللين بمراكز البحوث، وظن بعضهم كما يرى الدكتور مراد هوفمان أنها حركة اجتماعية تبدي احتجاجها ، أو تعبيراً عن العجز

التكنولوجي، ثم تبيّن خطؤهم الفادح لأنهم عجزوا عن فهم العامل الديني الأصيل، ولم يتفهّموا التدين عند الآخرين أي (الذين يأخذون الدين مأخذ الجد، ويرونه محور حياتهم)(١) .

أليس من «المصلحة» في ضوء هذه النبضات التي عادت تضخ في قلب الأمة، أن نمدها بكتب التراث في شكل مختصرات كمداخل للتوعية الصحيحة بعقائد الإسلام ؟

والفائدة المرجوّة هي نشر المعلومات الصحيحة على أوسع نطاق ممكن بطبعات شعبية في وقت حالت فيه ارتفاع أسعار الورق وتكاليف الطباعة دون نشر الأصول وهي من شأن خاصة طلاب العلم .

ومؤلف المختصر هو محمد بن علي بن سلّوم التميمي (توفي سنة ١٢٤٦هـ) واشتهر الكتاب بأنه (**مختصر شرح عقيدة السفاريني**) .

أما السفاريني فهو الشيخ/ محمد بن الحاج أحمد بن سالم السفاريني، نسبة إلى سفارين، قرية من أعمال نابلس ـ وُلِد سنة ١١٤١هـ وتوفِّي سنة ١١٨٩هـ وقد طُبِع المختصر بعنوان :

مختصر لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية
شرح
الدرة المضّية في عقد الفرقة المرضية
بتحقيق الشيخ محمد زهري النجار من علماء الأزهر

نشرته دار الكتب العلمية ـ بيروت ويقع في ٥٧٦ صفحة

وهو الأصل الذي اعتمدنا عليه في الاختصار

ومنهج المؤلف لا يختلف عن مناهج كتب العقائد الإسلامية في عرض قضاياها بشكل مفصّل، مع تدعيم عقائد أهل السُّنّة والجماعة، ردّاً على الفرق المخالفة لهم، فينفعنا بإعاده صقل المفاهيم العقدية بالكتاب والسُّنّة وإحيائها في العقل والوجدان لصدّ موجة المطالبة بالتوافق مع العصر ـ وهي في حقيقتها تغيير للدلالات الثابتة بمفردات العقائد الإسلامية المتوارثة جيلاً بعد جيل والمجمع عليها بواسطة علماء السُّنّة، وهي في عصرنا الحاضر بمثابة

---

(١) الإسلام كبديل ، د. مراد هوفمان ص٣١ مجلة النور الكويتية ـ مؤسسة بافاريا ، ترجمة د/ غريب محمد غريب شوال ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م .

(الخندق) الثقافي الذي نحتمي به ونتفادى السهام الموجّهة إلى العقائد والقيم في شكل حملات طعن وتشكيك وتشويه مستغلّة التقدم التكنولوجي بوسائل الاتصال كالبث الفضائي والإنترنت، ويا حبّذا لو استعملنا نفس هذه الوسائل في الدعوة إلى الله عز وجل وشرح عقائد الإسلام ومبادئه كدين عالمي للبشرية كافة، وردّ كيد (العولمة) إلى نحور أصحابها .

وقد التزمت بمنهجي بحذف الآراء المكررة الدائرة حول إحدى العقائد، إذ يلاحظ صعوبة متابعة المؤلف بسبب غزارة النقول عن العلماء وعرض المذاهب في كل مسألة، واستبعاد نقاط الخلاف التي ربما تثير البلبلة في أذهان غير المتخصصين، مع المحافظة على ارتباط أبواب الكتاب بترتيبها حسب الأصل .

وأسأل الله العلي القدير أن ينفعني به والمسلمين، ويجعل عملي خالصاً لوجهه

مصطفى بن محمد حلمي

الإسكندرية في: ١٤ ذي الحجة ١٤١٩هـ
أول أبريل ١٩٩٩م

الباب الأول

في معرفة الله تعالى ، ومايتعلق بذلك من الصفات التى يثبتها المتكلمة ، كالسلف، وأسمائه تعالى وغير ذلك [1] .

* * *

(١) ص ٩٢

عـرض المؤلف فى هذا الباب لأقـوال المعتـزلة بأن مـعرفـة الله عزوجل وجـبت عقـلا لاشرعاً، بينمـا يرى علماء الحديث والسنّة أن وسيلة معـرفة الله تعالى هى الفطرة، وأورد قول الشـيخ عثمان النجـدى (أوّل نعم الله الدينية على عبـده ، أن أقدره على معرفـته ، فيجب على كل مكلف شرعاً ، أن يعرف الله تعالى بصفات الكمال)[1].

ثم يخصص فصلاً فى بحث أسماء الله جل وعلا ، يمهّد له بتنبيهين :

(١) الأول : اختلف فى مـراتب إحصاء أسمـاء الله تعالى[2] التى من أحصاها دخل الجنة. وهذا قطب السعادة؛ ومدار النجاة والفلاح .

فقيل : **أحصى ألفاظها وعددها،** وقيل : فهم معانيها ومدلولها؛ وقيل : دعاه بهما كما قال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ﴾ وهذا على مرتبتين.

إحداهما: دعاء ثناء وعبادة. والثانى : دعاء طلب ومسألة ؛ فـلا يُثنى عليه إلا بأسمائه الحسنى؛ وصـفاته العلى ، ولذلك لايسأل إلا بهـا فلا يقال : « يامـوجود» أو «ياشئ» أو «ياذات» اغفر لى وارحمنى، **بل يسأل فى كل مطلوب باسم يكون مقتضيا لذلك المطلوب، فيكون السائل متوسلا إليه بذلك الاسم .**

قال فى « البدائع » وهذه العبارة أولى من عبارة من قال: **نتخلق بأسماء الله، فإنها ليست** بعبارة سديدة ، وهى منتزعة من قول الفلاسفة : **الفلسفة التشبه به على قدر الطاقة.**

والحاصل : أن لهم أربع مراتب ، أشدها إنكاراً عبارة الفلاسفة، وهى التشبه به تعالى، ثم يليها عبارة من قال « التخلق بأسـمائه تعالى » وأحسن منها عبارة **أبى الحكم بن برّجان وهى التعبد** ، وأحسن من الجميع الدعاء، وهى المطابقة للأمر القرآنى ، وبالله التوفيق .

(٢)الثانى : الإلحاد فى أسمائه تعالى المشـار إليه فى قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[الاعراف: ١٨٠] هو العدول بها وبحقائقها ومعانيهـا عن الحق الثابت لها، وهو مأخوذ من الميل كما تدل عليه مادة (ل ح د) تقول العرب «التحد فلان إلى فلان » إذا عدل إليه ، والإلحاد فى أسمائه تعالى أنواع .

(١) ص ٩٣ .
(٢) يقصد حديث الرسول ﷺ (لله تسعة وتسعون اسماً) .

أحدها : أن تسمى الأصنام بها كتسميتهم « اللات » من الإلهية و « العزى » من «العزيز» وتسميتهم الصنم إلهـا. وهذا إلحاد حقيقة ، فإنهم عدلوا بأسمائه إلى أوثانهم وآلهتهم الباطلة .

الثاني : تسميته بما لايليق بجلاله، كتسمية النصارى له « أبا » وتسمية الفلاسفة «موجبا بذاته» أو « علة فاعلة بالطبع » ونحو ذلك .

الثالث : وصفه بما يتعالى عنه ويتقدس من النقائص ، كقول أخبث اليهود « إنه فقير» وقولهم « إنه استراح بعد أن خلق خلقه » وقولهم « يد الله مغلولة » وأمثال ذلك مما هو إلحاد فى أسمائه وصفاته .

رابعها : تعطيل الأسماء عن معانيها وجحد حقائقها ، كقول الجهمية ومن تبعهم « أن أسمائه تعالى ألفاظ مجردة لاتتضمن صفات ولامعان » .

فيطلقون عليه اسم السميع ، والبصير ، والحى ، والرحيم ، والمتكلم ، والمريد ، ويقولون : لاحياة له ، ولاسمع ، ولابصر ، ولاكلام ، ولاإرادة تقوم به .

وهذا من أعظم الإلحاد فيها، عقلاً، ولغة، وشرعاً، وفطرة، وهو مقابل لإلحاد المشركين .

خامسها : تشبيه صفاته تعالى بصفات خلقه ، فهو إلحاد فى مقابلة إلحاد المعطلة ، تعالى الله عن إلحادهم ، علواً كبيراً .

وبرأ الله أتباع رسوله ﷺ ، وورثة نبيه القائمين بسنته عن ذلك كله ، فلم يصفوه إلا بما وصف به نفسه ، أو وصفه به نبيه ﷺ .

فأثبتوا له الأسماء والصفات ، ونفوا عنه مشابهة المخلوقات .

فكان إثباتهم بريئاً من التمثيل ، وتنزيههم خليا عن التعطيل ، والله يهدى من يشاء إلى سواء السبيل ، انتهى ملخصاً من البدائع .

* * *

فصل فى بحث صفات مولانا عزوجل

اعلم أن التوحيد ثلاثة أقسام ، توحيد الربوبية ، وتوحيد الألهية ، وتوحيد الصفات .

فتوحيد الربوبية :أن لاخالق ، ولارازق ، ولامحيي ، ولامميت ، ولاموجد ، ولامعدم إلا الله تعالى .

وتوحيد الإلـهية : إفراده تعالى بالعبـادة ، والتأله له ، والخضوع ، والذل ، والحب ، والافتقار ، والتوجيه إليه تعالى .

وتوحيد الصفات : أن يوصف الله تعالى بما وصف به نفسه ، وبما وصفه به نبيه صلى الله عليه وسلم ، نفيا وإثباتا، فيثبت ماأثبت لنفسه ، وينفى عنه مانفاه عن نفسه .

وقد علم أن طريقـة سلف الأمة وأئمتهـا ، إثبات ماأثبتـه من الصفات ، من غيـر تكييف ولاتمثيل ، ومن غيـر تحريف ولاتعطيل ، وكذلك ينفون عنه ، مـانفاه عن نفسه ، مع مـاأثبته من الصفات ، من غير إلحاد فى الأسماء ، ولافى الأيات .

والله سبحانه بعث رسله **بإثبات مفصل، ونفى مجمل .**

فالإثبات المفصل من أسمائه وصفاته ، ماأنزله من محكم آياته كقوله تعالى :

﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ــ الآية ﴾ ، ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ــ السورة ﴾ ﴿ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾﴿ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴾﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾﴿ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ .

﴿ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾﴿ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ ﴾ ﴿ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ ﴾﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ ﴾﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ إلى أمثال هذه الآيات والأحاديث الثـابتة فى أسماء الرب وصفـاته سبحانه وتعـالى، فإن فى ذلك ، من إثبات ذاته وصفاته ، على وجه التفصيل ، وإثبـات وحدانيته ينفى التمثيل ، ماهدى الله به عباده إلى سواء السبيل ، فهذه طريقة الرسل صلوات الله عليهم اجمعين .

بخلاف من حادَّ وزاغ عن سبيلهم من الكفار والمشركين ،ومن ضاهى هؤلاء من الصابئة، والمتفلسفة ، والقرامطة ، والجهمية ، والباطنية ، والملحدين [1] .

ولما كانت أسماؤه الحسنى يقول بإثباتها أهل السنة ، وكذا المعتزلة على مامر ، قدم البحث عليها .

ولما كانت صفاته تعالى ، منها ماتفق عليه كالصفات السبع ، ومنها مااختلف فيه كصفات فعله تعالى ، ورحمته ، وغضبه ، ونحوها ، بدأ بما اتفق عليه منها ، وهي السبع صفات ، صفات الثبوتية .

له الحياة والكلام والبصر　　سمعٌ إرادةٌ وعلمٌ واقتدر

---

(١) الصابئة في تعريف الشهرستاني أنها فرقة كانت في زمان إبراهيم الخليل عليه السلام كانت تقول : إنا نحتاج في معرفة الله تعالى، ومعرفة طاعته وأوامره، وأحكامه إلى «متوسط» لكن ذلك «المتوسط» يجب أن يكون روحانياً لا جسمانياً، وذلك لزكاء الروحانيات، وطهارتها، وقربها من رب الأرباب، والجسماني بشر مثلنا، يأكل مما نأكل، ويشرب مما نشرب، يماثلنا في المادة والصورة، قالوا ﴿ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَراً مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذاً لَّخَاسِرُونَ ﴾ .

الملل والنحل جـ١ ص٢١٠ تخريج محمد بن فتح الله بدران، مكتبة الأنجلو المصرية شوّال ١٣٧٥هـ - مايو ١٩٥٦م.

القرامطة : هم الشيعة الإسماعيلية، امتازت عن الإثنى عشرية بإثبات الإمامة لإسماعيل بن جعفر .

وأشهر ألقابهم : الباطنية، وإنما لزمهم هذا اللقب، لحكمهم بأن لكل ظاهر باطناً، ولكل تنزيل تأويلاً .

ولهم ألقاب كثيرة ـ سوى هذه ـ على لسان قوم : فبالعراق يسمون : الباطنية ، والقرامطة ، والمزدكية .

وبخُراسان : التعليمية، والملحدة . ص١٧٢ الملل والنحل جـ١ .

الجهمية : أصحاب (جهم بن صفوان) وهو من (الجبرية الخالصة) . . وافق المعتزلة في نفس الصفات الأزلية، وزاد عليهم بأشياء :

منها قوله : لا يجوز أن يوصف الباري تعالى بصفة يوصف بها خلقه، لأن ذلك يقتضي تشبيهاً، فنفى كونه: حيّاً، عَالماً، وأثبت كونه قادراً، فاعلاً، خالقاً، لأنه لا يوصف بشيء من خلقه، بالقدرة، والفعل والخلق.

ومنها قوله : إن الإنسان لا يقدر على شيء، ولا يوصف بالاستطاعة وإنما هو مجبور في أفعاله: لا قدرة له ولا إرادة، ولا اختيار . .

ومنها قوله: إن حركات أهل الخلدين تنقطع، والجنة والنار تفنيان .

ومنها قوله : من أتى «بالمعرفة» ثم جحد بلسانه لم يكفر بجحده، لأن العلم والمعرفة لا يزولان بالجحد، فهو مؤمن، قال: والإيمان لا يتبعّض أي لا ينقسم إلى : عقد، وقول، وعمل، قال: ولا يتفاضل أهله فيه، فإيمان الأنبياء وإيمان الأمة على نمط واحد .

وقد علّق الشهرستاني على عقائده الباطلة بقوله « وكان السلف كلهم من أشد الرادين عليه ، ونسبته إلى التعطيل المحض، وهو أيضاً موافق (للمعتزلة) في نفس «الرؤية» وإثبات خلق الكلام، وإيجاب المعارف بالعقل قبل ورود «السمع» . ص٨١ جـ١ الملل والنحل .

قال العلماء : حياة البارى عزوجل مما اتفق عليه العقلاء .

واتفق أئمة السلف على أن كلام الله منزل غير مخلوق منه بدأ وإليه يعود .

قال شيخ الإسلام :ومعنى قول السلف « وإليه يعود » ماجاء فى الآثار « إن القرآن يسرى به، حتى لايبقى فى المصاحف منه حرف ولافى القلوب سنة آية » .

وماجاءت به الآثار كالحديث الذى رواه الإمام أحمد فى المسند ، وكتبه للمتوكل فى رسالته التى أرسل بها إليها ،عن النبى ﷺ أنه قال : « ماتقرب العباد إلى الله بمثل ماخرج منه » يعنى القرآن وفى لفظ « بأحب إليه مما خرج منه » وقول ابن عباس ﷺ لما سمع قائلاً يقول لميت لما وضع فى لحده : اللهم رب القرآن اغفر له، فالتفت إليه ابن عباس فقال: مه، القرآن كلام الله ليس بمربوب منه بدأ وإليه يعود .

(و) يجب له سبحانه وتعالى (البصر) وهو صفة قديمة قائمة بذاته تعالى يتعلق بالمبصرات، فيدرك بها إدراكاً تاما، لاعلى سبيل التخيل والوهم ولاعن طريق تأثر حاسة.

والسمع صفة قديمة تتعلق بالمسموعات وإثبات هاتين الصفتين أعنى السمع والبصر، للدلائل السمعية .

وهما صفتان زائدتان على الذات، عند أهل السنة، كسائر الصفات لظواهر الآيات والأحاديث، وليسا راجعين إلى العلم بالمسموعات والمبصرات خلافاً للفلاسفة ومن وافقهم.

فظواهر الكتاب والسنة تدل على المغايرة بين العلم والسمع والبصر . ففى البخارى فى باب (وكان الله سميعاً بصيراً) عن عائشة رضى الله عنها قالت . . الحمد لله الذى وسع سمعه الأصوات .

وعن أبى موسى الأشعرى ﷺ قال : (كنا مع رسول الله ﷺ فى سفر، فكنا إذا علونا كبرنا) فقال : (أربعوا على أنفسكم ، فإنكم لاتدعون أصمّ ولاغائباً إنما تدعون سميعاً بصيراً قريباً ـ الحديث) .

وقال الإمام الحافظ البيهقى فى كتابه (الأسماء والصفات (السميع) من له سمع يدرك به المسموعات ، و(البصير) من له بعد يدرك به المرئيات ، وكل منهما فى حق البارى ، صفة قائمة بذاته تعالى . وقد أفادت الآيات والأحاديث ، الرد على من زعم أنه (سميع بصير) بمعنى عليم .

تنبيه ...

ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية وغيره من علماء الكلام أدلة عقلية على إثبات صفة العلم لله تعالى .

منها : إيجاده سبحانه وتعالى الأشياء لاستحالة إيجاده الأشياء مع الجهل .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية :هذا الدليل مشهود عند نظار المسلمين ، أولهم وآخرهم، والقرآن قد دل عليه كما فى قوله تعالى ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ ودليل ثبوت العلم لله تعالى سمعا من الكتاب والسنة كثير جداً كقوله تعالى ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ ، ﴿ لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ ﴾﴿ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾ ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ ﴾﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾ ومالايحصى من الآيات إلا بكلفة .

فصل [1]

فى ذكر الصفات التى يثبتها لله تعالى أئمة السلف وعلماء الأثر دون غيرهم من علماء الخلف وأهل الكلام، فضلاً عن فرق أهل الزيغ، وأساطين الفلاسفة وأهل الإلحاد .

والموضوع الرئيسى لهذا الفصل شرح بيت الشعر الآتى :

سبحانه قد استوى كما ورد   من غير كيف قد تعالى أن يُحدّ

(سبحانه) وإنما صدّر بالتسبيح ، إشارة إلى تنزيهه تعالى عن قول المعطلة ، واعتقاد الممثلة .[2]

(قد استوى) على عرشه من فوق سبع سماواته ، استواء يليق بذاته (كما ورد) فى الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والنصوص السلفية ، مما لايحصى ويتعذر أن يستقصى .

فهذا كتاب الله من أوله إلى آخره، وسنة رسول الله من أولها إلى آخرها، ثم عامة كلام الصحابة رضى الله تعالى عنهم والتابعين لهم بإحسان ، ثم كلام سائر أئمة الدين ممن تلوى على كلامهم الخناصر، ولاينازع فيه إلا كل معاند ومكابر ، بأن الله تعالى مُستوٍ على عرشه ، بائن من خلقه .

---

(1) ص ١٣٨ - ويقصد هنا صفات الأفعال الاختيارية ومنها (الاستواء) ، بعد

(2) ص١٣٩ - شرحه لصفات الذات كالسمع والبصر والكلام .

قال شيخ الإسلام وتلميذه المحقق في « الجيوش الإسلامية » هذا كتاب الله ، وذكر مثل ماذكرنا ، وقال في قوله تعالى : ﴿ الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العـرش ﴾ إلى قوله : ﴿ العزيز الرحيم ﴾ تأمل مافي هذه الآيات من الرد على طوائف المعطلة والمشركين .

وقوله : ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ يتضمن إبطال قول الملاحدة القائلين بقدم العالم ، وأنه لم يزل ، وأن الله تعالى لم يخلقه بقدرته ومشيئته .

بل من أثبت منهم وجود الرب ، جعله لازماً لذاته ، أزلاً وأبداً ، كما يقوله ابن سينا، والنصير الطوسى ، وأتباعهما من الملاحدة الجاحدين ، لما اتفقت عليه الرسل ، والكتب ، وشهدت به العقول والفطر .

وقـوله ﴿ ثُمَّ اسْـتَـوَىٰ عَلَى الْعَـرْشِ ﴾ يتـضـمن ابطال قـول المعطلة الجـهـمـيـة ، الذين يقولون: ليس على العرش سـوى العدم، وأن الله ليس مستوياً على عـرشه ، ولاترفع إليه الأيدى ،ولايصعد إليه الكلم الطيب ، ولارفع المسيح إليه ، ولاعرج برسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولاتعـرج الملائكة والروح إليه ، ولاينزل من عنده جـبريل بوحى الله . إلخ كلامه رحمه الله تعالى .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ ﴾ [الاعراف: ٥٤] .

وقوله : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ﴾[يونس: ٣] ،وقوله : ﴿ تَنزِيلاً مِّمَّنْ خَلَقَ الأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى * الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴾ وقوله : ﴿ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً ﴾ وقوله : ﴿ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ﴾ [الحديد: ٤] .

فذكر عموم علمه ، وعموم قدرته ، وعموم إحاطته ، وعموم رؤيته .

وأما الاحاديث ، فمنها قصة المعراج فهى متواترة وتجاوز النبى ﷺ السموات ، سماء سماء ، حتى انتهى إلى ربه ، فقر به وأدناه ،وفـرض عليه خمسين صلاة، فلم يزل يتردد بين موسى عليـه السلام وبين الله تعالى ينزل من عند ربـه إلى موسى فيســأله : كم فرض

ربك عليك ؟ فيخبره ، فيقول : ارجع إلى ربك فاسـأله التخفيف عن أمتك ،فيصعد إلى ربه فيسأله التخفيف .

وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

«لما خلق الله الخلق كتب فى كتاب، فهو عنده فوق العرش أن رحمتى تغلب غضبى».

وفى لفظ كتب فى كتابه به على نفسه فهو موضوع عنده « إن رحمتى تغلب غضبى» .

وفى لفظ « فهو مكتوب عنده فوق العرش » .

وذكر الإمـام البخارى فى « كتـاب التوحيد » من صـحيحه ، حـديث أنس ابن مالك رضى الله تعـالى عنه حديث الإسـراء ،وفـيه ثم عـلا به (يعنى جـبريل) فـوق ذلك بما لايعلمه إلا الله حـتى جاوز سدرة المنتهى ، ودنا من الجـبار رب العزة ، فتدلّـى حتى كان قاب قوسين أو أدنى ، فأوحى إليه فيما أوحى ، خمسين صلاة كل يوم وليلة .

ثم هبط حتى بلغ موسى عليه السلام فاحتبسه موسى عليه السلام ، فقال : يامحمد، ماذا عـهد إليك ربك ؟ قـال :عهد إلى خـمسـين صلاة كل يوم وليلة . قـال : إن أمتك لاتستطيع ، فارجع فليخفف عنك ربك وعنهم .

فالتفت النبى ﷺ إلى جبريل كأنه يستـشيره فى ذلك ،فأشار إليه جبريل أن « نعم » إن شئت فَعَلاَ به الجبار تبارك وتعالى ـ الحديث » .

وقال ﷺ فى حكومة سعد بن معاذ فى بنى قريظة :

« لقد حكـمت فيهم بحكـم الملك من فوق سبـعة أرقـعة » وفى لفظ « من فـوق سبع سموات ».

وأصل القصة فى الصحيحين وفى صـحيح مسلم من حديث معاوية بن الحكم السلمى رضي الله عنه قال :

لطمت جارية لى ، فأخبرت رسول الله ﷺ ، فعظم ذلك على، فقلت يارسول الله: أفلا أعتقـها، قال : بل ائتنى بها ، قال : فجئت بها رسـول الله ﷺ فقال لها : « أين الله ؟ » فقـالت : فى السمـاء قال : « فمن أنا؟ » قـالت : أنت رسول الله ، قـال « إنها مؤمنة » وفى لفظ « اعتقها فإنها مؤمنة ».

قال الحافظ الذهبى فى كتابه « العرش » رواه مسلم وأبو داود والنسائى وغير واحد من

الأئمة فى تصانيفهم يدونونه كما جاء ، وقال فى أول الحديث من الأحاديث المتوافرة الواردة فى العلو .

وفى صحيح البخارى عن أنس بن مالك ﷺ قال: كانت زينب تفخر على أزواج النبى ﷺ وتقول « زوجكن أهاليكن وزوجنى الله من فوق سبع سموات » .

وقال ﷺ فى حديث الأوعال :« والعرش فوق ذلك ، والله فوق عرشه، وهو يعلم ماأنتم عليه » رواه الإمام أحمد فى المسند ، وابن خزيمة فى كتاب التوحيد وقول عبد الله بن رواحة الذى أنشده للنبى ﷺ :

شهـــدت بأن وعد الله حـق ... وأن النـــار مـــأوى الـكافـريـن

وأن العرش فوق الماء طـــاف ... وفوق العرش رب العالمينا ـ أهـ

وقد جاء فى الكتاب والسنة مايتعذر ، أو يتعسر إحصاؤه .

فتارة يخبر أنه خلق السموات والأرض فى ستة أيام، ثم استوى على العرش، كما مر.

وقد ذكر الله استواءه على العرش فى سبع مواضع من كتابه .

وتارة بخبر بعروج الأشياء وصعودها وارتفاعها إليه .

وتارة يخبر بنزولها من عنده ،وتارة يخـبر بأنه العلى الأعلى كقوله :﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ﴾ ﴿ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ .

قال شيخ الإسلام: وأما الأحاديث، والآثار عن الصحابة والتابعين، فلا يحصيها إلا الله .

ولايخلو إما أن يكون مااشـتركت فيه هذه النصوص، من إثـبات علو الله تعالى على خلقه ،واستوائه على عرشه هو الحق، أو الحق نقيضه، إذ الحق لايخرج عن النقيضين .

وإما أن يكون هو جل شأنه نفسه فوق الخلق، أو لايكون فوق الخلق، كما يقول الجهمية الذين يقولون : هو سبحانه، لافوقهم، ولافيهم، ولاداخل العالم، ولاخارجه، ولامباين، ولامحايب .

وتارة يقولون « هو بذاته فى كل مكان » .

وفى كلا المقالتين يدفعون أن يكون هو نفسه فوق .

وقد جمع علماء الحديث من المنقول عن السلف فى الإثبات ما لايحصى عدده إلا رب السموات .

ولم يقدر أحد أن يأتى عنهم فى النفى بجزء واحد إلا أن يكون من الأكاذيب المختلفة التى ينقلها من هو أبعد الناس عن معرفة كلامهم .

قلت : وقد أكثر العلماء من التصنيف وأجلبوا بخيلهم ورجلهم من التآليف فى ثبوت العلو والاستواء ، ونبهوا على ذلك بالآيات والحديث وماجوى ، فمنهم الرواى الأخبار بالأسانيد ، ومنهم الحاذف لها ، وأتى بكل لفظ مفيد ، ومنهم المطول المسهب ومنهم المختصر ، والمتوسط ، والمهذب . فمن ذلك مسألة العلو لشيخ الإسلام ابن تيمية والعلو للإمام الموفق صاحب التصانيف السنية والجيوش الإسلامية للإمام المحقق «ابن قيم الجوزية» و «كتاب العرش» للحافظ شمس الدين الذهبى صاحب الأنفاس العلية، ومالا أحصى عددهم إلا بكلفة، والله تعالى الموفق .

قال العلامة الشيخ مرعى الكرمى الحنبلى فى كتابه « أقاويل النفاة فى تأويل الأسماء والصفات» ومما أحتج به أهل الإثبات بأنه الذى طبع الله عليه أهل الفطرة العقلية السليمة من الأولين والآخرين الذين يقولون :إنه فوق العالم ، إذ العلم بذلك فطرى عقلى ضرورى، لايتوقف على سمع ، قالوا : ولم يقل قائل ياألله إلا وجد من قلبه ضرورة، يطلب العلو بحيث لايمكن رفع هذه الضرورة عن القلوب ، ولايلتفت الداعى يمنة ولايسرة . وأما العلم بأنه تعالى استوى على العرش بعد خلقه السموات والأرض فى ستة أيام ، فهذا سمعى علم بالوحى على الأنبياء فأخبروا عليهم الصلاة والسلام أممهم بذلك .

قال سيدنا الشيخ الكبير الشيخ عبد القادر الجيلى الحنبلى قدس الله سره فى كتابه «الغنية» فى الفقه، قال : وهو تعالى بجهة العلو مستو على العرش محتو على الملك محيط علمه بالأشياء ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾[فاطر: ١٠] ﴿ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ ﴾ [السجدة: ٥] . ولايجوز وصفه بأنه فى كل مكان بل يقال: إنه فى السماء على العرش استوى كما قال تعالى ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾. ثم قال : وينبغى إطلاق صفة الاستواء من غير تأويل ، وأنه استواء الذات على العرش، ثم قال وكونه مستو على العرش مذكور فى كل كتاب أنزله على كل نبى أرسله ، بلا كيف، هذا ينص كلامه قدّس الله سره فى «الغنية» . انتهى .

. . . قال الإمام القرطبى وابن أبى زيد والقاضى عبد الوهاب من المالكية وجماعة من شيوخ الحديث والفقه وابن عبد البر والقاضى ابو بكر بن العربى وابن فورك وغيرهم، ممن لايحصى عددهم أنه سبحانه مستو على العرش بذاته وأطلقوا فى بعض الأماكن «فوق عرشه» .

قال القاضى أبو بكر : وهو الصحيح الذى أقول به من غير تحديد ولاتمكن فى مكان ولامماسة .

قال شيخ الإسلام :استوى على عرشه على الوجه الذى يستحقه سبحانه وتعالى ، من الصفات اللائقة به .

قال : فإن قال قائل : لو كان الله تعالى فوق العرش للزم إما أن يكون أكبر من العرش، أو أصغر ، أو مساوياً وذلك كله محال ، ونحو ذلك من الكلام .

والجواب أن يقال : إن هذا لم يفهم من كون الله تعالى على العرش إلاماينسب للأجسام فهذا اللازم تابع لهذا المفهوم .

وأما استواء يليق بجلال الله ويختص بعظمته ، فلا يلزم شئ من اللوازم الباطلة التى يجب نفيها كما يلزم سائر الأجسام .

ولما كان أهل الملل مختلفين [١] فمنهم من نفى الصفات من أصلها وأثبت الأسماء وهم المعتزلة، ومنهم من نفى الصفات الخبرية والأفعال الاختيارية أن تقوم بذاته تعالى وأثبت السبع الصفات كالأشعرية ومن وافقهم، **وكان مذهب السلف وسائر الأئمة وجمهور الأمة إثبات الصفات الذاتية، والأسماء الحسنى، والصفات الخبرية وصفات الأفعال الإختيارية لله تعالى، حثك على الاتباع لسلف الأمة، وحذرك من الأبتداع ومخالفة السنة فقال:(فاحذر**

(١) في المطول « ولما كان أهل الملة مختلفة » .

يروي الشهرستاني في سبب نشأة الاعتزال فيقول (دخل واحد على « الحسن البصري» فقال: يا إمام الدين! لقد ظهرت في زماننا جماعة يكفِّرون أصحاب الكبائر، والكبيرة عندهم كفر يخرج به عن الملّة، وهم (وعيدية الخوارج) وجماعة يرجئون أصحاب الكبائر، والكبيرة عندهم لا تضر مع الإيمان، بل العمل على مذهبهم ليس ركناً من الإيمان ولا يضر مع الإيمان معصية، كما لا ينفع مع الكفر طاعة، وهم «مرجئة الأمة» فكيف تحكم لنا في ذلك اعتقاداً ؟

فتفكر «الحسن» في ذلك، وقبل أن يجيب قال (واصل بن عطاء) أنا لا أقول إن صاحب الكبيرة مؤمن مطلقاً، ولا كافراً مطلقاً، بل هو في منزلة بين المنزلتين، لا مؤمن ولا كافر، ثم قام واعتزل إلى اسطوانة من اسطوانات المسجد يقرر ما أجاب به على جماعة من أصحاب «الحسن» فقال «الحسن» : اعتزل عنا (واصل) فسُمّي هو وأصحابه «المعتزلة») ص٥٢ الملل والنحل جـ١ للشهرستاني .

من النزول) من ذروة الإيمان وسنام الدين والإيقان، وأوج الرفعة والعرفان، إلى حضيض الابتداع، وقاذورات الاختراع، فإن السلامة كل السلامة فى اتباع الرعيل الأول، والسرب الذى عليه المعول لا ما ابتدعته فروخ الجهمية، وانتحلته الفلاسفة.

فسائرُ الصِّفَاتِ والأفعالِ قديمةٌ للّه ذى الجلالِ

لكنْ بلا كيف ولاتمثيلِ رغماً لأهلِ الزيغ والتعطيلِ

فَمرها كما أتتْ فى الذِّكرِ من غير تأويلٍ وغيرِ فكرِ

(فسائر الصفات) الذاتية من الحياة والقدرة والإرادة والسمع والبصر والعلم والكلام وغيرها، وسائر الصفات الخبرية من الوجه واليدين والقدم والعينين ونحوها (و) سائر صفات(الأفعال) من الاستواء والنزول والإتيان والمجئ والتكوين ونحوها .

(قديمة الله) أي هى صفات قديمة عند سلف الأمة وأئمة الإسلام لله (ذى الجلال) والإكرام ليس منها شئ محدث إلا لكان محلاً للحوادث، وماحل به الحادث فهو حادث، تعالى الله عن ذلك، ولما كان ربما توهم متوهم أن ذلك سلم للتشبيه والتمثيل المنفى فى محكم النص واستدراك ذلك فقال :(لكن) بإسكان النون (بلا كيف ولاتمثيل) وإثبات ذلك والاعتراف به والإقرار والإذعان بموجبه لما دلت عليه النصوص القرآنية، والأحاديث الثابتة النبوية فاعتقدنا ذلك واعتمدناه، متابعة للسلف وارتضيناه و(رغما لـ) أى الأجل رغم اترف (أهل الزيغ) أى الميل والانحراف عن نهج أهل الحق، يقال: زاغ إذا مال وأزاغ غيره إذا أماله(و) رغما لأنوف أهل (التعطيل) من الطوائف الضالة، فمذهب السلف حق بين باطلين، وسنة بين بدعتين، فإن من الناس من حمل النصوص على التشبيه والتمثيل فضلّ وأضلّ، ومنهم من حملها على التحريف والتعطيل فانحدر وانفصل عن الحق، وأهل الحق أثبتوا النصوص واعتقدوها بلا تكييف، وهم يقولون: « إثبات وجود» لا « إثبات تكييف وتحديد» ولهذا قال فمرها ــ أى أنها تمر ــ أى آيات الصفات وأخبارها، ولاتتعرض لمعانيها وأسرارها، بل تفسيرها أن تمرها(كما أتت فى الذكر) القرآن والحديث الصحيح عن المعصوم العدنانى - ﷺ - (من غير تأويل) لها (وغير فكر) فى معانيها، فإن ذلك ليس فى طوق البشر أن يكلفوه: ولافى وسعهم أن يعرفوه، وعلى ذلك مضت أئمة السلف.

وسمع الإمام أحمد شخصاً يروى حديث النزول يقول ينزل بغير حركة ولاانتقال ولاتغير حال، فأنكر الإمام أحمد عليه ذلك وقال: قل كما قال رسول الله ﷺ فهوكان

اغير على ربه منك، **وقال أبو حنيفة رحمه الله في كتابه الفقه الأكبر: «ماذكر الله تعالى فى القرآن من ذكر الوجه واليد والنفس فهو له صفات بلا كيف، ولايقال إن يده قدرته ونعمته لأن فيه إبطال الصفة وهو قول أهل القدر والاعتزال، ولكن يده صفة بلا كيف وغضبه ورضاه صفتان من صفاته بلا كيف.**

وقال العلامة ابن الهمام: «**إن الإصبع واليد صفة له تعالى لابمعنى الجارحة على وجه يليق به هو سبحانه به والله أعلم**».

وقال أبو حامد الغزالى فى كتابه إلجام العوام: « اعلم أن الحق الصحيح الذى لامراء فيه عند أهل البصائر هو مذهب السلف: أعنى الصحابة والتابعين رضى الله عنهم أجمعين» ثم قال: « حقيقة مذهب السلف وهو الحق عندنا أن كل من بلغه حديث من هذه الأخبار من عوام الخلق، **يجب عليه سبعة أمور: التقديس، ثم التصديق، ثم الإعتراف بالعجز، ثم السكوت، ثم الكف، ثم الإمساك، ثم التسليم لأهل المعرفة.**

فالتقديس : تنزيه الرب عن الجسمية وتوابعها، والتصديق: الإيمان بقوله صلى الله عليه وسلم ، وأن كل ماذكر حق وهو فيما قاله **صادق** وأنه حق على الوجه وأراده، **والإعتراف بالعجز**: أن يقر بأن معرفة مراده ليس على قدر طاقته، وأن ذلك ليس من شأنه وحرفته، **والسكوت** : بأن لايسأل عن معناه ولايخوض فيه مخاطراً بدينه، وأن يوشك أن يكفر لو خاض فيه من حيث لايشعر، وأما **الإمساك**: فإنه لايتصرف فى تلك الألفاظ بالتصريف والتبديل بلغة أخرى والزيادة فيها، والنقصان منها، والجمع والتفريق، بل لا ينطق إلا بذلك اللفظ، وعلى ذلك الوجه من الإيراد والإعراب والتصريف والصيغة، وأما **الكف**: فبأن يكف باطنه عن البحث والتفكر فيه، وأما **التسليم**: لأهل المعرفة فأن لايعتقد أن ذلك إن خفى عليه لعجزه، فقد خفى على الرسول ﷺ وعلى الأنبياء أو على الصديقين والأولياء» . أ . هـ .

ولما فرغ من ذكر مايجب له تعالى من الأسماء والصفات الذاتية والإخبارية والفعلية، أخذ فى ذكر مايستحيل فى حقه تعالى فقال :

ويستحيلُ الجهل والعجزَ كما ... قد استحالَ الموتُ حقاً والعمى
فكلّ نقصٍ قدْ تعالى اللّهُ ... عنهُ فيابُشرى لمنْ والاهُ

(ويستحيل) فى حقه تعالى أضداد الصفات التى اتصف بها البارى جل شأنه، والمستحيل هوكما مر مالايتـصور فى العقل ثبوته، فما يستحيل فى حـقه تعالى (الجهل) الذى هوضد العلم (والعجز) الذى هو ضد القدرة (كما) أنه (قـد استحال) فى حقه تعالى (الموت) الذى هو ضد الحياة حق ذلك (حقاً) فهو مصـدر (و) يستحيل فى حقه تعالى (العمى) الذى هو ضد البصـر، وكذلك الصمم الذى هو ضد السـمع، والبكم الذى هو ضد الكلام، والفناء الذى هو ضد البقاء، والعدم الذى هو ضد الوجـود، والفقر الذى هو ضد الغنى، والمماثلة للحوادث المنفى بقـوله تعالى ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ ﴿فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الأَمْثَالَ﴾ ﴿ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا ﴾ ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ ﴿ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ ﴾ ونحو ذلك .

والنفى إنما يدل على عدم المـنفى، والعدم المحض ليس بشئ أصلاً فـضلاً عن أن يكون كمالاً، وإنما يكون كمـالاً إذا استلزم أمراً وجودياً، فلهذا لم يصف الرب تعـالى نفسه بشئ من النفى إلا إذا تضـمن ثبوتاً كـقوله تعـالى ﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ﴾ فقوله: ﴿ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ ﴾ يتضمن كمال حياته وقيوميته، فإن النوم أخو الموت، ومن تأخذه السنة والنوم لايكون قـيوماً قائماً بنفسـه، مقيماً لغـيره، فإن السنة والنوم يناقض ذلك ثم قـال تعـالى ﴿لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴾ يتضمن كمال كونه له مافى السموات ومافى الأرض ليس له فى ذلك شريك ولاظهير، فإن الشافع إذا شفع عند غيره بغير إذنه كان شريكاً له فيما يشفع فيه، وكان متصرفا فيه إذا جعله مماثلاً بعد أن لم يكن، فكان فى نفى هذه الشـفاعة قدبين أنه لاشـريك له بوجه من الوجوه، والصمد الذى يحتاج إليه كل شئ ولايحتاج إلى شئ ولايؤثر فيه غيره.

والحاصل: أن كل ماكان ضـداً لما ذكر من أوصافه، أو نقيضاً أو خلافـاً فهو تعالى منزه عنه مطلقاً.

ولهذا قال (فـكل نقص) من هذه الأوصاف المذكورة ونحوها (قـد تعالى) وتنزه (الله عنه) لأن له الكمـال المطلق فكل كمـال لايؤدى إلى نقص فالله أولى به، وكل نـقص فالله منزه عنه(فيابشرى) نادى البشرى بشـارة (لـ) كل(من) أى شخص من أهل السنة والجماعة قد (والاه) الله أو قد والى هو الله أى اتخذه ولياً معتمداً عليـه، ومفوضاً جميع أموره إليه مع اقتـفائه المأثور، واتـباعه للـرسول ﷺ فكأنه يقـول لنفسه ولسـائر أهل السنة، هذا أوان

حصول البشرى لكم، أو يابشرى أقبلى وتعالى فهذا أوانك، وإنما نوه بالبشرى لمن والاه الله تعالى لعظم ذلك وخطره ودخوله فى حصن ولايته ولمحل نظره.

وفى صحيح البخارى من حديث أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال: «قال رسول الله ﷺ « إن الله تعالى قال من عادى لى ولياً فقد أذنته بالحرب » الحديث، وقد قال تعالى ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ إلى قوله ﴿الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾، فالناظم رحمه الله تعالى أقتبس من الآية البشارة لأهل الولاية.

وقد روى الإمام أحمد فى كتاب الزهد بإسناده عن وهب بن منبه قال: « إن الله عز وجل قال لموسى عليه السلام حين كلمه: اعلم أن من أهان لى ولياً وأخافه فقد بارزنى بالمحاربة وبادانى وعرض نفسه ودعانى إليها وأنا أسرع شئ إلى نصرة أوليائى، أفيظن الذى يحاربنى أن يقوم لى، أو يظن الذى يعاجزنى أنه يعجزنى، أم يظن الذى يبارزنى أن يسبقنى أو يفوتنى؟ وكيف وأنا الثائر لهم فى الدنيا والآخرة فلا أكل نصرتهم إلى غيرى» .

فإذا كان من والى الله تعالى بهذه المثابة من الحفظ والإعزاز والنصرة له من قبل العزيز القهار، وتوعد من عاداه وآذاه بمعاداة القوى الجبار، فله البشارة العظمى والمسرة والمنزلة العليا والمبرة.

تنبيه :

قال شيخ الإسلام قدس الله روحه: جماع الأمر: أن الأقسام الممكنة فى آيات الصفات وأحاديثها **ستة أقسام**. كل قسم عليه طائفة من أهل القبلة **قسمان يقولان**: تجرى على ظاهرها ، **وقسمان يقولان** : هى على خلاف ظواهرها، **وقسمان** :يسكتان.

فأما الأولان **فأحدهما** من يجريها على ظاهرها من جنس صفات المخلوقين، **فهؤلاء المشبهة** ومذهبهم باطل أنكره السلف، وعليهم توجه الرد بالحق.

الثانى: من يجريها على ظاهرها اللائق بجلال الله تعالى وعظمته، كما يجرى اسم العليم القدير والرب والإله والموجود والذات ونحو ذلك، على ظاهرها اللائق بجلال الله تعالى، فإن ظواهر هذه الصفات فى حق المخلوقين، إما جوهر محدث وإما عرض قائم، فالعلم والقدرة والكلام والمشيئة والرحمة والرضا والغضب ونحو ذلك فى حق العبد أعراض، والوجه واليدين والعين فى حقه أجسام، فإذا كان الله عزوجل موصوفاً عند عامة أهل الإثبات له علماً وقدرة وكلاماً ومشيئة، **ولم تكن فى حقه تعالى أعراضاً يجوز عليها**

مايجوز على صفات المخلوقين، وهذا هو المذهب الذى حكاه الخطابى وغيره من السلف.

قال: وأما القسمان اللذان يقولان هى، على خلاف ظواهرها فقسم يتأولونه ويعينون المراد منها مثل قولهم استوى بمعنى: استولى أو بمعنى علو المكانة والقدر، وقسم يقولون: الله أعلم بمراده منها لكنا نعلم أنه لم يرد إثبات صفة خارجة عما علمناه.

قال: وأما القسمان الواقفان، فقسم يقول بجواز أن يكون المراد ظاهرها اللائق بالله تعالى، ويجوز أن لاتكون صفة لله وهذه طريقة كثير من الفقهاء وغيرهم، وقسم يمسكون عن هذا كله، ولايزيدون على تلاوة القرآن وقراءة الحديث، معرضين بقلوبهم وألسنتهم عن هذه التقديرات.

قال: فهذه الأقسام الستة لايمكن الرجل أن يخرج عن قسم منها. قال: والصواب فى كثير من الصفات وأحاديثها القطع بالطريقة الثانية. انتهى.

* * *

الباب الثانى

فى الأفعال المخلوقة

- صحة إيمان المقلّد فى العقائد وعدمه .
- فى الأفعال المخلوقة .
- القدر .
- أصحاب الجبر .
- أنواع الهداية.
- الإرادة الكونية والإرادة الدينية .
- الرزق .
- معنى القضاء والقدر عند الخطابى .

* * *

فصل[1]

في ذكر الخلاف في صحة إيمان المقلّد في العقائد وعدمه وفي جواز عدمه

أورد المؤلف بعض آراء العلماء ، منهم الإمام أحمد بقوله (من قلّد الخبر رجوت أن يسلم إن شاء الله تعالى) فأطلق اسم التقليد على من صار إلى الخبر وإن كان حجة بنفسه:

قال علماؤنا وغيرهم يحرم التقليد فى معرفة الله تعالى وفى التوحيد والرسالة، وكذا فى أركان الإسلام الخمس ونحوها مما تواتر واشتهر عند الإمام أحمد رضى الله عنه والاكثر، وذكره أبو الخطاب عن عامة العلماء.

قال فى شرح التحرير واستدلوا التحريم التقليد بأمره سبحانه بالتدبر والتفكر والنظر، وفى صحيح ابن حبان لما نزل فى آل عمران ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ الآيات . قال رسول الله ﷺ : « ويل لمن قرأهن ولم يتدبرهن ويل له ويل له » .

والإجماع على وجوب معرفة الله تعالى، ولاتحصل بتقليد ولقوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ فألزم الشارع بالعلم ،ويلزمنا نحن أيضاً لقوله تعالى: ﴿ فاتبعوه لعلكم تهتدون ﴾ فتعين طالب اليقين فى الوحدانية، ويقاس عليها غيرها.

والتقليد لايفيد إلا الظن، ولهذا قال معللاً للمنع عنه بقوله(لأنه) أى الشأن والامر والقصة (لايكتفى) فى أصول الدين ومعرفة الله تعالى (بالظن) الذى هو ترجيح أحد الطرفين على الآخر والراجح هو الظن، والمرجوح هو الوهم فلا يكتفى به فى اصول الدين (لذى) أى لصاحب (الحجى) العقل والفطنة (فى قول أهل الفن) من الأئمة وعلماء المنقول والمعقول .

قال فى مختصر شرح التحرير : **وأجازه يعنى التقليد فى أصول الدين جمع.** قال العلامة ابن ملفح: **وأجازه بعض الشافعية لإجماع السلف على قبول الشهادتين من غير أن يقال لقائلها هل نظرت؟** وسمعه الإمام ابن عقيل عن أبى القاسم بن التبان المعتزلى قال: وإنه يكتفى بطريق فاسد . وقال هذا المعتزلى: إذا عرف الله وصدق رسوله ﷺ وسكن قلبه إلى ذلك وأطمأن به فلا علينا من الطريق تقليداً كان أونظراً أو استدلالاً .

(١) ص١٨٨

الباب الثاني

في الأفعال المخلوقة

قال شيخ الإسلام : قد أخبرت الكتب الإلهية أن الله خلق السموات والأرض فى ستة أيام، فتلك الأيام ليست مقدرة بحركة الشمس والقمر، فإنه فيها خلق الشمس والقمر والأفلاك، وسواء كانت بقدر هذه الأيام، أو كان كل يوم يقدر بألف سنة فعلى القولين ليس مقدار هذه حركات ماخلق فيها.

والحاصل: **أن الكتب الإلهية والسنة النبوية وإجماع المسلمين، على أن الله خالق كل شئ فإن كل ماسوى الله مخلوق .**

قال شيخ الإسلام: وليس بين أهل الملل خلاف فى أن الملائكة جميعهم مخلوقون، وفى صحيح مسلم وغيره من حديث عائشة رضي الله عنها عن النبى ﷺ أنه قال: « **خلقت الملائكة من نور وخلق إبليس من مارج من نار وخلق آدم مما وصف لكم** » .

(وربنا) تبارك وتعالى (يخلق) ماشاء أن يخلقه من سائر مخلوقاته (باختيار) منه فمذهب السلف وأئمة الأمة، أن الله تعالى لم يزل فاعلاً لما يشاء وأنه تقوم بذاته الأمور الاختيارية، وأنه تعالى لم يزل متصفاً بصفاته الذاتية والفعلية، فلم يحدث اسماً من أسمائه، ولاصفة من صفاته، فيخلق سبحانه المخلوقات، ويحدث الحوادث بعد أن لم تكن، سواء كان ذلك على مثال سابق أولاً. والإبداع: إحداث الشئ بعد أن لم يكن على غير مثال سابق (من غير حاجة) منه تعالى إليه أى يخلق الخلق لا لحاجة إليه (ولا اضطرار) عليه فالحاجة المصلحة والمنفعة، والاضطرار الإلجاء والإحواج والإلزام والإكراه، **فلا حاجة باعثة له سبحانه على خلقه للخلق، ولامكره له عليه بل خلق المخلوقات، وأمر بالمأمورات، لمحض المشيئة وصرف الإرادة.**

(لكنه) تعالى وتقدس، هذا استدراك من مفهوم قوله **إنه يخلق بالاختيار أى لا بالذات، خلافاً للمعتزلة ومن وافقهم،** من غير حاجة إليه، ولااضطرار عليه، غير أنه جل وعلا (لايخلق الخلق سدى) أى هملاً بلا أمر ولانهى ولاحكمة، ومعنى السدى المهمل، وإبل سدى إذا كانت ترعى حيث شاءت بلا داع(كما أتى فى النص) القرآنى والسنة النبوية والآثار مما هو كثير جداً، أن الله تبارك وتعالى لايفعل إلا لحكمة وعلم، وهو العليم الحكيم، فما خلق شيئاً ولاقضاه ولاشرعه، إلا لحكمة بالغة، وإن تقاصرت عنها عقول البشر (**فاتبع الهدى**) **باقتفاء المأثور واتباع السلف الصالح، ولاتجحد حكمته، كما لاتجحد**

قدرته، فهو الحكيم القدير.

قال شيخ الإسلام قدس الله روحه: ونشأ من هذا الإختلاف نزاع بين المعتزلة والكرامية، ومن وافقهم من أصحاب أبى حنيفة ومالك والشافعى وأحمد وأهل الحديث وغيرهم ﷺ، وحكوا ذلك عن الإمام أبى حنيفة نفسه رضى الله عنه، ونفى ذلك الأشعرية ومن وافقهم من أصحاب مالك والشافعى وأحمد وغيرهم.

والحاصل : أن فعل الله تعالى وتقدس، وأمره لايكون لعلة فى قول مرجوح، اختاره كثير من علمائنا وبعض المالكية والشافعية، وقاله الظاهرية والأشعرية والجهمية.

والقول الثانى: أنهما لعلّة وحكمة اختاره الطوفى، وهو مختار شيخ الإسلام وابن القيم، وابن قاضى الجبل، وحكاه عن إجماع السلف وهو مذهب الشيعة والمعتزلة، لكن المعتزلة تقول بوجوب الصلاح، ولهم فى الأصلح قولان، كما يأتى فى النظم، والمخالفون لهم يقولون بالتعليل لاعلى منهج المعتزلة.

تنبيهات

الأول: أوّل من تكلم فى القدر «معبد الجهنى» وكان أولاً يجلس إلى الحسن البصرى. . . . وقال شيخ الإسلام :أول من ابتدعه بالعراق رجل من أهل البصرة يقال له سيبويه من أبناء المجوس، وتلقاه عنه معبد الجهنى .

ولم يكن على عهد الخلفاء الراشدين أحد ينكر القدر، فلما ابتدع هؤلاد التكذيب بالقدر رده عليهم من بقى من الصحابة كعبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس ووائلة بن الأسقع رضى الله تعالى عنهم . وكان أكثره بالبصرة والشام وقليل منه بالحجاز .

قال وكيع : « القدرية يقولون الأمر مستقبل ،وإن الله لم يقدر الكتابة والأعمال، والمرجئة يقولون « والقول يجزى عن العمل » والجهمية يقولون « المعرفة تجزى عن القول والعمل » قال وكيع « هو كله كفر » .

الثانى : القدرية فرقتان :**الأولى** تنكر ماذكرنا من سبق العلم بالأشياء قبل وجودها، وتزعم أن الله لم يقدر الأمور أزلاً، ولم يتقدم علمه بها، وإنما يأتنفها علما حال وقوعها، وكانوا يقولون إن الله أمر العباد ونهاهم وهو لايعلم من يطيعه ممن يعصيه، ولامن يدخل الجنة ممن يدخل النار، حتى فعلوا ذلك فعلمه بعد مافعلوه. ولهذا قالوا الأمر أنف أى مستأنف .

قال ابن عباس رضي الله عنهما (إن الله تعالى خلق الخلق وعلم ماهم عاملون، ثم قال لعلمه :

كن كتابا فكان كتاباً » ثم أنزل تصديق ذلك فى هذه الأمة ـ أى قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ وفى الآية الاخرى ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ .

قال العلماء : والمنكرون لهذا انقرضوا وهم الذين كفرهم الأئمة وغيرهم من السلف .

الفرقة الثانية من فرقتى القدرية : المقرّون بالعلم.

قال الحافظ ابن حجر فى فتح البارى(القدرية اليوم مطبقون على أن الله عالم بأفعال العباد مقدورة لهم واقعة منهم على جهة الإستقلال، وهو مع كونه مذهباً باطلاً أخف من المذهب الأول) .

وأما ذمّ القدرية فقد أخرج أبو داود فى سننه والحاكم فى مستدركه عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال (القدرية مجوس هذه الأمة) ورواه الترمذى وحسنه ورواه الطبرانى فى الكبير وابن حبان فى صحيحه والحاكم . وقال صحيح الإسناد عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال (ستة لعنتهم ولعنهم كل نبى مجاب، الزائد فى كتاب الله عزوجل، والمكذب بقدر الله، والمتسلط على أمتى بالجبروت، ليذل من أعز الله ويعز من أذل الله) .

قال الخطّابى (إنما جعلهم مجوساً لمضاهاة مذهبهم مذهب المجوس فى قولهم بالأصلين: النور والظلمة، يزعمون أن الخير من فعل النور، والشر من فعل الظلمة، فصاروا ثنوية، وكذلك القدرية يضيفون الخير إلى الله والشر إلى غيره والله تعالى خالق الأمرين معاً، وكذا قال ابن الأثير فى جامع الأصول .

وأما المفرطون (فالجبرية) وهو الذين يزعمون أنه لافعل للعبد أصلاً وأن حركاته بمنزلة حركات الجمادات لاقدرة له عليها ولاقصد ولا اختيار . . .

قال شيخ الإسلام: ومعلوم أن من أسقط الأمر والنهى الذى بعث الله به رسله فهو كافر باتفاق المسلمين واليهود والنصارى بل هؤلاء قولهم متناقض لايمكن أحد منهم أن يعيش به ولاتقوم به مصلحة أحد من الخلق ولايتعاشر عليه اثنان فإن القدر إن كان حجّة فهو حجّة لكل أحد، وإلا فليس هو حجة لأحد دون أحد، فإذا ظلم الانسان ظالم أو شتمه شاتم، أو أخذ ماله أو أفسد عياله فمتى لامه أو ذمه أوطلب عقوبته أبطل الاحتجاج بالقدر.

وقال : ومن يدعى أن العارف إذا شهد الإرادة سقط عنه الأمر كان هذا من الكفر الذى لايرضاه أحد، بل ذلك ممتنع فى العقل محال فى الشرع.

قال تلميذه المحقق فى « شرح منازل السائرين » مشهد أصحاب الجبر وهم الذين يشهدون أنهم مجبورون على أفعالهم، وأنها واقعة بغير قدرتهم واختيارهم بل لايشهدون أنها أفعالهم البتة، ويقولون إن أحدهم غير فاعل فى الحقيقة، ولاقادر وأن الفاعل فيه غيره، والمحرك له سواه، وأنه آلة محضة وحركاته بمنزلة هبوب الرياح، وحركات الأشجار وهؤلاء إذا أنكرت عليهم أفعالهم احتجوا بالقدر وحملوا ذنوبهم عليه وقد يغلون فى ذلك حتى يروا أفعالهم كلها طاعة، وموافقة المشيئة طاعة كما حكى الله تعالى عن المشركين إخوانهم أنهم جعلوا مشيئة الله لأفعالهم دليلاً على أمره بها ورضاه بها[1] وهؤلاء شر من القدرية النفاة وأشد عداوة لله ومناقضة لكتبه ورسله ودينه، حتى أن هؤلاء من يعتذر عن إبليس لعنه الله، ويتوجع له ويقيم عذره بجهده وينسب ربه إلى ظلمه بلسان الحال والمقال ويقول : ماذنبه وقد صان وجهه عن السجود لغير خالقه، وقد وافق حكمه ومشيئته فيه إرادته منه، ثم كيف يمكنه السجود وهو الذى منعه منه وحال بينه وبينه وهل كان فى ترك سجوده لغيرك إلا محسنا .

إذا كان المحب قليل حظ فما حسناته إلا ذنوب

قال: وهؤلاء أعداء الله حقاً وأولياء ابليس وأحبابه وإخوانه، وإذا ناح منهم نائح على ابليس رأيت من البكاء والحنين أمراً عجيباً ،ورأيت من تظلم الأقدار واتهام الجبار مايبدو على فلتات ألسنتهم وصفحات وجوههم، وتسمع من أحدهم من التظلم والتوجع ماتسمعه من الخصم المغلوب العاجز عن خصمه

قال : فهؤلاء الذين قال فيهم شيخ الإسلام فى تائيته:

وتدعى خصوم الله يوم معادهم إلى النار طرا فرقة القدرية

يعنى الجبرية.

وتقدم أن شيخ الإسلام قال : إن بدعة القدرية النفاة كانت فى أواخر عصر الصحابة رضى الله عنهم، وأما بدعة هؤلاء المحتجين بالقدر فلم يعرف لها إمام ولم تعرف به طائفة من طوائف المسلمين معروفة. قال: وإنما كثر ذلك فى المتأخرين وسموا هذا حقيقة،

(١) من هذا قول الله عنهم :﴿ قالوا لو شاء الله ما أشركنا﴾ وقوله : ﴿ وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله ، قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه ﴾ .

وجعلوا الحقيقة تعارض الشريعة [1]، ولم يميزوا بين الحقيقة الشرعية التى تتضمن تحقيق أحوال القلوب كالإخلاص والصبر، وبين الحقيقة الكونية القدرية التى نؤمن بها ولانحتج بها على المعاصى، وفيهم من يقول : إن العارف إذا أفنى فى شهود توحيد الربوبية لم يستحسن حسنه ولم يستقبح سيئة، ويقول بعضهم : من شهد الإرادة سقط عنه الأمر والنهى، ويقول بعضهم : إن الخضر عليه السلام إنما سقط عنه التكليف لأنه شهد الإرادة إلى غير ذلك من كلامهم .

والحاصل أن هذه المقالة من أشنع المقالات وأفظع البدع المحدثات، والمحتج بقدر الله على معاصى الله زنديق وخارج عن سواء السبيل،وعادم التحقيق ومارق من الدين ومباين التوفيق.

والبارى جل شأنه أرسل الرسل قاطبة بتحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها، وفى الاحتجاج على المعاصى بالقدر وانعكاس ماجاءت به الرسل من تعظيم

---

(١) يقصد بعض الصوفية الذين شذّوا عن منهج أهل السنة، ويُقرِّب الشيخ الشعراوي ـ رحمه الله تعالى ـ عقيدة خلق أفعال العباد بقوله : «لنفرض أن واحداً جالس، ويريد أن يقوم، فإذا خطر في باله أن يقوم، فأنا أسأل سؤالاً واحداً: ما هي العضلات أو الجوارح أو الأجزاء التي يجب أن تتحرك لتتم عملية القيام ؟

أريد أن أرفع يدي ، فما هي العضلات والأعصاب التي تجعلني أقوم بهذه العملية ؟

لا أعرف ـ إنما بمجرد أن أريد القيام أقوم أو أرفع يدي أرفعها .

إذن فالمسألة يجب أن ننظر إليها نظرة أدق، فالمجازفة في قولهم : إن الإنسان خلق فعل نفسه . . لأنك أنت لم تعمل شيئاً أبداً . . بدليل أن الله تعالى يستطيع أن يسلب منك العقل فلا يخطط، وتريد أن تفعل الفعل فيصيبه بتعطل أو شلل مثلاً . وبعد ذلك يأتي إلى الذي سنفعل فلا نفعل .

إذن هناك عناصر لخلق الفعل ليست منك . . فماذا لك أنت ؟ ليس لك إلا منطقة الفكر فقط، وهي أن تقارن بين البديلات، ثم توجه الطاقة، وترجّح فعلاً على فعل .

وترجيح فعل على فعل لا يقال فيه إنك فعلت ، وإنما رجحت توجيه الطاقة إلى فعل دون غيره . . إذن أنت لم تخلق الفعل، وإنما وجّهت.

إذن الإنسان في التكليف ليس له خلق فعل نفسه في الطاعة أو المعصية، وإنما وجه الطاقة المخلوقة لله لأن تفعل، فاستجاب له، وهي لا تعصى في الأولى ولا تعصى في الثانية، إذن فأنت موجّه فقط، وثوابك وعقابك على التوجيه لا على الفعل .

ومن هنا قال أهل السنة بالكسب ، ولكن القول بالكسب فيه شيء . . ما معنى الكسب ؟ الكسب أن تكسب شيئاً . الكسب فعل من الأفعال . إذن فالدقة ألا تقول كسب ولا خلق، وإنما هو توجيه الطاقة إلى الفعل، وثوابي وعقابي على هذا التوجيه » .

ص ٢٧، ٢٨ من كتاب عقيدة المسلم، جمع وإعداد: عبدالقادر أحمد عطا مكتبة التراث الإسلامي بالقاهرة سنة ١٩٨٤م .

النهى والأمر، وبالله التوفيق .

وأما المتوسطون فهم أهل السنة والجماعة فلم يفرطوا تفريط القدرية النفاة، ولم يفرطوا إفراط الجبرية المحتجين بالقدر على معاصى الله، وهؤلاء على مذهبين: مذهب الأشعرى ومن وافقه من الخلف، ومذهب سلف الأمة وأئمة السنة، فمذهب أهل السنة كافة أن جميع أنوع الطاعات والمعاصى والكفر والفساد واقعة بقضاء الله وقدره لاخالق سواه. فأفعال العباد مخلوقة لله تعالى خيرها وشرها حسنها وقبيحها، والعبد غير مجبور على أفعاله بل هو قادر عليها، هذا القدر باتفاق أهل السنة [1] .

ثم إن الأشعرى ومن وافقه منهم أثبت للعبد كسبا ومعناه أنه قادر على فعله وإن كانت قدرته لاتأثير لها فى ذلك كما مر.

قال شيخ الإسلام قدس الله روحه: هذا قول الأشعرى ومن وافقه من المثبتة للقدر من الفقهاء وطوائف من أهل السنة من أصحاب مالك والشافعى وأحمد حيث لايثبتون فى المخلوقات قوى ولاطبائع ويقولون إن الله فعل عندها لا بها، ويقولون إن قدرة العبد لاتأثير لها فى العقل.

ويقول الأشعرى: إن الله فاعل فعل العبد وأن عمل العبد ليس فعلاً للعبد بل كسباً له. قال شيخ الإسلام : وهذا قول من ينكر الأسباب والقوى التى فى الأجسام وينكر تأثير

---

(١)ويشرح الشيخ الشعراوي ـ رحمه الله ـ هذه القضية بشيء من التفصيل ليزيل أي التباس في الأذهان فيقول في تفسير قوله تعالى ﴿ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا ﴾(الرعد: ٣١).

[.. صحيح هو الذي شاء ذلك، ولكن لم يشأه مشيئة شرعية، وإنما شاءه مشيئة كونية، بأن يخلقه صالحاً لهذا وصالحاً لهذا، بدليل أنه قال : من يعصيني فليتق مني توبة، ويتوب إليّ ويرجع، إذن لو أراد أن يخلقه على شكل واحد لما عزّ ذلك عليه .. فالذي كفر لم يكفر قهراً عن الله ، لأن الله أعطاه الصلاحية لأن يؤمن ولأن يكفر، ولأن يطيع ولأن يعصي، فإذا كان الله صمّم الخلق على شكلين وعلى اتجاهين، أفيكون اتجاه كل شكل إلى أي اتجاه من الاتجاهين قهراً عن الله ؟ . . . وقال الحق سبحانه وتعالى ﴿ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ﴾ (آل عمران: ١٢٩) متفق تماماً مع صفة العدل، ولا تعارض مطلقاً .. وما ظاهره التعارض يجب أن نعمل فيه عقولنا لنصل إلى الجامع والالتقاء. تلك آية مجملة، والمجمل دائماً يحمل على المفصّل، فليس معنى الآية أن يقول الله لهؤلاء أنتم مهديون، ولا لهؤلاء أنتم ضالون، هكذا بلا مقياس ولا ميزان، بل إذا أردنا أن نفهم يجب علينا أن نتبع الآيات المقيدة منها : ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (الاحقاف: ١٠) يعني سبق منهم ظلم فلم يتعرضوا لهداية الله . ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ (النحل :١٠٧) ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ (الزمر: ٣) .

ص ٢١/٢٢ من كتاب (عقيدة المسلم) ـ جمع وإعداد عبدالقادر أحمد عطا مكتبة التراث الإسلامي بالقاهرة سنة١٩٨٤م .

القدرة التى للعبد التى يكون بها الفعل .

ويقول: إن الفعل كسب للعبد لكن يقول لاأثر لقدرة العبد فى إيجاد المقدور وهو مقام دقيق حتى قال بعضهم : إن هذا الكسب الذى أثبته الأشعرى غير معقول، قال: حتى قال جمهور العقلاء ثلاثة أشياء لاحقيقة لها[1]: طفرة النظام وأحوال أبى هاشم،وكسب الأشعرى، وذلك أنه يلزم ألا يكون فرق بين القادر والعاجز، إذ مجرد الاقتران الاختصاص له بالقدرة فإن فعل العبد يقارن حياته وعلمه وإرادته وغير ذلك من صفاته فإذا لم يكن للقدرة تأثير إلا مجرد الاقتران ،فلا فرق بين القدرة وغيرها .

ومذهب سلف الأمة وأئمتها وجمهور أهل السنة المثبتة للقدر من جميع الطوائف يقولون: إن العبد فاعل لفعله حقيقة، وأن له قدرة حقيقة واستطاعة حقيقة ولا ينكرون تأثير الأسباب الطبيعية بل يقرون بما دل عليه الشرع والعقل من أن الله تعالى يخلق السحاب بالرياح وينزل الماء بالسحاب وينبت النبات بالماء ولايقولون القوى والطبائع الموجودة فى المخلوقات لاتأثير لها بل يقرون بأن لها تأثيراً لفظاً ومعنى لكن يقولون هذا التأثير هو تأثير الأسباب فى مسبباتها والله تعالى خالق السبب والمسبب. ومع أنه خالق السبب فلا بد للسبب من سبب آخر يشاركه ، ولابد له من معارض يمانعه فلا يتم أثره إلا مع خلق الله له بأن يخلق الله السبب الآخر، ويزيل الموانع.

وقال شيخ الإسلام فى موضع اخر: الأعمال والأقوال والطاعات والمعاصى هى من العبد بمعنى أنها قائمة به وحاصلة بمشيئته وقدرته وهو المتصف بها والمتحرك بها الذى يعود حكمها عليه وهى من الله بمعنى أنه خلقها قائمة بالعبد وجعلها عملاً له وكسباً كما يخلق

---

(١) طفرة النظام تعني قوله بأن الجسم يصير من المكان الاول إلى الثالث أو العاشر من غير ضرورة إلى وسط .
ص١٩٨ الفرق بين الفرَق للبغدادي

وأحوال أبي هاشم الجبّائي أي عند حديثه عن صفات «الباري» تعالى فيقول : هو «عالم» لذاته بمعنى أنه «ذو حالة» هي صفة معلومة وراء كونه ذاتاً موجوداً، وإنما تُعلم «الصفة» على «الذات» لا بانفرادها، فأثبت «أحوالاً» هي صفات لا موجودة ،لا معدومة، ولا معلومة ولا مجهولة، أي : هي على حيالها لا تعرف كذلك بل مع «الذات» . ص٧٥ جـ١ الملك والنحل للشهرستاني .

وكسب الأشعري في تعريف الشهرستاني « أن الله تعالى أجرى سنته بأن يخلق عقيب القدرة الحادثة، أو تحتها، أو معها : الفعل الحاصل ، إذا أراد العبد وتجرّد له، ويسمى هذا الفعل كسباً، فيكون خلقاً من الله تعالى : إبداعاً وإحداثاً وكسباً من العبد .. حصولاً تحت قدرته ...

... ولا تأثير للقدرة الحادثة في الأحداث ...

ص ٨٨/ ٨٩ جـ١ الملك والنحل للشهرستاني .

المسببات بأسبابها فهى من الله مخلوقة له، ومن العبد صفة قائمة واقعة بقدرته وكسبه، كما إذا قلنا هذه الثمرة من الشجرة وهذا الزرع من الأرض بمعنى أنه حدث منها ومن الله بمعنى أنه خلقه منها لم يكن بينهما تناقض. قال: فالحوادث تضاف إلى خالقها باعتبار وإلى أسبابها باعتبار كما قال تعالى (هذا من عمل الشيطان) وقال تعالى ﴿ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطَانُ﴾ مع قوله ﴿ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ ﴾ وأخبر أن العباد يفعلون ويصنعون ويعملون ويؤمنون ويكفرون ويفسقون ويتقون ويصدقون ويكذبون .

قال: **والحاصل أن مذهب السلف ومحققى أهل السنة أن الله تعالى خلق قدرة العبد وإرادته وفعله، وأن العبد فاعل لفعله حقيقة ومحدث لفعله والله سبحانه جعله فاعلاً له محدثاً له** قال تعالى ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ فأثبت مشيئة العبد وأخبر أنها لاتكون إلا بمشيئة الله تعالى وهذا صريح قول أهل السنة فى إثبات مشيئة العبد وأنها لاتكون إلا بمشيئة الرب. قال: **وهو قول كثير من أصحاب الأشعرى كأبى إسحاق الإسفراينى وإمام الحرمين وغيرهم.**

وقال السعد التفتازانى فى شرح المقاصد بعدما نقل الخلاف مانصه : « ثم المشهور فيما بين القوم المذكور فى كتبهم أن مذهب إمام الحرمين أن فعل العبد واقع بقدرته وإرادته إيجاباً كما هو رأى الحكماء مع قول الإمام فى « الإرشاد » .

المراد بالهداية هنا : التوفيق والإلهام، وهذه الهداية هى المستلزمة للاهتداء فلا يتخلف عنها، وهى المذكورة فى قوله تعالى ﴿ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ وفى قوله تعالى ﴿ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ ـ الآية ﴾ وفى قول النبى ﷺ « من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له» وفى قوله تعالى ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ـ الآية ﴾ فنفى عنه هذه الهداية وأثبت له هداية الدعوة والبيان فى قوله ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ والمشيئة ترادف الإرادة، فكل من شاء الله تعالى هدايته، من جميع خلقه (يهتدى) الهداية المطلوبة فى قوله تعالى ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين .

واعلم أن أنواع الهداية أربعة :

أحدها : **الهداية العامة المشتركة بين الخلق المذكورة فى قوله تعالى﴿ الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾** أى أعطى كل شئ صورته الذى لايشبه فيها بغيره، وأعطى كل عضو شكله وهيأته، وأعطى كل موجود خلقه المختص به، ثم هداه إلى ماخلقه له من الأعمال.

وهذه الهداية تعم هداية الحيوان المتحرك بإرادته إلى جلب ماينفعه، ودفع مايضره، وهداية الجماد المسخر لما خلقه له، فله الهداية تليق به. كما أن لكل نوع من الحيوان هداية تليق به، وان اختلفت أنواعها وضروبها. وكذلك لكل عضو هداية تليق به، فالرجلان للمشى واليدان للبطش والعمل، واللسان للكلام، والأذن للسمع، والعين لكشف المرئيات، وكل عضو لما خلق له، وهدى الزوجين من كل حيوان للازدواج والتناسل وتربية الولد، وهدى الولد إلى التقام الثدى عند وضعه وطلبه. ومراتب هدايته سبحانه لايحصيها إلا هو، فتبارك الله رب العالمين. وقد هدى النحل أن تتخذ من الجبال بيوتاً من الشجر ومن الأبنية، ثم تسلك ربها مذللة لها، لاتستعصى عليها ثم تأوى إلى بيوتها وهداها إلى طاعة يعسوبها، ثم هداها إلى بناء البيوت العجيبة الصفة المحكمة البناء. ومن تأمل بعض هدايته المبثوثة فى العالم، شهد له بأنه الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم.

النوع الثانى: هداية البيان والدلالة والتعريف لنجدى الخير والشر، وطريقى الهلاك والنجاة، وهذه لاتستلزم الهدى التام، فإنها سبب وشرط لاموجب، ولهذا ينتفى الهدى معها لقوله تعالى ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ أى بينا لهم وأرشدناهم ودللناهم فلم يهتدوا. ومنها قوله تعالى ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

الثالث هداية التوفيق، والإلهام المستلزمة للهدى التى ذكرناها آنفا.

الرابع: غاية هذه الهداية وهى الهداية إلى الجنة والنار، إذا سبق أهلهما إليهما قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ وقال أهل الجنة فيها ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا﴾ وقال تعالى عن أهل النار ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ * مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾.

تنبيه

المشهور عند المعتزلة أن الهداية هى الدلالة الموصلة إلى المطلوب، فإن لم تكن موصلة إلى المطلوب، فليست بهداية عندهم.

وعند أهل الحق مجرد الدلالة على طريق يوصل إلى المطلوب، سواء حصل الوصول والاهتداء أو لم يحصل. كما ذكرنا ذلك فى النوع الثانى من أنواع الهداية.

(وإن يرد) الله تعالى (ضلال عبد) من خلقه بترك المأمور وارتكاب المحظور (يعتد) بارتكاب ذلك وانتهاك المحارم واقتحام المهالك، والضلال ضد الهدى.

يقال: عـدا عدواً وعدواناً محـركة، وتعدى وأعدى أحـضر وعدا عليـه عدواناً بالظلم ظلمه، كعدى واعتدى.

قال الإمام المحقق: إن العدوان يتعدى ما أبيح منه إلى القدر المحرم. كالاعتداء فى أخذ الحق ممن هو عليه، إمـا أن يتعدى على ماله أو بدنه أو عرضـه فإذا أتلف إنسان عليه شـيئاً أتلف عليه أضعافه، وإذا قال فيه كلمة قال فيه أضعافها، فهذا كله عدوان وتعد للعدل.

قال: وهو نـوعان: عدوان فى حق الله تـعالى، كمـا إذا تعدى ما أباح لـهم الوطء الحلال فى الأزواج والمملوكات، إلى ماحرم عليه من سواهما كما قال تعالى ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾.

وكذلك لو تعدى ما أبيح له من زوجته وأمته إلى ماحرم عليـه منهما كوطئها فى حيضها أو نفاسها، أو فى إحرام أحدهما أو صيامه الواجب، وكذلك كلما أبيح له قدر معين فتعداه إلى أكثـر منه، وكذلك العـدوان فى حق العبـد تجاوز القـدر الذى أبيح له منه، فمـتى تجاوز القـدر المحدود وكان مـعتـديا، وباغيـاً وظالماً، كارتكاب الإثم والعـدوان والفحـشاء والمنكر والخطايا والذنوب والضلال ومن أعظمـها، بل أعظمهـا القول على الله بلا علم، فهو أشد المحرمات التى اتفقت عليها الشـرائع والأديان، ولاتباح بحال بل لاتكون إلا بحرمة، وهى المذكورة فى قوله تعالى ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ .

والحاصل: أن الله تعالى إذا أراد هداية عبد يهتدى، وإذا أراد ضلاله وإهلاكه يعتدى فهو سبحانه الموفق لمن أراد له السعادة. والخاذل لم شاء إبعاده فـإن وفقه فبفضله ورحمته، وإن خذله فبعدله وحكمته، وهو تعـالى المحمود فى هذا وهذا له أتم حمد وأكمله، ولم يمنع العبد شيئاً هو له، وإنما منعه ماهو مجرد فضله وعطائه، وهو أعلم حيث يضعه وأين يجعله.

فإذا علم العبد هذا المقام وشهده وأعطاه حقه علم ضرورته وفاقته إلى التوفيق والهداية، فى كل نفس ولحظة وطرفة عين، وعلم أن توحيده وإيـمانه ممسك بيد غيره، لو تخلى عنه طرفة عين لفل عرشه ولخرّت سماء إيمانه على الأرض، وأن الممسك له من يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه. فـدأب هذا المشـاهد لهذا المـقام أن يقـول بقلبـه ولسـانه: يا مـقلب القلوب ثبت قلبى على دينك، يامـصرف القلـوب صرف قلبى إلى طاعـتك، ياحى ياقيـوم يابديع السماوات والأرض يـاذا الجلال والإكرام، لا إله إلا أنت برحـمتك أسـتـغيث اصلح لى شأنى كله، ولاتكلنى إلى نفسى طرفة عين، ولا إلى أحد من خلقك.

تنبيه

فهم من النظم أن الباري جل وعلا يريد من العبيد مالايرضاه ولايحبه، فإن الإرادة والمشيئة مترادفتان، وهي لاتستلزم الأمر والرضا والمحبة كما تقدم.

وقالت المعتزلة: يمتنع عليه تعالى إرادة الشر والمعاصي والقبائح. وقالوا : يريد مالايقع ويقع مالايريد، فزعموا أنه تعالى أراد من الكافر الإيمان، وإن لم يقع إلا الكفر وإن وقع، وكذا أراد من الفاسق الطاعة لا الفسق، حتى زعموا أن أكثر مايقع من عباده على خلاف مراده تعالى الله عن ذلك، وزعموا أن إرادة القبيح قبيحه، والله تعالى منزه عن القبائح ورد بأنه تعالى لايقبح منه شئ وإن خفي علينا حسنه، وتقدم.

والحاصل: أن الأمر والرضا والمحبة لاتكون إلا في الخير والإرادة قد تكون في الخير، وقد تكون في غيره، فهي تتعلق بكل ممكن، قال الله تعالى ﴿ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ﴾

وإن قلت :قد قال الله تعالى: يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾وقال تعالى ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا ﴾ .

الإرادة الكونية والإرادة الدينية :

فالجواب:إن الإرادة التي نعنيها هي الإرادة الكونية، وأما الإرادة الدينية فهي ترادف الرضاء والمحبة، وكذا الأمر الذي نعنيه أو نتكلم عليه الأمر الديني، وأما الأمر الكوني فهو يرادف الإرادة كما في عدة آيات قرآنية،على أن أظهر تفاسير قوله تعالى﴿ أمرنا مترفيها﴾ أي أمرناهم بطاعتنا والانقياد لأمرنا على ألسنة رسلنا ففسقوا بمخالفة رسلنا .

ومما يحكى أن القاضي عبد الجبار الهمذاني المعتزلي دخل على الصاحب ابن عبّاد وكان معتزلياً أيضاً، وكان عنده الأستاذ أبو إسحق الإسفاريني من أئمة أهل السنة ومحققي الأشاعرة، فقال عبد الجبار على الفور: سبحان من تنزه عن الفحشاء. وقال أبو إسحق فوراً:سبحان من لايقع في ملكه إلا مايشاء. فقال له عبد الجبار: أرأيت إن منعني الهدى وقضى على بالردى، أو أحسن إلى أم أساء؟ فقال له الأستاذ أبو اسحق: إن كان منعك ماهو لك فقد أساء، وإن كان منعك ماهو له فقد اختص برحمته من يشاء. فانصرف الحاضرون وهم يقولون: والله ليس عن هذا جواب.

فإن قيل : كيف يريد سبحانه أمراً لايرضاه ولايحبه وكيف يشاؤه ويكونه وكيف تجتمع

إرادته وبغضه وكراهته .

فالجواب : اعلم أن هذا السؤال أصل الافتراق والإضلال الواقع بين طوائف المسلمين، وفرق الموحدين.

واعلم أن المراد نوعان؟ مراد لنفسه ومراد لغيره، فالمراد لنفسه مطلوب محبوب لذاته ومافيه من الخير، فهو مراد إرادة الغايات والمقاصد، والمراد لغيره قد لايكون فى نفسه مقصوداً للمريد، ولافيه مصلحة له بالنظر إلى ذاته، وإن كان وسيلة إلى مقصوده ومراده فهو مكروه له من حيث نفسه وذاته، مراد من حيث إفضائه وإيصاله إلى مراده، فيجتمع فيه الأمران بغضه وإرادته من غير تناف لاختلاف تعلقهما كالدوائى المتناهى فى الكراهة، إذا علم متناوله أن فيه شفاءه وقطع العضو المتآكل، إذا علم أن فى قطعه بقاء جسده، وقطع المسافة الشاقة جداً.

إذا علم أنها توصل إلى مراده ومحبوبه بل العاقل يكتفى فى إيثار هذا المكروه وإرادته بالظن الغالب. وإن خفيت عنه عاقبته وطويت عنه مغبته، فكيف بمن لاتخفى عليه العواقب؟ فهو سبحانه يكره الشئ ويبغضه فى ذاته، ولاينافى ذلك إرادته لغيره. وكونه سبباً إلى أمر هو أحب إليه من فوته. من ذلك خلق إبليس الذى هو مادة لفساد الأديان والأعمال والاعتقادات والإرادات وهو سبب شقاء العبيد وعملهم، بما يغضب الرب المريد وهو الساعى فى وقوع مساخط الله ومناهيه بكل طريق وحيلة. فهو مسخوط للبارى مبغض قد لعنه وأبعده وغضب عليه وأبعده.

ومع هذا فهو وسيلة إلى محاب كثير للبارى جل وعلا ترتب وجودها على خلقه، وإيجاده وجودها أحب إلى الله من عدمها، الحكمة جرت منه فى عباده على وفق مراده.

(١) منها: إظهار القدرة على خلق المتضادات المتقابلات كخلق هذه الذات التى هى أحب الذوات وشرها، وهى سبب كل شر فى مقابلة ذات جبريل التى هى من أشرف الذوات وأطهرها وأزكاها. وهى مادة كل خير. فتبارك الله خالق الأضداد. وكما ظهرت قدرته التامة فى خلق الليل والنهار؛ والضياء والظلام، والداء والدواء، والحياة والموت، والحر والبرد، والحسن والقبح، والأرض والسماء، والماء والنار، والخير والشر.

وكل ذلك ونظائره من دلائل كمال قدرته وعزته،فإنه خلق هذه المتضادات وقابل بعضها ببعض، وسلط بعضها على بعض، وجعلها محال تصرفه وتدبيره وحكمته. فخلو الوجود عن بعضها بالكلية تعطيل لحكمته وكمال تصرفه وتدبيره مملكته.

(٢) ومنها : ظهور آثار أسمائه القهرية كالقهار والمنتقم والعدل والضار ونحوها وظهور آثار أسمائه المتضمنة لحلمه وعفوه ومغفرته وستره وتجاوزه عن حقه وعتقه لمن شاء من عبيده. فلولا خلق مايكره من الأسباب المقتضية لظهور هذه الأسماء، لتعطلت هذه الحكم والفوائد، وفى الحديث « لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم » .

(٣) ومنها : ظهور آثار أسمائه الحكمة والخبرة، فإنه الحكيم الخبير الذى يضع الأشياء مواضعها وينزلها منازلها اللائقة بها، فلا يضع الشئ فى غير موضعه،ولاينزله غير منزلته التى يقتضيها كمال علمه، وحكمته وخبرته من المنع والعطاء ، والثواب والعقاب، والخفض والرفع، والعز والذل ونحوها.

(٤) ومنها : حصول العبودية المتنوعة التى لولا خلق إبليس لما حصلت ولكان الحاصل بعضها لاكلها، فعبودية الجهاد سببها الكفر والعناد الناشئ عن تلبيس إبليس،وعبودية التوبة المحبوبة إلى الله تعالى وعبوديته مخالفة أعدائه ومراغمتهم .

(٥) ومنها : عبودية الاستعاذة من الشيطان الرجيم ونفى اتخاذ إبليس عدواً من أكبر أنواع العبودية وأجلها. إلى غير ذلك من الحكم والفوائد التى أبداها الإمام المحقق فى شرح منازل السائرين، فلخصت منها مالعلّه يدل النطق على مالايدخل تحت الإحصاء، فإن وجودها مترتب على وجود إبليس ترتيب وجود المسبب على سببه والملزوم على لازمه .

* * *

فصل

فى الكلام على الرزق وهو اسم لما يسوقه الله تعالى للحيوان فيأكله.

قال فى القاموس الرزق بالكسر ماينتفع به كل مرتزق، والجمع أرزاق، وبالفتح المصدر وقد أشار الناظم إلى ذكره بقوله :

والرزقُ ماينـفعُ مـن حـلال　　أو ضـدّه فحلّ عن المحال
لأنـه رازق كـل الخـلـق　　وليسَ مخلوق بغير رزقِ
ومن يُمتْ بقتلـه مـن البشـرِ　　أو غيره فبالقضاء والقدرِ
ولم يفتْ منْ رزقه ولا الأجلِ　　شئٌ فدع أهلَ الضلالِ والخطلِ

(والرزق ماينفع) المرتزق. أى ينتفع المرتزق بحصوله له،وسواء أكان المنتفع به(من حلال) وهو ماانحلت عنه التبعات، وهو ضد الحرام.

ولهذا قال(أوضده) أى ضد الحلال وهو الحرام، وهو ما منع منه شرعاً إما لصفة فى ذاته ظاهرة، كالسم والخمر أوخفية كالربا، ومذكى المجوس ونحوهم لأنه فى حكم الميتة، وإما لخلل فى تحصيله كالربا والغصب ونحو ذلك، فكل ذلك رزق، لأن الله تعالى يسوقه للحيوان فيتناوله ويتغذى به.

وخالفت المعتزلة فى ذلك فقالوا : الحرام ليس برزق، وفسروه تارة بمملوك يأكله المالك، وتارة مما لايمنع عن الإنتفاع به، وذلك لايكون إلا حلالاً.

فيلزمهم على التفسير الأول أن ماتأكله الدواب ليس برزق، مع ظاهر قوله تعالى ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ فيكون مصادماً للقرآن لأنه يقتضى أن تكون كل دابة مرزوقة، ولاينفعهم زعمهم أن تسمية مايأكله الدواب رزقا، مبنى على تشبيه بما هو مملوك الإنسان فيأكله فيكون لفظ الرزق مجازاً عما تأكله الدواب، فلا يلزم أن تكون كل دابة مرزوقة حقيقة.

لأنا نقول هذا التأويل مخالف لظاهر القرآن،وهو خلاف المتعارف فى اللغة، فلا يصح ارتكابه من غير ضرورة.

ثم إن تفسيرهم الرزق بذلك ليس بمطرد ولامنعكس لدخول ملك الله تعالى وخروج رزق الدواب والعبيد والإماء، ويلزمهم أيضاً على الوجهين أن من أكل الحرام طول عمره، لم يزقه الله تعالى أصلا، وهوخلاف الإجماع الحاصل من الأمة قبل ظهور المعتزلة أن

لارازق إلا الله، وإن استحق العبد اللوم والذم على أكل الحرام .

والإضافة إلى الله تعالى معتبرة فى مفهوم الرزق، وكل أحد مستوف رزق نفسه حلالاً، كان أو حراماً، ولايتصور أن لايأكل الإنسان رزقه أو يأكل غير رزقه، لأن ماقدر الله تعالى غذاء لشخص يجب أن يأكله ويمتنع أن يأكله غيره. ولهذا قال (فحل) أى زل وأرجع.

(عن المحال) وجه كونه محالاً، أنه لاأحد يبقى بلا رزق، ولايمكن إلا أن يأكل رزقه، فإذا تغذى طول عمره على بالحرام يكون مارزقه الله تعالى وهو محال.

ولهذا أوضح كونه محالا بقوله (لأنه) سبحانه وتعالى (رازق كل الخلق) كما فى الأدلة القرآنية والأحاديث النبوية، مما لايحصى إلا بكلفة كقوله تعالى ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ ﴿ وكلوا من رزقه ﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ﴾ .

(وليس) يوجد (مخلوق) من سائر الحيوانات ويبقى (بغير رزق) فظهر فساد مذهب المعتزلة وحقيقة مذهب أهل الحق، فإن الله تعالى قسم بين الخلق معايشهم فى الحياة الدنيا، ومعلوم أن الحرام معيشة لبعض الأنام (ومن يمت) من سائر الحيوانات (بقتله) من سائر أنواع القتل (من البشر) محركة الإنسان ذكراً كان أو أنثى، واحداً أو جمعاً، وقد يثنى ويجمع إيشاراً، وقدمه للاعتناء به والاهتمام بأحواله، ولانه المقصود بالذكر، وإنما قال (أو غيره) من سائر الحيوانات لدفع توهم أن ماقتل منها ليس لذلك(ف) موته (بالقضاء) أى بقضاء الله تعالى، وهو لغة الحكم وعرفا إرادة الله الأزلية المتعلقة بالأشياء على ماهى عليه فيما لايزال .

(والقدر) بتحريك الدال وتسكن : مصدر قدرت الشئ بفتح الدال مخففة إذا أحطت بمقداره، وأل فيه وفى القضاء عوض عن مضاف إليه، أى بتقدير الله تعالى لذلك.

وهو عند الماتريدية[1] تحديده تعالى، أزلاً كل مخلوق بحده الذى يوجد به من حسن، وقبح، ونفع وضر، ومايحويه من زمان ومكان، ومايترتب عليه من طاعة وعصيان، وثواب وعقاب وغفران.

وعند الأشاعرة إيجاد الله تعالى الأشياء على قدر مخصوص وتقدير معين فى ذواتها

---

(١) تُنسب الماتريدية إلى مؤسسها الإمام أبي منصور الماتريدي وُلد في قرية ماتريد أو ماتريت، إحدى قرى سمرقند في بلاد ما وراء النهر ـ ولد سنة٢٣٨هـ ـ وتُوفي سنة ٣٣٣هـ .

يُنظر البحث الممتاز عن (الماتريدية) بكتاب الدكتور عبدالفتاح فؤاد (الفرق الإسلامية وأصولها الإيمانية) جـ١ ص٢٢٣/ ٢٨٤ ط دار الدعوة بالإسكندرية سنة ١٩٩٧م .

وأحوالها ، طبق ماسبق به العلم وجرى به القلم.

قال الخطّابي رحمه الله تعالى: **قد يحسب كثير من الناس أن معنى القدر من الله تعالى، والقضاء معنى الإجبار والقهر للعبد على ماقضاه وقدره**، ويتوهم أن قوله ﷺ «فحج آدم موسى» من هـذا الوجه، **وليس كـذلك، وإنما معناه الإخبـار عن تقدم علم الله تعـالى، بما يكون من أفعال العباد واكتسابهم وصدورها عن تقدير منه تعالى وخلق لها خيرها وشرها.**

قال: **والقدر اسم لما صدر مقـدراً عن فعل القادر**، كالهـدم والنشر والقبض أسـماء لها صدر عن فعل الهادم والناشر والقابض.

يقال : قدرت الشيء. وقدرت خفيفة وثقيلة بمعني واحد.

قال: **والقضاء معناه في هذا الخلق**،كقوله تعالي ﴿ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ **أي خلقهن**: وإذا كان الأمر كذلك، فقد بقي عليهم من وراء علم الله **فيهم أفعالهم واكتسابهم ومباشرتهم** تلك الأمور، وملابستهم إياها عن قصد وتعمد، **وتقديم إرادة واختيار.**

والحجة إنما تلزمهم بها، واللائمة تلحقهم عليها.

قال : وإجمـاع القول في هذا أنهما أمـران لاينفك أحدهما عن الآخـر، لأن أحدهما بمنزلة الأساس، والآخر بمنزلة البناء، فـمن رام الفصل بينهما فقـد رام هدم البناء ونقضه، وإنما كان موضع الحجة لآدم علي موسي عليهما السلام **أن الله سبحانه كان قد علم من آدم أنه يتناول الشجرة ويأكل منها، فكيف يمكنه أن يرد علم الله فيه، وأن يبطله بعد ذلك؟ وبيان هذا في قوله تعالي﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ فأخبر قبل كون آدم إنما خلقه للأرض، وأنه لايتركه في الجنة حتي ينقله عنها إليها، وإنما كان تناوله سبباً لوقوعه إلي الأرض التي خلق لها ليكون فيها خليفة وواليا علي من فيها، فإنما أدلي آدم بالحجة علي موسي لهذا المعني ودفع لائمة موسي عن نفسه، ولذلك قال : أتلومني علي أمر قد قدّره الله علي من قبل أن يخلقني؟ قال : فـقول موسي** وإن كان في النفوس منه شبهة. وفي ظاهره متعلق لاحتجاجه بالسبب الذي جـعل إمارة لخروجه من الجنة، **فقول آدم في** تعلقه بالسبب الذي هو بمنزلة الأصل أرجح وأقوي[1] ، **والفلج** قد يقع مع المعارضة بالترجيح، **كما يقع** البرهان الذي لامعارض له. انتهي.

(١) الفلج بحجته: أثبتها (المصباح المنير) للفيومي المقري .

والحديث الذى احتج فيه آدم على موسى رواه البخارى ومسلم وغيرهما، من حديث أبى هريرة وروى أيضاً بإسناد جيد من حديث ابن عمر ﷺ عن النبى ﷺ قال: « احتج آدم موسى » وفى لفظ » أن موسى قال : يارب، أرنا آدم الذى أخرجنا من الجنة بخطيئته، فقال موسى: ياآدم أنت أبو البشر، خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأسجد لك ملائكته، لما أخرجتنا ونفسك من الجنة؟ فقال آدم : أنت موسى الذى اصطفاك الله بكلامه، وكتب لك فى التوراة بيده، فكم تجد فيها مكتوبا: وعصى آدم ربه فغوى ـ قبل أن أخلق ؟ قال بأربعين سنة ـ وفى لفظ قال : أتلومنى على أمر قد قدّره علىَّ قبل أن أخلق بأربعين سنة؟ قال فحج آدم موسى » .

قال شيخ الإسلام، روح الله روحه: ظن طوائف فى هذا الحديث أن آدم احتج بالقدر على الذنب، وأنه حج موسى بذلك.

فطائفة من هؤلاء يدّعون التحقيق والعرفان، يحتجون بالقدر على الذنوب، مستدلين بهذا الحديث .

وطائفة يقولون الاحتجاج به سائغ فى الآخرة والدنيا.

وطائفة يقولون :هوحجة للخاصة المشاهدين للقدر دون العامة، وطائفة كذبت به كالجبائى وغيره.

وطائفة تأولته تأويلات فاسدة مثل قول بعضهم :إنما حجة لأنه كان قد تاب، وقول آخر كان أباه والابن لايلوم أباه، وقول آخر كان الذم فى شريعة، واللوم فى أخرى.

قال: وهذا كله تعريج عن مقصود الحديث .

وظاهر كلامهم مايؤخذ من كلام شيخ الإسلام ومن مفهوم الحديث أن آدم، إنما حج موسى عليهما السلام، لكونه قد كان تاب من الذنب الصورى واستسلم للمصيبة التى لحقت الذرية بسبب أكله المقدر عليه. فالحديث تضمن التسليم للقدر عند المصائب لاعند الذنوب والمعائب، فيصبر على المصائب ويستغفر من الذنوب، كما قال تعالى﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ ﴾[غافر:٥٥] وقال تعالى ﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾[التغابن: ١١] .

قالت طائفة من السلف: كان ابن مسعود ﷺ يقول : هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم. فالإيمان بالقدر والرضا بما قدره الله من المصائب،

والتسليم لذلك هو من حقيقة الإيمان، وأما الذنوب فليس لأحد أن يحتج على فعلها بقدر الله تعالى،بل عليه أن لايفعلها، وإذا فعلها فعليه أن يتوب منها. كما فعل آدم عليه السلام.

إذا علمت هذا فقوله : ومن يمت الخ. أن المراد المقتول ميت بأجله، أى الوقت المقدر لموته، لاكما يزعم بعض المعتزلة من أن الله تعالى قد قطع عليه الأجل والحق عند أهل الحق أن المقتول ميت فى الوقت الذى قدره الله تعالى له، وعلم أنه يموت فيه لا كما زعمت المعتزلة، أنه قد قطع عليه الأجل، أى لم يوصله إليه. وأنه لو لم يقتل لعاش إلى أمد هو أجله، الذى علم الله موته فيه ، لولا القتل فهم يقطعون بامتداد العمر لولا القتل.

فعندهم القاتل قد قطع عليه الأجل، ويزعم أبو الهذيل: أنه لو لم يقتل لمات فما ذلك الوقت البتة. وقول غيره لو لم يقتل لجاز أن يموت فى ذلك الوقت وأن لايموت،وهو مذهب أهل السنة - يعنى إلى أجله الذى إذا جاء لايتأخر ولايتقدم، كما قال تعالى : ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾[الأعراف: ٣٤] .

والحاصل أن المقتول مات بأجله الذى أجله الله تعالى، الذى لايتقدم موته عليه لحظة، ولايتأخر عنه لحظة، فإنه عزوجل حكم بآجال العباد على علم من غير تردد، فإذا جاء أجلهم لايستأخرون عنه ساعة ولايستقدمون.

وأما الأحاديث التى فيها أن بعض الطاعات تزيد فى العمر مثل صلة الرحم ونحو ذلك، مما جاء أنه يقصر العمر، فهذا فى الصحف التى يقع فيها المحو والإثبات، وعلم الله تعالى لايقع فيه تغيير ولازيادة ولانقصان. الحق أن الأجل واحد، لا كما زعم الكعبى: أن للمقتول أجلين، القتل والموت، وأنه لو لم يقتل لعاش إلى أجله الذى هو الموت، ولا كما زعمت الفلاسفة أن للحيوان أجلاً طبيعياً، قيل هو فى الإنسان أن يبلغ مائة وعشرون سنة، وموته عندهم بتحلل رطوبته وانطفاء حرارته الغريزيتين، وأجل آخر غير الطبيعى اخترامه(*) بحسب الآفات والأمراض.

ولرد هذه المذاهب الباطلة والعقائد الفاسدة العاطلة أشير بقوله(ولم يفت) على المقتول ولاغيره(من رزقه) المقسوم له فى علم الحى القيوم شئ قلّ ولاجل .

(ولا) فاته أيضاً من (الأجل) المحتوم (شئ) ولا لحظة واحدة.

(*) إهلاكه .

الباب الثالث

الإيمان ومتعلقاته

- الذنوب ومتعلقاتها .
- الإيمان واختلاف الناس فيه .
- الإيمان والإسلام : هل هما شئ واحد أو شيئان ؟ .
- ذكر الملكين الموكلين بالعبد .

***

الباب الثالث

فى الأحكام والكلام على الإيمان ومتعلقات ذلك

اعلم وفَّقني الله وإياك وسائر المسلمين لمرضاته، أن طرق الناس قد اختلفت فى علة التكليف، **وحكمته مع كون الله تعالى لاينتفع بطاعة، ولاتضره معصية.**

فسلكت **الجبرية** ومن وافقهم مسلكهم المعروف، وأن ذلك صادر عن محض المشيئة وصرف الإرادة، وأنه لاعلة ولاحكمة له، ولامايحدث عليه سوى محض الإرادة.

وسلكت **القدرية** مسلكها المعروف، وهو أن ذلك استئجار منه لعبيده لينالوا أجرهم بالعمل، فيكون الذنب اقتضاؤهم الثواب بلا عمل، لما فيه من تكدير المنة، **والمسلكان فاسدان كما ترى**، وحسبك مايدل عليه العقل الصريح، والنقل الصحيح، من بطلان هذين المذهبين وفسادهما، وليس عند الرسل، ممن يرى أن الشرائع وضعت نواميس تقوم عليها مصلحة الناس ومعايشهم، وأن فائدتها تكميل قوة النفس العملية وارتياضها لتخرج من شبه الأنعام، فتصير مستعدة لأن تكون محلا **لقبول الفلسفة العليا والحكمة.**

وهذا مسلك خارج عن **مناهج الأنبياء وأممهم.**

وأما اتباع الرسل الذين هم أصل البصائر فحكمة الله عزوجل فى تكليفهم ماكلفهم به أعظم وأجل عندهم، مما يخطر بالبال أو أعرب به المقال، **فيشهدون له سبحانه فى ذلك من الحكم الباهرة والأسحار العظيمة، أكثر مما يشهدونه فى مخلوقاته وماتضمنته من الأسرار والحكم. ويعلمون مع ذلك أنه لانسبة لما أطلعهم سبحانه عليه من ذلك إلى ماطوى علمه عنه، واستأثر به دونهم وأن حكمته فى أمره ونهيه لأنه جل وعلا أهل أن يعبد،** وإلى هذا المقام أشار بقوله :

وواجبٌ على العبادِ طرا ... أن يعبدوه طاعةً وبرا
ويفعلوا الفعل الذى به أمرْ ... حتما ويتركوا الذى عنهُ زَجْر

(وواجب على العباد طرا) أى جميعاً وفى حديث قس بن ساعدة الأيادى: ومراد المحشر الخلق طرا. قال فى النهاية: أى جميعا، وهو منصوب على المصدر أو الحال.

(أن يعبدوه) سبحانه وتعالى (طاعة) أى لأجل الطاعة، وامتثال الأمر، لما ندب الخلق من التكليف على ألسنة الرسل عليهم الصلاة والسلام.

(وبرا) أى لأجل البر والإحسان الناشئ عنها المحبة.

قال فى النهاية: البر بالكسر الإحسان والتقرب إلى الله تعالى، **فهو سبحانه أهل أن يعبد، وأهل أن يكون الحب كله له، والعبادة له حتى لو لم يخلق جنة ولانارا،ولاوضع ثوابا ولاعقابا، لكان جل شأنه أهل أن يعبد أقصى ماتناله قدرة خلقه من العبادة.**

وفى بعض الآثار الإلهية « لو لم أخلق جنة ولانارا ألم أكن أهلاً أن أعبد » وفى الفطرة والعقل، مايقتضى شكره وإفراده بالعبادة، كما فيهما مايقتضى تناول المنافع واجتناب المضار، فإن الله تعالى فطر خلقه على محبته ـ والإقبال عليه، وابتغاء الوسيلة إليه، وأنه لاشئ على الإطلاق أحب إلى العباد منه، وإن فسدت فطر الخلق بما طرأ عليها بما اقتطعها واجتالها عما خلق فيها كما قال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾[الروم: ٣٠] فبين سبحانه أن إقامة التوجه، وهو إخلاص القصد، وبذل الوسع لدينه المتضمن محبته وعبادته حنيفا مقبلا عليه، معرضا عما سواه، فطرته التى فطر عليها عباده، فلو خلوا، ودواعى فطرهم لما مالوا عن ذلك ولا اختاروا سواه، ولكن غيرت الفطر وأفسدت، كما قال النبى ﷺ « مامن مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهوّدانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء حتى تكونوا أنتم تجدعونها » .

ثم يقول أبى هريرة رضي الله عنه اقرؤا ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ * مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ﴾[الروم: ٣٠-٣١] ومنيبين نصب على الحال من المفعول، **أى فطرهم منيبين إليه، والإنابة إليه تتضمن الإقبال عليه بمحبته وحده، والإعراض عما سواه.**

فأخبر سبحانه أنه إنما خلق عباده على الحنيفية المتضمنة لكمال حبه والخضوع له، والذل له وكمال طاعته وحده دون غيره، وهذا من الخلق الذى خلقت له وبه قامت السموات والأرض ومابينهما،وعليه قام العالم، ولأجله خلقت الجنة والنار، ولأجله أرسل رسله وأنزل كتبه، ولأجله أهلك القرون التى خرجت عنه، وآثرت غيره.

فكونه سبحانه أهلا أن يعبد ويحب ويثنى عليه، أمر ثابت له لذاته فهو سبحانه الإله الحق المبين، والإله هو الذى يستحق أن يؤله محبة وتعظيما وخشية وخضوعا، وتذللا وعبادة فهو الإله الحق ولو لم يخلق خلقه، وهو الإله الحق ولو لم يعبدوه، فهو المعبود حقا، الإله حقا، المحمود حقا، ولو قدر أن خلقه لم يعبدوه ولم يحمدوه ولم يألهوه، لم يستحدث تعالى بخلقه لهم ولا بأمره إياهم، استحقاق الإلهية والحمد، بل إلهيته وحمده ومجده

وغناه، أوصاف ذاتية له سبحانه وتعالى ويستحيل مفارقتها له، كحياته ووجوده وقدرته وعلمه وسائر صفات كماله.

وقد جاءت الرسل وأنزلت الكتب بتقرير مااستودع سبحانه فى الفطر والعقول من ذلك، وتكميله وتفصيله وزيادته حسناً إلى حسنه، فأنفقت شريعته وفطرته وتطابقا وتوافقاً، فعبده عباده وأحبوه ومجدوه بداعى الشرع وداعى الفطرة والعقل، فاجتمعت لهم الدواعى ودعتهم إلى وليهم وإلههم وفاطرهم، فاقبلوا إليه بقلوب سليمة، ولم يعارض خبره عندها شبهة توجب ريباً وشكا، ولا أمره شهوة توجب رغبتها عنه وإيثارها سواه.

فاتفقت

وقد قام النبى ﷺ حتى تفطرت قدماه فقيل له : تفعل هذا وقد غفر لك ماتقدم من ذنب وماتأخر؟ قال « **أفلا أكون عبداً شكوراً** » واقتصر ﷺ من جوابهم على ما تدركه عقولهم، وتناله أفهامهم، وإلا فمن المعلوم أن باعثه على ذلك الشكر أمر يجل عن الوصف ولاتحيط به العبارة والأذهان، فأين هذا الشهود من شهود طائفتى القدرية والجبرية.

واعلم أنه لايمكن أحداً من خلقه قط أن يعبده حق عبادته، ولايوفيه حقه من المحبة والحمد، ولهذا قال أكمل خلقه وأفضلهم، وأعرفهم به وأحبهم إليه، وأطوعهم له « لا أحصى ثناءاً عليك » وأخبر ﷺ أن عمله لايستقل بالنجاة فقال « لن ينجى أحداً منكم عمله؟ قالوا: ولاأنت يارسول الله ؟ قال: ولا أنا، **إلا أن يتغمدنى الله برحمة منه وفضل**»

وفى الحديث المرفوع المشهور : أن من الملائكة من هو ساجد، لايرفع رأسه من الركوع منذ خلق إلى يوم القيامة، وأنهم يقولون يوم القيامة، سبحانك ماعبدناك حق عبادتك.

ولما كانت عبادته تعالى تابعة لمحبته وإجلاله، **وكانت المحبةنوعين : (١) محبة تنشأ عن** الإنعام والإحسان، فتوجب شكراً وعبودية بحسب كمالها ونقصانها، **(٢) ومحبة تنشأ عن جمال المحبوب وكماله،** فتوجب عبودية وطاعة وأمر، واجتناب **فهى أكمل من الأولى،** وكان الباعث على الطاعة والعبودية أن لايخرج عن هذين النوعين.

فصل

فى الكلام عن الذنوب ومتعلقاتها

قال الحافظ العلامة شمس الدين محمد بن عبد الهادى الحنبلى من بنى قدامة فى مناقب شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية قدّس الله روحه: أول خلاف حدث فى الملة فى الفاسق الملّى هل هو كافر أو مسلم؟ فقالت الخوارج: إنه كافر وقالت الجماعة : إنه مؤمن. وقالت طائفة المعتزلة: هو لامؤمن ولاكافر منزلة بين منزلتين، وخلوده فى النار، وأما أهل السنة

فلم يخرجوه من الإسلام، ولم يحكموا عليه بخلود فى النار، وإنما هو فاسق بكبيرته مؤمن بإيمانه، وهو تحت مشيئة الله تعالى. ولهذا قال :

ويفسق المذنبُ بالكبيرة   كذا إذا أصرَّ بالصغيره
لايخرج المرءُ من الإيمان   بموبقات الذنب والعصيان
وواجبٌ عليه أن يتوبا   من كل ما جرَّ عليه حوبا
ويقبل المولي بمحض الفضل   من غير عبد كافر منفصل
مالم يتبْ من كفره بضده   فيرتجع عن شركه وصده
ومن يمت ولم يتب من الخطا   فأمره مفوَّض لذى العطا
فإن يشأ يعفُ وإن شاء انتقمْ   وإن يشأ أعطى وأجزل النِّعمْ

(ويفسق) المسلم المكلف (المذنب) بإتيانه المعصية (الكبيرة) أصل الفسوق الخروج عن الاستقامة والجور وبه سمي العاصى فاسقاً، والمذنب هو المقترف للذنب، وهوالآثم. قال تعالى﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾[المائدة:٢].

قال فى (شرح منازل السائرين) الإثم والعدوان، كل منهما إذا أفرد تضمن الآخر، فكل إثم عدوان، إذ هو فعل ما نهى الله عنه، أو ترك ماأمر الله به، فهو عدوان على أمره ونهيه، وكل عدوان إثم لأنه يأثم به صاحبه، لكن عند اقترانهما شيئان بحسب متعلقهما ووصفهما، فالإثم ماكان محرم الجنس، كالكذب، والزنا، وشرب الخمر ونحو ذلك. والعدوان ماكان محرم القدر والزيادة، بأن يتعدى على ماله أو بدنه، أو عرضه، والكبيرة : كل معصية فيها حد فى الدنيا أو وعيد فى الآخرة.

وزاد شيخ الإسلام : أو ورد فيها وعيد بنفى إيمان أو لعن ونحوهما .

قال فى شرح البخارى للبدر العينى عن سعيد بن جبير قال : قال رجل لابن عباس رضي الله عنهما « الكبائر سبع؟ فقال ابن عباس : هى إلى السبعمائة أقرب منها إلى السبع، غير أنه لاكبيرة مع استغفار، ولاصغيرة مع إصرار » .

وقد أوصلها علماؤنا إلى نيف وسبعين كما فى الإقناع وغيره.

وقوله (كذا) ، أى مثل إتيانه الكبيرة (إذا أصر) على الجريمة الصغيرة، يقال : أصر يصر على الشئ إصراراً: إذا لزمه وداومه، وأكثر مايستعمل فى الشر والذنوب، وأما من اتبع الذنب الصغير بالاستغفار، فليس بمصر عليه وإن تكرر منه.

وفى الحديث «ماأصر من استغفر » وفيه أيضاً « ويل للمصرين الذين يصرون على مافعلوا وهم يعلمون » فمن أصر فإنه يفسق حتى (با) لجريمة (الصغيرة) لأن الإصرار يصير الصغيرة فى حكم الكبيرة .

قال بعض العلماء : **تصير الصغيرة كبيرة بخمسة أشياء : الإصرار عليها، والتهاون بها، والفرح بها، والافتخار بها، وصدورها عن عالم فيقتدى به فيها.**

ثم ذكر ماعليه أهل السنة من أن إتيان الجريمة، وإن كانت كبيرة لايخرج بها الشخص المؤمن عن الإيمان بقوله (لايخرج المرء) بتثليث الميم - الإنسان أو الرجل، ولايجمع من لفظه وسمع مرون. قال فى القاموس (من الإيمان) الآتى تعريفه فيما بعد إن شاء الله تعالى (بموبقات الذنب) متعلق بقوله: لايخرج، والموبقات - بموحدة وقاف - المهلكات - سميت بذلك لأنها سبب لإهلاك مرتكبها فى الدنيا، بما يترتب عليها من العقاب فى الآخرة من العذاب.

وفى الصحيحين وغيرهما من حديث أبى هريرة رضى الله عنه « اجتنبوا السبع الموبقات، الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولى يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات» .

والحكمة فى الاقتصار على السبع المذكورة فى الحديث مع ورود مايزيد على السبعين فى أحاديث متفرقة، **أن هذه موصوفة بصفة زائدة على مجرد الكبيرة وهى الموبقة أى المهلكة.**

والمراد : أن الإنسان لايخرج من الإيمان بملابسته وإتيانه بموبقات الذنوب، التى هى أكبر الكبائر، وأل فى الذنب للجنس أو الاستغراق، فيشمل كل الذنوب.

(والعصيان) دون الشرك بالله تعالى والكفر به بأى أنواع المكفرات ذلك لايخرج من الدين بيقين.

والعصيان : ضد الطاعة وهو يرادف الذنب والإثم والجرم، وكذا البغى والعدوان والظلم، ولكن قد يفهم من هذه تجاوز الحد المباح.

والحاصل : أن الشخص المؤمن لايخرج من الإيمان بملابسته كبائر الذنوب والعصيان.

ومذهب أهل الحق من أهل السنة: أن مرتكب الكبيرة فى مشيئة الله تعالى وعفوه، لأن أصل الإيمان من التصديق بالله والمعرفة والإذعان موجود، ونصوص الكتاب والسنة لاتدل إلا على هذا كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ﴾

الآيتين. وفى ذلك يقول ﴿ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ ﴾ فسماه أخـا وقوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا ﴾[التحريم:٨] وقوله ﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا ـ إلى قوله ـ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾[الحجرات:٩-١٠] .

وفى الصحيحين عن النبى ﷺ من حديث عبادة بن الصـامت رضي الله عنه أنه قال، وحوله عصابة من أصحـابه « بايعونى على أن لاتشركوا بالله شيئـاً ولاتسرقوا ولاتزنوا، ولاتقتلوا أولادكم ولاتأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولاتـعصونى فى معروف، فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصـاب من ذلك فعوقب فى الدنيا فهوكـفارة له، ومن أصاب من ذلك شيئـاً ثم ستره فهو إلى الله إن شاء عـفا عنه، وإن شاء عاقبه» قـال: فبايعناه على ذلك.

وقال ﷺ فيـما يروى عن ربه « ابن آدم لو لقيـتنى بقراب الأرض خطايا، ثـم أتيتنى لاتشرك بى شيئاً أتيتك بقرابها مغفرة » ، أخرجه الترمذى وقال : حسن صحيح. وأخرجه الطربانى من حديث ابن عباس وأبو عوانة من حديث أبى ذر أيضاً .

وأخرج مسلم فى صحيحه عن أبى ذر رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال : « يقول الله تعالى : من تقرّب منـى شبراً تقـربت منه ذراعاً ومن تقـرب إلى ذراعاً تقربت منه بـاعا ومن أتانى يمشى أتيته هرولة، ومن لقينى بقراب الأرض خطيئة لايشرك بى شيئاً، أتيته بقرابها مغفرة» وقال ﷺ : « من مات لايشرك بالله شيئاً دخل الجنة » وقال « من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة » وقال « إن الله حرم على النار من قال لا إله إلا الله، يبتغى بذلك وجه الله ».

وفى حديث الشفاعة « أخرجوا من النار من فى قلبـه حبة خردل من إيمان » وفيه يقول الله عزوجل « وعزتى وجلالى لأخرجن من النار من قال لا إله إلا الله » .

فالتوحيد من أعظم بل أعظم أسباب المغفرة، فهو السبب الأعظم فمن فقده فقد المغفرة، ومن جاء به فقـد أتى بأعظم أسباب المغفـرة قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾[النساء:٤٨] فـدلت الآية مع حديث أنس أن من جـاء مع التوحيد بملء الأرض خطايا لقيـه الله تعالى بملئها مغفرة مع مشيئـة الله تعالى، فإن شاء غفر له وإن شاء أخذه بذنوبه، ثم كان عاقبته أن لايخلد فى النار بل يخرج منها ثم يدخل الجنة.

وأما آية النساء ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا﴾ فلها نظائر أمثالها من نصوص الوعيد، كقوله

تعالى : ﴿ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾[الجن:٢٣] .

وكذلك ماورد من السنة كقوله ﷺ : « من قتل نفسه بحديدة فحديدته فى يده يتوج بها خالدا مخلداً فى نار جهنم » ونظائره كثيرة.

فقالت فرقة : الوعيد فى حق المستحل لها لأنه كافر، وأمـا من فعلها غير مستحلها لم يلحقه وعيد الخلود.

وقد أنكر الإمام أحمد رضى الله عنه هذا القول، وقال لو استحل ذلك ولم يفعله كان كافراً، والنبى ﷺ إنما قال : من فعل كذا وكذا.

وقالت فرقـة : الاستدلال بنصوص الوعيد على هذه مبنى على ثبوت العموم، قالوا: وليس فى اللغة ألفاظ عامة وقصدهم تعطيل هذه الأدلة عن استدلال المعتزلة والخوارج بها، لكن ذلك يستلزم تعطيل جـملة الشرع، فهم ردوا باطلاً بأبطل منه، وبدعة بـأقبح منها. فكانوا كمن رام أن يبنى قصراً فهدم مصراً.

وقالت فرقة أخرى : هذا وعيد، وإخلاف الوعيد لايذم ولايمدح فيجوز على الله تعالى إخلاف الوعيد لا إخـلاف الوعد، والفرق بينهما أن الوعـيد حقه فإخلافـه عفو وهبة، وإسقاط ذلك مـوجب كرمه وجوده وإحسـانه. والوعد أوجبه على نفـسه بوعده، والله لايخلف الميعاد. وتناظر فى هذه المسألة أبو عمرو بن العلاء وعمرو بن عبيد المعتزلى، فقال ابن عبيد : ياأبا عمرو، لايخـلف الله وعيده، وقد قال تعالى :﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾[النساء:٩٣] فقال أبو عمرو: **ويحك ياعمرو من العجمـة أتيت، إن العرب لاتعد إخـلاف الوعيد ذماً بل جـوداً وكرماً،** أما سمعت قول الشاعر:

ولايرهب ابن العم ماعشت صولتى ولا يخشى من صـولة المتهـدد
وإنـى وإن أوعـدتـه أو وعـدتـه لمخلف إيعادى ومنجز موعدى

وعلى كل حال فقد قام الدليل على **ذكر الموانع** من إنفاذ الوعيد بعـضها بالإجماع وبعضها بالنص.

فالتوبة مانع بالإجماع، والتوحـيد مانع بالنصوص المتواترة التى لامدفع لها، والحسنات العظيمة الماحية مانعة، والمصائب المفكرة مـانعة، وإقامة الحدود فى الدنيا مانع بالنص، فلا تعطل هذه النصوص وأضعاف أضعافها، فلا بد من أعمال النصوص من الجانبين .

ومن ثم قامت الموازنة بين الحسنات والسيئات اعتباراً لمقتضى العقاب، ومانعة أعمالاً لأرجحهما، وعلى هذا بناء مصالح الدارين ومفاسدهما وبناء الأحكام الشرعية والأحكام القدرية وهو مقتضى الحكمة السارية فى الوجود، وبه ارتباط الأسباب ومسبباتها خلقاً وأمراً، **وقد جعل الله تعالى لكل ضد ضداً يدافعه ومانعاً يمنعه ويكون الحكم للأغلب منهما.**

والحاصل والله أعلم كون المذنب الملى وإن كثرت ذنوبه وعظمت خطاياه فى مشيئة الله، إن شاء عذبه وإن شاء عافاه، وعلى كل حال خلود أهل التوحيد فى النار من المحال.

ولما كان من متعلقات الذنوب التوبة وكانت واجبة على كل من تلبس بذنب ذكر ذلك بقوله (وواجب) وجوب لزوم لابد له منه (عليه) أى المذنب (أن يتوبا) بألف الإطلاق للوزن، أى إن يرجع، فالتوبة أصل كل مقام ومفتاح كل حال، فمن لاتوبة له لامقام له، ولاحال. وهى لغة الرجوع من شئ إلى أخر.

وقال الإمام النووى : أصل التوبة لغة الرجوع، يقال :تاب وثاب بالمثلثة وآب وأناب رجع، والمراد بالتوبة هنا الرجوع من الذنب ـ انتهى. بأن يقلع عنه ويندم عليه، ويعزم على أن لايعود إليه، ويرضى الآدمى عن ظلامته إن تعلقت به.

قال النووى أركانها ثلاثة : **الإقلاع والندم على فعل تلك المعصية، والعزم على أن لايعود إليها أبداً وأن لايغرغر ـ انتهى.**

فإن كانت المعصية لآدمى فلها ركن رابع، وهو التحلل من صاحب ذلك الحق وأصلها الندم وهو ركنها الأعظم.

وفى قوله (من كل ما) أى شئ أو الذى (جر) أى قاد وجذب (عليه) أى المذنب.

(حوبا) أى إثما، وفى القاموس: الحوب الإثم. يقال :جاب بكذا ثم حوبا ويضم.

ومراد الناظم من ذلك من كل ماجر عليه الهلاك والبلاء إشعاراً بوجوب التوبة من كل ذنب كبير أو صغير.

وقد اتفق العلماء على **أن التوبة من كل معصية واجبة على الفور، ولايجوز تأخيرها سواء كانت صغيرة أو كبيرة وأنها من مهمات الإسلام**، وقواعد الدين المتأكدة، وظاهر النصوص القرآنية والأحاديث النبوية، والآثار السلفية، على أن من تاب لله توبة نصوحاً، واجتمعت شروط التوبة فى حقه، أن يقطع بقبول توبته كرماً منه وفضلا. وعرفنا قبولها بالشرع والإجماع.

وإلى قبـول التوبة فضلا وكـرماً أشار بقوله (ويقـبل المولى) ذو الكرم الواسع والفضل العظيم (بمحض) أى خالص (الفضل) والكرم من غيـر وجوب عليه تعالى من كل عند مذنب تاب إلى الله تعالى توبة نصوحاً، بشروطها المذكـورة. فإذا اجتمعت الشروط قبلت التوبة فضلاً من الله تعالى ولابد أن تكون من شخص مسلم (غير عبد كافر) بالله ورسوله (منفصل) عن الدين، إما بردة أو كان كافراً أصلياً ، فلا تقبل توبته من الذنوب .

(مالم يتب) أى يرجع (من كفره) فيسلم ويقـر بالوحدانية. ولمحمد ﷺ بالرسالة ويقر ويذعن بجميع ماجاء به النبى ﷺ ، فيـتصف من بعد رجوعه عن الكفر (بضده) من الإسلام، فإن كان مرتداً بإنكار ماعلم من الدين بالضـرورة إيجاباً وتحريماً، فيرجع عن إنكاره ذلك ويقر ويذعن حـسبما جـاء به النبى ﷺ الكريم وكلام الله القديم، فـإن كان مشركاً أو معتقداً أن لله شريكاً مستقلا بالنفع والضر، وعلم الغيب مما استأثر الله بعلمه (فـ) لا يقبل منـه مالم (يرتجع عن شركـه) الذى كان مـتصفـاً به (وصده) أى إعـراضه عن الدين، واتباع سيد العالمين، بأن يذعن وينقاد لشريعة خير العـباد مسلماً خاضعاً مقبلاً بقلبه وقالبه، خالعاً ما كان عليه من ترهاته ومطالبه، فهذا يقبل إسلامه إجماعا.

تـتـمة

فى المسند عن الـنبى ﷺ «مـامن يوم إلا والبـحـر يسـتـأذن ربه أن يغـرق بني آدم، والملائكة تستأذنه أن تعاجله وتهلكه والرب تعالى يقـول: دعوا عبدى فأنا أعلم به إذ أنشأته من الأرض، إن كان عبدكم فشأنكم به، وإن كان عبدى فمنى إلى عبدى، وعزتى وجلالى إن أتانى ليلا قـبلته، وإن أتانى نهـاراً قبلته، وإن تقـرب منى شبراً تقـربت منه ذراعاً، وإن تقرب منى ذراعاً تقـربت منه باعا، وإن مشى إلىَّ هرولت إليه، وإن استغـفرنى غفرت له، وإن استـقالنى أقلتـه، وإن تاب إلىَّ تبت عليه، مَن أعظم منى جـوداً وكرمـاً، وأنا الجواد الكريم، عبيدى يبـيتون يبارزوننى بالعظائم، وأنا أكلأهم إلى مضاجـعهم، وأحرسهم على فرشهم، من أقبل إلى تـلقيته من بعيد، ومن ترك لأجلى أعطيـته فوق المزيد، ومن تصرف بحولى وقوتى ألنت له الحديد، ومن أراد مهادى أردت مايريد، أهل ذكرى أهل مجالستى، وأهل شكرى أهل زيادتى، وأهل طاعتى أهل كرامتى، وأهل معصيتى لاأقنطهم - وفى لفظ - لاأوئسهم من رحمـتى، إن تابوا فأنا حبيبهم فـإنى أحب التوابين وأحب المتطهرين، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من المعائب.

قال العلامة ابن مفلح : الفقيـه كل الفقيه الذى لايؤيس الناس من رحـمة الله عزوجل،

ولايجرئهم على معاصيه، وجميع النفوس لابد أن تذنب فتعريف النفوس مايخلصها من الذنوب من التوبة والحسنات الماحيات كالكفارات والعقوبات، من أعظم فوائد الشريعة وبالله التوفيق.

(ومن) أى أى امرئ مذنب (يمت) أى يدركه الموت، وهو مصر على ذنونه ومنهمك فى شهواته (ولم يتب من الخطأ) الذى ارتكبه والإثم الذى اكتسبه، لم نحكم عليه بالكفر، ولا الخلود فى النار بل، ولابدخولها بل نقول فيمن مات مصراً على كبائر الذنوب والخطايا (فأمره) الذى يؤول إليه (مفوض) أى موكول ومزود (الذى) أى صاحب (العطا) الواسع، والكرم والجود والنعم والعطاء يقصر ويمد (فإن يشأ) سبحانه وتعالى (يعف) أى يتجاوز عمن مات، مرتكبا الذنوب، ولم يتب منها والعفو هو التجاوز عن الذنب، وترك العقاب عليه وأصله المحو وذهاب الأثر (وإن شاء انتقم) من (مهدت) له العذر قبلته منه فإن عامله بالفضل عفا وأنعم، وإن عامله بالعدل انتقم وآلم، (وإن يشأ أعطى) النوال (وأجزل) أى أكثر وأعظم لهم (النعم) بكسر النون المشددة وفتح العين المهملة، والاسم بالفتح.

والحاصل أن مذهب أهل الحق من أهل السنة والجماعة أن من مات مذنباً ولو مصراً على كبائر الذنوب، ولم يتب منها، لم نقطع له بخروج من الدين، بل نثبت أنه من المؤمنين، ولم نقطع له بدخول النار، فمفوض أمره إلى الحليم الغفار، فإن شاء عذبه، غير أنه لايخلده فى النار، وإن شاء عفا عنه ابتداء، إما بشفاعة مقبولة أو بدعوة صالح، أو بمصيبة من تشديد عند الموت أو غيره من مصائب البرزخ، والصدقة بعد الموت، والأعمال الصالحة التى يهديها غيره له، أو برحمة أرحم الراحمين، ونحو ذلك فإن شاء رفع عنه العذاب، أجزل له الثواب،ورفع له درجات وبدل الله سيئاته حسنات.

تنبيهان

هذه المسألة يترجمها بعض القوم بمسألة وعيد الفساق. وبعضهم بمسألة عقوبة العصاة، وبعضم بمسألة انقطاع عذاب أهل الكبائر، وظابطها أن يرتكب المؤمن كبيرة غير مكفرة بلا استدلال، ويموت بلا توبة وحكمها كما تقدم.

والدليل لمذهب أهل الحق الآيات والأحاديث الدالة، على أن المؤمنين يدخلون الجنة، فإن كان بعد العذاب ودخول النار، فهى مسألة انقطاع العذاب، وإن كان قبل ذلك فى مسألة العفو التام قال تعالى ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾[الزلزلة: ٧] ﴿ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن

ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ ﴾[غافر: ٤٠] وقـال ﷺ « من قال لا إله إلا الله دخل الجنة » وقال من مات لايشرك بالله شيئاً دخل الجنة، وإن زنى وإن سرق » وكقوله ﷺ «يخرج من النار قوم بعد ماامتحشوا وصـاروا فحماً فيفرقون على أنهار الجنة ويرش عليهم من مائها، فينبتون كما تنبت الحبة فى حميل السيل، فيحيون ويعودون لحالهم الأولى وأحسن» وقوله ﷺ :« يخرج من النار من كان فى قلبه مـثقال ذرة من إيمان » وسيأتى تمام هذا إن شاء الله تعالى .

الثانى : ذكر بعض المحـققين انعقاد الإجـماع على أنه لابد سمعاً من نفـوذ الوعيد فى طائفة من العصاة، أوطائفة من كل صنف لا لفرد معين، لجواز العفو، وأقل مايصدق عليه من نفـوذ الوعيـد فى واحد من كل صنف، والأدلة قـاضيـة بقصـر العصـاة على عـصاة الموحدين، وقـد رتب بعض الناس على ذلك امتناع سؤال العـفو لجميع المسلمـين، لمنافاته لذلك. وهذا سـاقط إلا إذا قصد العـفو ابتـداء لكل فرد من أفـراد الأمة، على أن العـفو يصدق بما بعد العذاب والتعذيب، فمن قال بمنع المنع فهو المصيب .

فصل

فى ذكر من قيل بعدم قبول إسلامه، من طوائف أهل العناد والزندقة والإلحاد.

اعلم أن علماءنا ذكروا تحتم قتل جماعة من الزنادقة وأهل الإلحاد، لعدم قبول إسلامهم بحسب الظاهر، كالزنديق. ومن تكررت ردته أو كفر بسحره أو سب الله أو رسوله ﷺ أو تنقصه، وأما حكمـهم فى الآخرة فإن صدقوا قبل منهم بلا خـلاف، وعن الإمام أحمد رضى الله عنه رواية ثانية أن توبتهم تقبل كغيرهم وهذا الذى نختاره.

فالذى نخـتاره وندين الله به مـاأشرنا إليـه بقولنا (فكل زنديق) لايتـدين بدين (وكل مـارق) من أهل البـدع والضـلالات (و) كل (جامـد) من درزى ودهرى وفـيلسـوف وبرهمى ومعطل، وعابد وثن، وشمس ونار، وغـيرهما (و) كل (ملحد) فى آيات الله، والنكر لشرائع الله، وكـافر برسول الله ﷺ ، وهو مع ذلك (مـنافق) أى نفاق ببطن الكفر ويظهـر الإسلام (إذا تاب) بما هو عليه من الكفـر والإلحاد و(استبان) أى امـتحن حاله، وطلب بيانه فظهـر صحة إيمانه و(نصحه للدين) القـويم وصدق إبقائه (فإنه) أى هذا التائب الناصـح (يقبل) منه ذلك الرجوبة عن تلـك الترهات، وهو مقـبول لدى من يقبل التـوبة عن عباده ويعـفو عن السيـئات (عن يقين) وهو حـكم الذهن الجازم المطابق للواقع، وإنما كان كذلك لقوله تعالى ﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا﴾[القرة: ١٦٠].

تـنـبـيه

دخل فى عموم ما ذكرنا الحلولية والإبحاية[1] ومن يفضل متبوعة على الأنبياء ومن يزعم أنه إذا حصلت له المعرفة والتحقيق سقط عنه الأمر والنهى، ومن يزعم أن العارف المحقق يجوز له التدين بدين اليهود والنصارى، وبأى دين شاء، وأنه لايجب عليه الإعتصام بالكتاب والسنة.

وأمثال هؤلاء الطوائف المارقين.

فمن صدقت توبته وصلحت سريرته ومدحت سيرته ودلت قرائن الأحوال على رجوعه، عما كان مرتكبه من الإفك والضلال. فمقبول عند ذى المنة والإفضال وبالله التوفيق .

فصل

فى الكلام على الإيمان واختلاف الناس فيه وتحقيق مذهب السلف فى ذلك

(اعلم) وفقك الله تعالى : أن الناس اختلفوا فى حقيقة الإيمان لغة وإصلاحاً وهو تصديق الرسول ﷺ فيما جاء به عن ربه وهذا القدر متّفق عليه .

ثم وقع الاختلاف، هل يشترط مع ذلك مزيد أمر من جهة إبداء هذا التصديق باللسان المعبر عما فى القلب، إذ التصديق من أفعال القلوب، أو من جهة العمل بما صدق به من ذلك كفعل المأمورات، ،وترك المحظورات، وهذا هو الذى اشتهر من مذهب السلف، ولهذا قال :

إيماننا قول وقصد وعمل تزيده التقوى وينقص بالزلّل

(إيماننا) معشر الأثرية من أهل السنة، ما يأتى ذكره، وهو فيما قيل: مشتق من الأمن، وفيه نظر لتبيان مدلولى الأمن والتصديق. إلا أن لوحظ معنى مجازى فيقال آمنه إذا صدقه، أى آمنه التكذيب، وفى الآية الكريمة ﴿وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ أى بمصدق لنا، وقد اعترض على ذلك جماعة فقالوا : بل الإيمان فى اللغة الإقرار، وعند محققي السلف: أن

---

(١) أفرد عبدالقاهر البغدادي فصلاً بعنوان (في ذكر أصناف الحلولية وبيان خروجها عن فرق الإسلام)، ذكر منها الحلاجية المنسوبين للحلاج، والعذافرة، والخرّمية، يشتركون في استباحة المحرّمات وإسقاط المفروضات . . ومنهم أيضاً السبئية لقولهم بأن علياً صار إلهاً بحلول روح الإله فيه . . .

ص٢٥٤ وما بعدها من كتاب (الفرق بين الفِرَق) للبغدادي تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد ط صبيح بدون تاريخ .

الإيمان وإن قلنا هو التصديق إلا أنه تصديق خاص مقيد بقيود تصل اللفظ بها، وهذا ليس نقلاً للفظ عن أصل اللغة ولا تغييراً له. فإن الله تعالى يأمرنا بإيمان مطلق، بل بإيمان خاص، وصفة وبينه، وهو تصديق تام قائم بالقلب مستلزم لما وجب من الأعمال القلبية وأعمال الجوارح، فإن هذه لوازم الإيمان التام وانتفاء اللازم دليل على انتفاء الملزوم ولهذا قال:

(قول) باللسان فمن لم يقر ويصدق بلسانه مع القدرة، لا يسمى مصدقاً، فليس بمؤمن كما اتفق على ذلك سلف الأمة من الصحابة والتابعين لهم بإحسان .

(وقصد) أي عقد بالجنان، فمن تكلم بكلمة التوحيد غير معتقد لها بقلبه فهو منافق، وليس بمؤمن، وإذا كان مصدقاً لله بقلبه غير ناطق بلسانه مع القدرة فليس بمؤمن عند سلف الأمة . قال الله تعالى ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾[البقرة:٨] فنفى الله الإيمان عن المنافقين . وكذلك من قام بقلبه علم وتصديق، وهو يجحد الرسول وما جاء به ويعاديه كاليهود وغيرهم، ممن سماه الله كافراً ولم يسمه مؤمناً قط ، ولا دخلوا في شيء من أحكام الإيمان فهم كفار، قال الله تعالى ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾[النمل:١٤] .

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ﴾[البقرة:١٤٦] .

(وعمل) بالأركان، وهذا هو اللفظ الوارد عن السلف .

قال البخاري في صحيحه : الإيمان قول وعمل .

قال الحافظ ابن حجر في شرحه : وهو اللفظ الوارد عن السلف ، قال: والمراد بالقول النطق بالشهادتين. وأما العمل فالمراد به ما هو أعم من عمل القلب والجوارح، ليدخل الاعتقاد والعبادات، ومراد من أدخل ذلك في تعريف الإيمان ومن نقاده إنما هو بالنظر إلى ما عند الله .

فالسلف قالوا : هو اعتقاد بالقلب، ونطق باللسان، وعمل بالأركان وأرادوا بذلك أن الأعمال شرط في كماله، ومن هنا نشأ لهم القول بزيادة الإيمان ونقصه كما سيأتي .

والمرجئة قالوا : هو اعتقاد ونطق فقط(*) .

(*) المرجئة : بعد أن عرض عبدالقاهر البغدادي لأقوال فرق المرجئة قال؟(فهذه أقوال المرجئة في الإيمان الذي لأجل تأخيرهم الأعمال عن الإيمان) سُمُّوا مرجئة . ص ٢٠٧ (الفَرق بين الفِرَق) .

والكرامية قالوا : هو نطق فقط(*) .

والمعتزلة قالوا : هو العمل والنطق والاعتقاد، والفرق بينهم وبين السلف أنهم جعلوا الأعمال شرطاً في صحته، والسلف جعلوها شرطاً في كماله، وهذا بالنظر إلى ما عند الله تعالى .

أما بالنظر إلى ما عندنا، فالإيمان هو الإقرار فقط، فمن أقرّ أجريت عليه الأحكام في الدنيا، ولم يحكم عليه بكفر إلا إن اقترن بإقراره فعل يدل على كفره، كالسجود للصنم، فإن كان الفعل لا يدل على الكفر، كالفسق فمن أطلق عليه الإيمان فبالنظر إلى إقراره، ومن نفى عنه الإيمان فبالنظر إلى كماله، ومن أطلق عليه الكفر فبالنظر إلى أنه فعل الكفر، ومن نفاه عنه فبالنظر إلى حقيقته .

وأثبتت المعتزلة الواسطة كما مر ، فقالوا: الفاسق لا مؤمن، ولا كافر، انتهى، وقال الحافظ ابن رجب في شرح الأربعين، وغيره : المشهور عن السلف وأهل الحديث أن الإيمان قول وعمل ونية، وأن الأعمال كلها داخله في مسمى الإيمان .

وحكى الشافعي رضي الله عنه : إجماع الصحابة والتابعين ومن أدركهم على ذلك .

قال الحافظ ابن رجب : أنكر السلف على من أخرج الأعمال عن الإيمان إنكاراً شديداً.

وممن أنكر ذلك على قائمة وجعله قولاً محدثاً سعيد بن جبير وميمون بن مهران، وقتادة، وأيوب السختياني، والنجعي ، والزهري ، ويحيى بن أبي كثير وغيرهم .

وقال الأوزاعي : كان من مضى من السلف لا يفرقون بين الإيمان والعمل، فمن استكملها استكمل الإيمان، ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان، ذكره الإمام البخاري في صحيحه .

وقد دل على دخول الأعمال في الإيمان قوله تعالى ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾[الأنفال: ٢-٤] .

وفي الصحيحين من حديث ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لوفد عبدالقيس

(*) الكرامية : أصحاب أبي عبدالله محمد كرّام ويقول الشهرستاني (وإنما عددناه من الصفاتية لأنه كان ممن يثبت الصفات، إلا أنه ينتهي فيها إلى التجسيم والتشبيه .ص ٩٩ الملل والنحل جـ١ .

«آمركم بأربع : الإيمان بالله، وهل تدرون ما الإيمان بالله ؟ شهادة أن لا إله إلا الله ، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وأن تعطوا من المغانم الخمس » .

وفي الصحيحين أيضاً من حديث أبي هريرة ﵁ عن النبي ﷺ قال :« الإيمان بضع وسبعون شعبة أو بضع وستون شعبة فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناه إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان » . ولفظه لمسلم .

قال شيخ الإسلام، روح الله روحه: الإيمان الذي أصله في القلب لابد فيه من شيئين: تصديق القلب وإقراره ومعرفته، ويقال لهذا قول القلب .

قال الجنيد بن محمد رحمه الله تعالى: التوحيد قول القلب والتوكل عمل القلب مثل حب الله ورسوله ﷺ ، وخشية الله، ويحب ما يحبه الله ورسوله ﷺ ، وإخلاص العمل لله وحده، وتوكل القلب على الله وحده، وغير ذلك من أعمال القلب التي أوجبها الله ورسوله ﷺ وجعلها من الإيمان .

ثم القلب هو الأصل فإذا كان فيه معرفة وإرادة سرى ذلك إلى البدن بالضرورة، ولا يمكن أن يتخلى البدن عما يريده القلب ، ولهذا قال النبي ﷺ في الحديث «ألا إن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح لها سائر الجسد وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد، ألا وهي القلب» قال أبو هريرة ﵁ : القلب ملك، والأعضاء جنوده، فإذا طاب الملك طابت جنوده، وإذا خبث خبثت جنوده .

قال شيخ الإسلام: قول أبي هريرة ﵁ : القلب ملك : تقريب . وقول النبي ﷺ أحسن بياناً، فإن الملك وإن كان صالحاً، فإن الجند لهم اختيار ، وقد يعصون به ملكهم وبالعكس. فقد يكون فيهم صلاح مع فساده وفساد مع صلاحه، بخلاف القلب، فإن الجسد تابع له لا يخرج عن إرادة قط، فلابد في إيمان القلب من حب الله ورسوله ﷺ ، وأن يكون الله ورسوله ﷺ أحب إليه مما سواهما، قال الله تعالى ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ**﴾[البقرة: ١٦٥] منهم لأوثانهم، وقيل: يحبونهم كما يحبون الله والذين آمنوا أشد حباً لله، منهم . وهذا هو الصواب .

فإن المشركون لا يحبون الأنداد مثل محبة المؤمنون لله، والمحبة تستلزم إرادة، والإرادة التامة مع القدرة تستلزم الفعل، فيمتنع أن يكون الإنسان محباً لله ورسوله ﷺ مريداً لما يحبه الله ورسوله ﷺ إرادة جازمة مع قدرته على ذلك، وهو لا يفعله، فإذا لم يتكلم

بالإيمان مع قدرته، دل على أنه ليس في قلبه الإيمان الواجب الذي فرضه الله عليه .

فمذهب أهل الحق من السلف ومن آفاقهم أن الإيمان يتفضل فيزيد وينقص ولهذا قال (تزيده) أي الإيمان المطلق عند الأثرية من السلف .

(التقوى) هي لغة الحاجز بين الشيئين، وإصلاحاً التحرز بطاعة الله عن مخالفته وامتثال أمره واجتناب نهيه وقوله تعالى ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ﴾ أي أهل أن يتقي عقابه (وينقص) الإيمان (با) ارتكاب (الزلل) بفتح الزاي المشددة واللام .

والحاصل : أن الإيمان عند السلف ومن وافقهم من أئمة أهل السنة والعرفان يزيد بالطاعة، وينقص بالعصيان .

قال شيخ الإسلام في كتاب الإيمان: مذهب أهل السنة والحديث على أن الإيمان يتفاضل، وجمهورهم يقولون : يزيد وينقص .

قال : زيادة الإيمان الذي أمر الله به، والذي يكون من عباده المؤمنين من وجوه:

(١) أحدهما : الإجمال والتفصيل فيما أمروا به، وإن وجب على جميع الخلق الإيمان بالله ورسوله ﷺ ، ووجب على كل أمة التزام ما يرمى به رسلهم مجملاً، فمعلوم أنه لا يجب في أول الأمر، ما وجب بعد نزول القرآن كله .

ولا يجب على كل عبد من الإيمان المفصل ما أخبر به الرسول ﷺ ، ما يجب على ما من لغة خبره، فمن عرف القرآن والسنة ومعانيهما، لزمه من الإيمان المفصل بذلك ما لم يلزمه غيره، ولو آمن الرجل بالله وبالرسول ﷺ باطناً وظاهراً، ثم مات قبل أن يعرف شرائع الإسلام مات مؤمناً بما وجب عليه من الإيمان، وليس ما وجب عليه، ولا ما وقع منه ، مثل : إيمان من عرف الشرائع فآمن بها بل إيمان هذا أكمل وجوباً ووقوعاً فإن ما وجب عليه من الإيمان أكمل، وما وقع منه أكمل، وقوله تعالى ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ أي في التشريع بالأمر والنهي لا أن كل واحد من الأمة وجب عليه ما يجب على سائر الأمة ، وأنه فعل ذلك بل الناس متفاضلون في الإيمان أعظم تفاضل .

الثاني : الإجمال والتفصيل فيما وقع منهم، فمن طلب علم التفصيل وعمل به، فإيمانه أكمل ممن عرف ما يجب عليه، بذنبه وكان خائفاً من عقوبة ربه على ترك العمل أكمل إيماناً ممن لم يطلب معرفة ما أمر به الرسول ﷺ ولا عمل بذلك، ولا هو خائف أن يعاقب بل هو في غفلة عن تفصيل ما جاء به الرسول ﷺ مع أنه مقر بنبوته باطناً وظاهراً، فكل

ما عمل القلب بما أخبر به الرسول ﷺ فصدقه وما أمر به فالتزمه، كان ذلك زيادة في إيمانه، على من لم يحصل له ذلك، وإن كان معه إقرار عام والتزام .

وكذلك من عرف أسماء الله ومعانيها ، فآمن بها كان إيمانه أكمل ممن لم يعرف تلك الأسماء ، بل آمن بها إيماناً مجملاً أو عرف بعضها، وكلما زاد الإنسان معرفة بأسماء الله تعالى وصفاته وآياته ، كان إيمانه أكمل .

الثالث : أن العلم والتصديق يكون أقوى من بعض، وأثبت وأبعد على الشك والريب، وهذا أمر يشهده كل واحد من نفسه .

كما أن الحس الظاهر بالشيء الواحد مثل رؤية الناس الهلال وإن اشتركوا فيها، فبعضهم تكون رؤيته أتم من بعض، كذلك سماع الصوت وشم الرائحة الواحدة وذوق النوع الواحد من الطعام، فكذلك معرفة القلب وتصديقه يتفاضل أعظم من ذلك من وجوه متعددة .

فالمعاني التي يؤمن بها من معاني أسماء الله وكلامه، يتفاضل الناس في معرفتها أعظم من تفاضلهم في معرفة غيرها .

الرابع : أن التصديق المستلزم لعمل القلب أكمل من التصديق الذي لا يستلزم عمله، فالعلم الذي يعمل به صاحبه أكمل من العلم الذي لا يعمل به .

وإذا كان شخصان يعلمان أن الله حق والرسول ﷺ حق والجنة حق ، والنار حق، فهذا علمه أوجب له محبة الله وخشيته، والرغبة في الجنة، والهرب من النار، والآخر علمه لم يوجب له ذلك، فعلم الأول أكمل فإن قوة المسبب تدل على قوة السبب .

وقد نشأت هذه الأمور عن العلم، فالعلم بالمحبوب يستلزم طلبه، والعلم بالمخوف يستلزم الهرب منه، فإذا لم يحصل اللازم دل على ضعف الملزم . ولهذا قال النبي ﷺ «ليس الخبر كالمعاينة » فإن موسى عليه السلام لما أخبره ربه أن قومه عبدوا العجل، لم يلق الألواح، فلما رآهم قد عبدوها ألقاها، وليس ذلك لشك موسى في خبر الله، لكن المخبر وإن جزم بصدق المخبر، فقد لا يتصور المخبر به في نفسه، كما يتصوره إذا عاينه، بل قد يكون قلبه مشغولاً عن تصور المخبر به، وإن كان مصدقاً به .

ومعلوم أنه عند المعاينة يحصل له من تصور المخبر ما لم يكن عند الخبر، فهذا التصديق أكمل من ذلك التصديق .

الخامس : أن أعمال القلوب مثل محبة الله ورسوله ﷺ ، وخشية الله تعالى ورجائه ونحو ذلك، هي كلها من الإيمان، كما دل على ذلك الكتاب والسنة، واتفاق السلف، وهذه يتفاضل الناس فيها تفاضلاً عظيماً .

السادس : الأعمال الظاهرة مع الباطنة، وهي أيضاً من الإيمان، والناس يتفاضلون فيها.

السابع : ذكر الإنسان بقلبه ما أمر به، واستحضاره بحيث لا يكون غافلاً عنه، أكمل ممن صدق به وغفل عنه، فإن الغفلة تضاد كمال العلم والتصديق والذكر، والاستحضار يكمل العلم واليقين، ولهذا قال عمير بن حبيب رضي الله عنه : **إذا ذكرنا الله وسبحناه وحمدناه، فتلك زيادته، وإذا غفلنا ونسينا وضيعنا فتلك نقصانه .**

الثامن : قديكون الإنسان مكذباً ومنكراً لأمور لا يعلم أن الرسول ﷺ أخبر بها وأمر بها، ولو علم ذلك لم يكذب ولم ينكر، بل قلبه جازم بأنه لا يخبر إلا بصدق، ولا يأمر إلا بحق، ثم يسمع الآية والحديث أو يتدبر ذلك أو يُفسِّر له معناه، أو يظهر له ذلك بوجه من الوجوه فيصدق بما كان مكذباً به ويعرف ما كان منكراً له، وهذا تصديق جديد وإيمان جديد ازداد به إيمانه، ولم يكن قبل ذلك كافراً بل جاهلاً، وهذا وإن أشبه المجمل والمفصل لكن صاحب المجمل قد يكون قلبه سليماً عن تكذيب وتصديق لشيء من التفاصيل، وعن معرفة وإنكار شيء من ذلك فيأتيه التفصيل بعد الإجمال على قلب ساذج.

وأما كثير من الناس بل من أهل العلم والعبادة، فيقوم بقلوبهم من التفصيل أمور كثيرة تخالف ما جاء به الرسول ﷺ ، وهم لا يعرفون أنها تخالف فإذا عرفوا رجعوا، وكل من ابتدع في الدين قولاً أخطأ فيه، أو عمل عملاً أخطأ فيه، وهو مؤمن بالرسول ﷺ أو عرف ما قاله وآمن به، ولم يعدل عنه هو من هذا الباب، وكل مبتدع قصده متابعة الرسول ﷺ فهو من هذا الباب فمن علم ما جاء به الرسول ﷺ وعمل به أكمل ممن أخطأ ذلك، ومن علم الصواب بعد الخطأ وعمل به فهو أكمل ممن لم يكن كذلك . انتهى.

إذا علمت هذا فاعلم أن مذهب السلف من الأمة وجل الأئمة أن الإيمان قول وعمل ونية، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية .

وقد روى الإمام أحمد في المسند من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه مرفوعاً «الإيمان يزيد وينقص » والآثار عن الصحابة والتابعين وأئمة الدين من أهل السنة والجماعة وأئمة

الحديث، وأعلام علماء الصوفية، أكثر من أن تذكر بأن الإيمان قول باللسان وعقد بالجنان، وعمل يزيد بالطاعة وينقص بالعصيان، وقد ذكرنا من ذلك ما لعله يحصل به المقصود، والله ولي الإحسان .

تنبيه

في الكلام على الإيمان والإسلام هل هما شيء واحد أو شيئان ؟

قد ثبت في القرآن إسلام بلا إيمان في قوله تعالى ﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾[الحجرات: ١٤].

وثبت في الصحيحين من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال : « أعطى النبي ﷺ رهطاً ـ وفي رواية ـ قسم قسماً وترك فيهم من لم يعطه وهو أعجبهم إليه ، فقلت: يا رسول الله مالك عن فلان فوالله إني لأراه مؤمناً؟ فقال رسول الله ﷺ : أو مسلماً أقولها ثلاثاً ، فيردها على رسول الله ﷺ ثلاثاً ـ ثم قال : إني لأعطي الرجل وغيره أحب إلى منه مخافة أن يكبه الله في النار » .

فهذا الإسلام الذي نفى الله عن أهله دخول الإيمان في قلوبهم، هل هو إسلام يثابون عليه أم أن جنس إسلام المنافقين؟ فيه قولان مشهوران للسلف والخلف .

أحدهما : أنه إسلام يثابون عليه ويخرجهم من الكفر والنفاق، وهذا يروى عن الحسن البصرى وابن سيرين وإبراهيم النخعي وأبي جعفر الباقر، وهو قول حماد بن زيد والإمام أحمد بن حنبل، وسهل بن عبدالله التستري، وأبي طالب المكي، وكثير من أهل الحديث والسنن والحقائق .

الثاني: أن هذا الإسلام هو الاستسلام خوف السبي والقتل، مثل إسلام المنافقين، قالوا: وهؤلاء كفار، فإن الإيمان لم يدخل في قلوبهم، ومن لم يدخل الإيمان في قلبه فهو كافر، وهذا اهتيار الإمام البخاري، ومحمد بن نصر المروزي . قال شيخ الإسلام : والسلف مختلفون في ذلك .

وحقيقة الأمر أن من لم يكن من المؤمنين يقال فيه إنه مسلم، ومعه إيمان يمنعه من الخلود في النار، وهذا متفق عليه لكن هل يطلق عليه اسم الإيمان؟ هذا هو الذي تنازعوا فيه ، فقيل يقال مسلم، ولا يقال : مؤمن . وقيل : بل يقال مؤمن .

والتحـقيق: أنه يقال مـؤمن ناقص الإيمان، مؤمن بإيمانه فـاسق بكبيرتـه فلا يعطى الاسم المطلق، ولا يسلب مطلق الاسم .

قال : فعلى هذا ، فالخطاب بالإيمان يدخل فيه ثلاث طوائف، المؤمن حقاً، والمنافق في أحكامه الظاهرة، وإن كان المنافق في الآخـرة في الدرك الأسفل من النار، وهو في الباطن ينفي عنه الإسلام والإيمـان، وفي الظاهر يستبـان له ظاهراً ويدخل فيـه الذين أسلموا ولم تدخل حقيقة الإيمان في قلوبهم، لكن معـهم جزء منه، وإسلام يثابون عليه ثم قد يكونون مفرطين فـيما فرض عليـهم وليس معهم من الكبائر مـا يعاقبون عليه كـأهل الكبائر، لكن يعاقبون على ترك المفروضات وهؤلاء كالأعـراب المذكورين في الآية وغيرهم فإنهم قالوا : آمنا من غير قيام منهم بما أمروا به ظاهراً وباطناً، فلا دخلت حقيقة الإيمان في قلوبهم، ولا جاهدوا، وقد كان النبي ﷺ قد دعاهم إلى الجهاد، وقد يكونون من أهل الكبائر وهؤلاء لا يخرجون من الإسـلام . بل هم مسلمون، ولكن بين السلف فيـهم نزاع لفظي هل يقال إنهم مؤمنون ؟

قال الـشالنجي : سـألت أحمـد عن الإيمان والإسلام ، فـقال : الإيمان قول وعـمل، والإسلام إقرار . وبه قال أبو خيثمة .

وقال ابن أبي شيبة : لا يكون إسلام إلا بإيمان ، ولا إيمان إلا بإسلام.

قال شـيخ الإسلام : وحـقيقـة الفرق بين الإسلام والإيمـان والدين، أن الإسلام دين، والدين مـصدر، وأن يدين ديناً إذا خـضع وذل، ودين الإسلام الذي ارتضـاه الله وبعث به رسوله ﷺ هو الاستـسلام لله وحده، فأصله في القلب وهو الخضوع لله وحـده بعبادته وحده، دون ما سـواه فمن عبده وعـبد معه إلهـاً آخر لم يكن مسلماً، ومن لم يـعبده بل استكبر عن عـبادته لم يكن مسلماً، والإسـلام هو الاستسلام لله وحـده وهو الخضوع له، والعبودية ، هكذا قال رحمه الله تعالى وعزاه لأهل اللغة .

فالإسلام في الأصل من باب العمل، عمل القلب والجوارح .

وأما الإيمان فـأصله تصديق وإقـرار ومعرفـة ، فهو من باب قـول القلب المتضـمن عمل القلب والأصل فيـه التصـديق ، والعـمل تابع له ، فلهـذا فسَّـر النبي ﷺ الإيمان بإيمان مخصوص، وهو المباني الخمس، وهكذا في سائر كلامه ﷺ .

تتمه

ألحق علماؤنا في آخر هذا الباب ذكر الملكين الموكلين بالعبد، يكتبان أفعاله وكأنهم نظروا لمناسبة ذلك للأحكام، وكونه مما يجب الإيمان به، وإلا فكان الأنسب ذكر في ذلك الباب الآتي في السمعيات لأنه منها فلهذا قال :

ووكل الله من الكرام اثنين حافظين للآنام

فيكتبان كلّ أفعال الورى كما أتى في النص من غير امترا

(ووكل الله) سبحانه (من) الملائكة (الكرام) وصفهم بالكرم لما جاء في الكتاب والسنة كما سيأتي، والحق إن الملائكة عليهم السلام ذوات قائمة بأنفسها، قادرة على التشكيل بالقدرة الإلهية، كما ثبت في الأحاديث الصحيحة عن النبي ﷺ .

قال العلامة ابن حمدان في نهاية المبتدئين : وتغير صور الملائكة والجن والشياطين إلى الله لا إليهم .

وقد حكى غير واحد من محققي العلماء، الاتفاق على أن الملائكة لا يأكلون ولا يشربون، ولا ينكحون، يسبحون بالليل والنهار لا يفترون (اثنين) مفعول وكل (حافظين للآنام) كسحاب، وبالمد والأنيم كأمير الخلق من الجن والإنس، وجميع ما على وجه الأرض والمراد هنا الإنس .

(فيكتبان) يعني الحافظين (كل أفعال الورى) كفتى الخلق(كما أتى في النص) القرآني كما في قوله تعالى ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾[الانفطار: ١٠-١٢] قال تعالى ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ﴾ [ق:١٨] .

(من غير امتراء) أي من غير شك، وهو مشتق من المماراة والمرية بالضم والكسر والشك.

قال علماؤنا : الرقيب والعتيد ملكان موكلان بالعبد، يجب أن نؤمن بهما ونصدق بأنهما يكتبان أفعاله ولا يفارقان العبد بحلل ، وقيل بل عند الخلاء.

وقال الحسن : إن الملائكة يجتنبون الإنسان على حالين عند غائطه، وعند جماعه، ومفارقتهما لا تمنع من كتبهما ما يصدر عنه في تلك الحال، كالاعتقاد القلبي يجعل الله لهما أمارة على ذلك .

قال سيدنا الإمام أحمد ﷺ : للعبد ملائكة يحفظونه بأمر الله تعالى يشير إلى قوله

تعالى ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾[الرعد: ١١] .

قال العلامة عبدالرحمن العليمي العمري الحنبلي في تفسير القرآن التعقيب العود بعد البدء، وإنما ذكر بلفظ التأنيث، لأن المراد الجماعات التي يعقب بعضها بعضاً.

وقوله «يحفظونه من أمر الله» أي بأمر الله فإذا جاء القدر خلوا عنه .

وقال القاضي البيضاوي : يحفظونه من أمر الله أي من بأسه، متى أذنب بالإمهال والاستغفار أو يحفظونه من المضاد أو يراقبون أحواله من أجل أمر الله .

قال أبو عبيدة : أي ملائكة تعقب بعد ملائكة، حفظة بالليل تعقب بعد حفظة النهار، وحفظة النهار تعقب بعد حفظة الليل .

وفي الطبراني بإسناد جيد عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ ﴾ قال ملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه، قال ملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه، فإذا جاء القدر دخلوا عنه .

ومن طريق إبراهيم النخعي قال : يحفظونه من الجن .

ومن طريق كعب الأحبار قال : لولا أن الله وكّل بكم ملائكة يذبُّون عنكم في مطعمكم ومشربكم وعوراتكم لتخطفتم .

قال العلامة الشيخ مرعي في بهجته : وأما الملائكة الكاتبون : فقيل أربعة ، اثنان بالليل واثنان بالنهار، وقيل خمسة واحد لا يفارق في ليل ولا في نهار ، انتهى .

والمشهور أنهما : اثنان لكل واحد ، قال الضحّاك مجلس الملكين تحت الشعر على الحنك ، ومثله عن الحسن .

وكان يعجبه أن ينظف عنفقته .

وعنه ﷺ « مقعد ملكين على شفتيك ، ولسانك قلمهما وريقك مدادهما وأنت تجرى بما لا يعنيك، ولا تستحي من الله ولا منهما ».

وعنه ﷺ « كاتب الحسنات عن يمين الرجل ، يعني الشخص - وكاتب السيئات عن يساره، وكاتب الحسنات أمير على كاتب السيئات ، فإذا عمل الشخص حسنة كتبها صاحب اليمين عشراً وإذا عمل سيئة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال : دعه سبع ساعات، لعله يسبح أو يستغفر » .

ساعات، لعله يسبح أو يستغفر » .

والذي رواه البغوي من حديث أبي أمـامه رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ «كاتب الحسنات على يمين الرجل ، وكاتب السيئات على يسـار الرجل، وكاتب الحسنات أميـر على كاتب السيئات وفيه : دعه سبع ساعات، لعله يسبح الله أو يستغفر » .

فوائد

الأولى : اختلف فيما يكتبه الملكان فقال، عكرمة: لا يكتبان إلا ما يؤجر أو يوزد فيه . انتهى .

وظاهر النص أنهمـا يكتبان أفـعال العبـاد من خير أو شر أو غـيرهما، قـولاً كانت أو عملاً، أو اعتقاداً هما كانت أو عزماً تقريراً فلا يهملان من أفعال العباد شيئاً في كل حال .

ولهذا قال مجاهد يكتبان عليه حتى في مرضه، فقوله، تعالى ﴿ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ﴾ أي عنده ﴿رَقِيبٌ﴾ أي حافظ يرقب أعماله ويحفظها ﴿عَتِيدٌ﴾ أي حاضر معه أينما كان .

وقال الإمام مالك : كقول مجاهد محتجاً بقوله تعالى ﴿ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ﴾ فإفادة العموم بطريق وقوع النكرة في سياق النفي، فيدخل في ذلك العبد الكافر، لأنه تضبط عليه أعماله وأنفاسه .

والصحـيح من مذهبنا كـالمالكية كتب حـسنات الصبي، قال علـماؤنا : يكتب له، ولا يكتب عليه، فيكون عليه حفظة، بخلاف المجنون، لأنه لا يكتب له ولا عليه .

الثانـية : جـاء في حديث أبي هريرة وأنس رضي الله عنهما، عـن النبي ﷺ أنه قال :« مـا من حافظين يرفـعان إلى الله تعالى ما حـفظا، فيرى الله تعالى في أول الـصحيفة خـيراً، وفي آخرها خيراً إلا قال للملائكة اشهدوا أني قد غفرت لعبدي ما بين طرفي الصحيفة » أخرجه الطبراني وغيره .

قال الحافظ ابن رجب : وهو موجود في بعض نسخ الترمذي .

وفي حديث آخر مرفوع « ابن آدم اذكرني من أول النهار ساعة، ومن آخر النهار ساعة، أغفر لك ما بين ذلك إلا الكبائر أو تتوب منها » .

وقال ابن المبـارك : من ختم نهاره يذكـر الله كتب نهاره ذكـراً، يشير إلى أن الأعـمال بالخواتيم .

قال الحافـظ ابن رجب : فإذا كان البداية والختـام ذكراً فهـو أولى أن يكون حكم الذكر شاملاً للجميع . انتهى .

الثالثة : قوله في الخبر حـتى أنينه في مرضه، ربما أشعر بأنه مما يكتبه كـاتب السيئات، لأنه يكتب كل ما أهمله . كاتب الحسنات .

ويدل له قول علمائنا : يكره الأنين .

قال في الفروع : على الأصح .

قالوا : لأنه يترجم عن الشكوى ما لم يغلبه مع أنه جاء في حديث «المريض أنينه تسبيح وصياحه تكبيـر، ونفسه صدقة، ونومه عبادة، وتقلبه من جـنب إلى جنب جهاد في سبيل الله » .

لكن قال الحافظ ابن حجر : ليس بثابت .

قال وقـد جزم أبو الطيب ابن الصـباغ وجمـاعة من الشـافعيـة أن أنين المريض وتأوهه مكروه، وتعقبه الإمام النووي، وقال : هذا ضـعيف أو باطل، فإن المكروه ما ثبت فيه نهي مقصود .

وهذا لم يثبت فيه ذلك : ثم قال : فلعلهم أرادوا بالكرهة خلاف الأولى، فإنه لا شك أن اشتغاله بالذكر ، أولى . انتهى .

قال الحافظ ابن حجر : ولعلهم أخذوه بالمعنى من كون كثرة الشكوى، تدل على ضعف اليقين، ويشعر بالتسخط للقضاء ويورث شماتة الأعداء. انتهى .

الرابعة : جاء في الأحاديث : أن الحافظين يقيمان علـى قبر المؤمن، يسبحان الله تعالى ويهللانه ويكبرانه، ويكتب ثوابه للميت إلى يوم القيامة، وإنهما يلعنان الكافر .

ففي حـديث أبي بكر الصديق ﷺ مـرفوعاً « إذا قبض الـعبد المؤمن صـعد ملكاه إلى السماء، فقـال الله لهما وهو أعلم : ما جاء بكم؟ فـيقولان : رب قبضت عبـدك، فيقول لهما : ارجعا إلى قبره فسبِّحَانـي واحمداني وهللاني إلى يوم القيامة، فإني قد جعلت مثل أجر تسبـيحكما وتحميدكـما وتهليلكما له ثواباً مني، فإذا كـان العبد كافراً فمـات ، صعد ملكاه إلى السماء فيقـول الله لهما : ما جاء بكما؟ فيقولان: رب قـبضت عبدك وجئناك، فيقول لهما : ارجعا إلى قبره فـالعناه إلى يوم القيامة، فإنه كذّبني وجحدني، وإني جعلت لعنتكما عذاباً عليه إلى يوم القيامة .

الباب الرابع

فى ذكر بقية السمعيات

- سؤال الملكين منكر ونكير .
- تتمة عن بعض الناس من الموتى لاتنالهم فتنة القبور .
- ان عذاب القبر على النفس والبدن جميعا .
- تتمة (مسائل من أمر الروح) .
- فائدتان : (١) الميثاق من ظهر آدم عليه السلام .

  (٢) مستقر الأرواح مابين الموت إلى يوم القيامة .
- اشراط الساعة وعلاماتها

أقسامها الثلاثة

- العلامات العظمى:

١ - المهدى.	٢ - الدجال.
٣ - المسيح عليه السلام.	٤ - يأجوج ومأجوج.
٥ - هدم الكعبة.	٦ - الدخان.
٧ - رفع القرآن العظيم.	٨ - طلوع الشمس من مغربها.
٩ - دابة الأرض.	١٠- خروج النار.
١١- فى أمر المعاد	١٢- الجنة والنار
١٣- نفخة الفزع.	١٤- نفخة الصعق.
١٥- نفخة البعث والنشور.	١٦- الحساب.
١٧- أخذ الصحف.	١٨- الميزان.
١٩- الصراط.	٢٠- الشفاعة.

فى ذكر بقية السمعيات
من ذكر البرزخ والقبور، وأشراط الساعة
والحشر والنشور

اعلم أن المراد بالسمعيات، ماكان طريق العلم به السمع الوارد فى الكتاب أو السنّة والآثار، مما ليس للعقل فيه مجال، ويقابله مايثبت بالعقل، فإن وافقه النقل، فما كان طريق العلم به العقل يسمى العقليات والنظريات. ولهذا يُقال لعلماء هذا الشأن النظار.

منها :سؤال الملكين منكر ونكير،فالإيمان بذلك واجب شرعاً لثبوته عن النبى ﷺ فى عدة أخبار يبلغ مجموعها مبلغ التواتر، وقد استنبط ذلك واستدل عليه بقوله تعالى ﴿**يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ** ﴾[إبراهيم: ٢٧].

وأخرج الشيخان من حديث البراء بن عازب ؓ أن النبى ﷺ قال فى هذه الآية نزلت فى عذاب القبر، زاد مسلم « فيقال له من ربك فيقول الله ربى ونبى محمد ﷺ فذلك قوله ﴿ **يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ**﴾.

وفى رواية للبخارى « إذا أقعد المؤمن فى قبره أتى ثم شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فذلك قوله ﴿ **يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا** ﴾.

وفى الطبرانى عن البراء أيضاً مرفوعاً « يقال للكافر: من ربك ؟ فيقول لاأدرى. فهو تلك الساعة أصم أعمى أبكم فيضرب بمرزبة لو ضرب بها جبل لصار تراباً » الحديث.

وعند أبى داود « يأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان: من ربك؟ فيقول: ربى الله، فيقولان له: مادينك؟ فيقول : دينى الإسلام، فيقولان ماهذا الرجل الذى بعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله ﷺ . فيقولان له ومايدريك؟ فيقول: قرأت كتاب الله تعالى، فآمنت به وصدقت، فينادى مناد من السماء: إن صدق عبدى فافرشوا له من الجنة، وافتحوا له باباً إلى الجنة، وألبسوه من الجنة، وينفسح له فى قبره مد بصره» وقال فى الكافر «فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له. من ربك؟ فيقول : هاه هاه لاأدرى ـ إلى أن قال ـ فينادى مناد من السماء : إن كذب عبدى فافرشوا له من النار، وافتحوا له باباً إلى النار، قال : فيأتيه من حرها وسمومها، ويضيق عليه قبره، حتى تختلف فيه أضلاعه».

وروى أيضا من حديث جابر، ومن حديث أبى سعيد أخرجهما الإمام أحمد ومن

حديث أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه أخرجه أبو بكر الخلال فى كتاب السنة وفيه أنه ﷺ قال « كيف أنت ياعمر إذا كنت من الأرض فى أربعة أذرع فى ذراعين، ورأيت منكراً ونكيراً، قلت يارسول الله ومنكر ونكير؟ قال: فتانا القبر يبحثان الأرض بأنيابهما ويطآن فى أشعارهما، أصواتهما كالرعد العاصف، وأبصارهما كالبرق الخاطف، ومعها مرزبة لو اجتمع عليها أهل منى لم يطيقوا رفعها، هى أيسر عليهما من عصاى هذه قلت: يارسول الله، وأنا على حال هذه؟ قال: نعم. فقلت إذا أكفيكها» .

وفى رواية « فامتحناك، فإن التويت ضرباك بها ضربة صرت رماداً ».

وروى أيضاً من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ أخرجه الإمام أحمد وابن حبان فى صحيحه وفيه قال عمرو: أترد علينا عقولنا يارسول الله؟ فقال ﷺ « نعم كهيئتكم اليوم» فقال عمرو ﷺ: بفية الحجر .

وروى عن مجاهد : أن الموتى يفتنون فى قبورهم سبعاً، فكانوا يستحبون أن يطعم عنهم تلك الأيام.

تنبيهات

الأول : الملكان اسمهما منكر ونكير، نص عليه الإمام أحمد.

قال الحكيم الترمذى: وإنما سميا فتانى القبر لأن فى سؤالهما انتهاراً، وفى خلقهما صعوبة. قال : وسميا منكراً ونكيراً لأن خلقهما لايشبه الخلق الآدميين ولاخلق الملائكة. ولاخلق البهائم، ولاخلق الهوام، بل هما خلق بديع، وليس فى خلقهما أنس للناظرين إليهما، جعلهما الله تعالى تكرمة للمؤمن لتثبته وتبصره،وهتكا لستر المنافق فى البرزخ من قبل أن يبعث .

قال الجلال السيوطى : وهذا يدل على أن اسم منكر بفتح الكاف وهو المجزوم به فى القاموس.

الثانى: من لم يدفن من مصلوب ونحوه، يناله نصيبه من فتنة السؤال وضغطة القبر.

قال المحقق فى كتابه الروح: مما ينبغى أن يعلم أن عذاب القبر، هو عذاب البرزخ، فكل من مات وهو مستحق للعذاب ناله نصيبه منه قبراً ولم يقبر، فلو أكلته السباع أو أحرق، حتى صار رماداً أو نسف فى الهواء، أوصلب أو غرق فى البحر، وصل إلى روحه وبدنه من العذاب، مايصل المقبور.

الثالث : ذكر الحافظ جلال الدين السيوطى: أنه وقع فى فتاوى شيخه علم الدين البلقينى: أن الميت يجيب السؤال باللغة السريانية قال: ولم أقف لذلك على مستند. انتهى.

وقال فى التذكرة: إن قيل :كيف يخاطب الملكان جميع الموتى فى الأماكن المتابعدة فى الوقت الواحد؟

فالجواب : أن عظم خلقهما يقتضى ذلك، فيخاطبان الخلق لكثير من الجهة الواحدة فى المرة الواحدة، مخاطبة واحدة، بحيث يخيل لكل من المخاطبين أنه المخاطب دون من سواه، ويمنعه الله من سماع جواب بقية الموتى.

وقال السيوطى: ويحتمل تعدد الملائكة لذلك كما فى الحفظة ونحوهم، وقاله الحليمى من الشافعية، ولايخفى مافى هذا، وبالله التوفيق.

تتمة

ورد فى صحيح الأخبار أن بعض الناس من الموتى لاتنالهم فتنة القبور، ولايأتيهم الفتانان، وذلك على ثلاثة أنحاء مضاف إلى عمل ومضاف إلى حال ابتلاء، نزل بالميت، ومضاف إلى زمان كالشهداء، ومن لقى العدو،وصبر حتى يقتل أو يغلب والمرابطين فى سبيل الله. والمراد إن مات مرابطاً لم يفتن فى قبره، وروى أن سورة تبارك من قرأها كل ليلة عصم من فتنة القبر، ومن مات يوم الجمعة أوليلة الجمعة ، وقى فتنة القبر.

وأخرج أبو نعيم فى الحلية أن النبى ﷺ قال « من قرأ قل هو الله أحد فى مرضه الذى مات فيه لم يفتن فى قبره، وأمن ضغطة القبر، وحملته الملائكة يوم القيامة بأكفها حتى تجيزه الصراط إلى الجنة » وممن لايسئل الملائكة والأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

وأما الجن فالأدلة تعمهم فيسئلون لأنهم مكلفون فى الجملة كما نص عليه علماؤنا وغيرهم.

ومنها : أى الأمور التى يجب الإيمان بها وأنها حق لاترد عذاب القبر.

قال الحافظ الجلال السيوطى: قد ذكر الله تعالى عذاب القبر فى القرآن فى عدة أماكن كما بينه فى الإكليل فى أسرار التنزيل.

قال الحافظ ابن رجب فى كتابه أهوال القبول فى قوله تعالى ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ ـ إلى قوله ـ إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾ [الواقعة: ٨٣-٩٥].

عن عبد الرحمن بن أبى ليلى قال : تلا رسول الله ﷺ هذه الآيات قال « إذا كان

عند الموت قيل له هذا، فإن كان من اصحاب اليمين أحب لقاء الله، وأحب الله لقاءه، وإن كان من أصحاب الشمال كره لقاء الله وكره الله لقاءه ».

وأخرج الإمام أحمد أن النبى ﷺ قـال «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه » فأكب القوم يبكون « قال مايبكيكم ؟ قالوا: إنا نكره الموت. قال: ليس ذلك ولكنه إذا حضر، فـأما إن كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعـيم، فإذا بشر بذلك أحب لقاء الله والله للقـائه أحب، وأما إن كان من المكذبين فنزل من حمـيم وتصلية جحيم، فإذا بشر بذلك كره لقاء الله ، والله للقائه أكره » .

وقال الإمام المحقق فى كتابه الروح: قول السائل ماالحكمة فى أن عذاب القبر لم يذكر، يعنى صريحاً فى القرآن مع شدة الحاجة إلى معـرفته والإيمان به ليحذر ويتقى؟ فأجاب عن ذلك بوجهين مجمل ومفصل، **أما المجمل** فإن الله تعالى أنزل على رسوله ﷺ وحيين، فأوجب على عـباده الإيمان بهمـا، والعمل بما فيهـما ، وهما الكتاب والحكـمة. قال الله تعالى ﴿ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾[النساء: ١١٣] وقال ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾[الجمعة: ٢] وقال تعالى ﴿ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ﴾[الاحزاب: ٣٤].

والحكمـة هى السنة باتفـاق السلف، ومـاأخبـر به الرسول عن الله، فـهو فى وجـوب تصديقه والإيمان به، كما أخبر به الرب على لسان رسول الله ﷺ فهذا أصل متفق عليه بين أهل الإسلام لاينكره إلا من ليس منهم.

وقد قال ﷺ « إنى أوتـيت الكتاب ومثله معـه» قال: وأما الجواب المفـصل، فهو أن نعـيم الروح وعذابه به مـذكور فى القـرآن، فى مواضع منهـا قوله تعـالى :﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ ﴾[الأنعام: ٩٣]. وهذا خطاب لهم عند الموت قطعاً.

وقد أخبرت الملائـكة وهو الصادقون أنهم حينئذ يجزون عـذاب الهون، ولو تأخر عنهم ذلك إلى انقضاء الدنيـا، لما صح أن يقال لهم : اليوم تجزون عذاب الهـون، وقوله تعالى: ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا - إلى قوله - يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ﴾[غافر: ٤٥-٤٦] فذكر عذاب الدارين ذكراً صريحاً لايحتمل غيره.

ومنها: قـوله تعالى ﴿ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ * يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ [الطور: ٤٥-٤٦] انتهى.

وأخرج البخارى من حديث أبى هريرة ﷺ قال : كان رسول الله ﷺ «يدعو اللهم إنى أعوذ بك من عذاب القبر » .

وقال ابن مسعود ﷺ فى قوله عزوجل ﴿ فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ قال : المعيشة الضنك هى عذاب القبر.

وقال الحافظ ابن رجب : وقد تواترت الأحاديث فى عذاب القبر، ففى الصحيحين عن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها أنها قالت : سألت رسول الله ﷺ عن عذاب القبر، قال: نعم عذاب القبر حق .

وفى صحيح مسلم عن ابن عباس ﷺ، عن النبى ﷺ أنه كان يعلمهم هذا الدعاء كما يعلمهم السورة من القرآن « **اللهم إنى أعوذ بك من عذاب القبر، وأعوذ بك من عذاب جهنم، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات، وأعوذ بك فتنة المسيح الدجال**» .

وأخرج مسلم أيضاً وابن أبى شيبة، عن يزيد بن ثابت رضى الله عنه، بينما النبى ﷺ فى حائط لبنى النجار على بغلة له، ونحن معه إذ حادت به، فكادت أن تلقيه، وإذا أقبر ستة أو خمسة أو أربعة، فقال « من يعرف أصحاب هذه الأقبر؟ فقال رجل: أنا، فقال: متى مات هؤلاء؟ فقال: ماتوا فى الإشراك، فقال النبى ﷺ : إن هذه الأمة تبتلى فى قبورها، فلولا أن لاتدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر الذى أسمع منه، ثم أقبل علينا بوجهه فقال: تعوّذوا بالله من عذاب النار، فقالوا : نعود بالله من عذاب القبر، فقالوا: نعوذ بالله من عذاب القبر» الحديث.

الأمر الثالث: ماورد فى ضغطة القبر وظلمته، لكل أحد، أخرج الإمام أحمد فى المسند والحكيم الترمذى فى نوادر الأصول، والبيهقى فى كتاب عذاب القبر، عن حذيفة ﷺ قال: كنا مع رسول الله ﷺ فى جنازة، فلما انتهينا إلى القبر قعد على شفيره فجعل يردد بصره فيه ثم قال: « يضغط فيه المؤمن ضغطة تزول منه حمائله » .

قال فى النهاية : الحمائل هنا : عروق الأنثيين.

قال: ويحتمل أن يراد موضع حمائل السيف، أى عواتقه وصدره وأضلاعه.

وأخرج الإمام أحمد والبيهقى عن عائشة ﷺ عن النبى ﷺ قال: « إن للقبر ضغطة، لو كان أحد منها ناجياً نجا منها سعد بن معاذ » ﷺ.

وأخرج الإمام أحمد والحكيم الترمذى والطبرانى والبيهقى عن جابر بن عبد الله ﷺ قال : لما دفن سعد بن معاذ ﷺ سبّح النبى ﷺ وسبح الناس معه طويلا ثم كبّر وكبّر

الناس ثم قالوا: يارسول الله لم سبحت؟ قال: « لقـد تضايق على هذا الرجل الصالح قبره حتى فَرَّج الله عنه » .

وعن ابن عباس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ يوم دفن سعد بن مـعاذ وهو قاعد على قبره قال « لو نجا من ضمة القبر أحد ، لنجا منه سعد بن معاذ ولقد ضم ضمة ثم أرخى عنه».

وأخرج النسـائى والبيهقى عن عـبد الله بن عمر رضي الله عنه عن رسـول الله ﷺ قال «هذا الذى تحرك له العرش، وفتحت له أبواب السماء وشـهده سبعون ألفاً من الملائكة، لقد ضم ضمة ثم فرج عنه » يعنى : سعد بن معاذ.

قال الحسن البصرى : تحرك له العرش فرحاً بروحه.

قال أبو قـاسم السعدى : والفرق بـين المسلم والكافر فى ضمـة القبر دوامهـا للكافر، وحصـول هذه الحالة للمـؤمن فى أول نزوله إلى قبـره، ثم يعود الانفسـاح له فيـه. قال: والمراد بضغطة القبر: التقاء جانبيه على جسد الميت.

قال الحكيم الترمذى: بسبب هذه الضغطة، أنه مـامن أحد إلا وقد ألم بخطيئة ما، وإن كان صالحاً، فجعلت هذه الضغطة جزاء لها ثم تدركه الرحمة، ولذلك ضغط سعد بن معاذ رضي الله عنه.

قال: وأما الأنبيـاء، فلا نعلم أن لهم فى قبورهم ضمة، ولاسؤالاً لعـصمتهم، أى لأن السؤال عن الأنبياء وماجاءوا به، فكيف يسألون عن أنفسهم .؟

. وقد ذكر الإمام الحافظ ابن الجوزى فى مناقب الإمام أحمد رضي الله عنه، أنه رآه المروزى رحمه الله بعد موته، فى منامه، فقال له: مافعل الله بك؟ فذكر أن الملكين سألاه، وقالا له : من ربك؟ فقـال سبحان الله أو مـثلى يسأل عن ربه؟ فقـالا: لاتؤاخذنا بذا أمرنا ثم انصـرفا. فكيف بأنبيـاء الله وهم المخبرون عنه، الدالون عليه، المجتـهدون فى إنقاذ عبـاده من عقابه وغضبه، إلى مرضاته بإذنه.

قال محمد التميمى : **ضمة القبر إنما أصلها أن الأرض أمهم**، ومنها خلقوا فغابوا عنها الغيبة الطويلة، فلما ردوا إليها وهم أولادها ضمتهم ضمة الوالدة إذا غاب عنها ولدها، ثم قدم، فمن كان مطيعاً ضمته برأفة ورفق، و من كان عاصياً ضمته بعنف سخطاً لربها عليه.

وقد أخرج البيهقى وابن مندة والديلمى وابن النجار، عن عائشة رضي الله عنها قالت : يارسول الله، إنك منذ حدثتنى بصوت منكر ونكير وضغطة القبر ليس ينفعنى شئ، قال: «يا عائشة

إن أصوات منكر ونكير فى سماع المؤمنين كـالأثمد فى العين، وإن ضغطة القبر على المؤمن كالأم للشفيـقة، يشكو إليها ابنها الصداع، وتغـمز رأسه غمزاً رفيقـاً ، ولكن ياعائشة ويل للشاكين فى الله، كيف يضغطون فى قبورهم كضغطة الصخرة على البيضة».

فـوائـد

الأولى : ذكر الديلمـي فى الفردوس عن على رضى الله عنه رفـعه« **أول عدل الآخـرة القبور، فلا يعرف شريف من وضيع** » وقد قال ابن عباس رضى الله عنهما : « إن الله أرحم مايكون لعبده إذا دخل قبره»، وتفرق عنه الناس وأهله» .

وأخرج الديلمى عن أنس ﷺ، قال :قال رسول الله ﷺ « أرحم مايكون الله بالعبد إذا وضع فى حفرته»

وأخرج ابن أبى الـدنيا عن أبى عاصـم الحبطى يرفعـه « إن أول مايتـحف به المؤمن فى قبره، يقـال له: أبشر فقدغفـر لمن تبع جنازتك» وفى الباب أحاديث مخـرجة ،عن جابر، وسلمان، وأبى هريرة ﷺ .

الثانية: قال بعضم: من فعل سيئة، فإن عقوبتـها تدفع عنه بأحد عشر أسباب، أن يتوب فيتاب عليه، أويستغفر فيغفر له، أو يعمل حسنات فتمحوها فإن الحسنات يذهبن السيئات، أو يبـتلى فى الدنيـا بمصائب فـيكفـر عنه، أو فى البـرزخ بالضغطة والفـتنة، أويبـتلى فى عرصات القيامة بأهوال تكفر عنه، أو تدركه شفاعة نبيه ﷺ أو رحمة ربه تبارك وتعالى.

وتقدم فى التوبة طرف صالح من هذا ، وبالله التوفيق.

الثالثة: الأسباب الـتى يعذب بها أصحـاب القبور على قسـمين: مجمل ومـفصل، **أما المجمل** فإنهم يعذبون على جهلهم بالله، وإضاعتهم لأمره، وارتكابهم معاصيه، فلا يعذب الله روحاً عرفته وأحـبته وامتثلت أمره، واجتنبت نهيه، ولابدناً كـانت فيه أبداً، فإن عذاب القبر، بل وعذاب الآخرة أثر غضب الله وسـخطه على عبده، فمن أغضب الله وأسخطه، فى هذه الدار ، بارتكاب مناهيه، ولم يتب، ومات على ذلك، كان له من عذاب البرزخ، بقدر غضب الله وسخطه عليه، فمستقل ومستكثر ومصدق ومكذب.

وأمـا المفـصل فـقـد أخبـر رسـول الله ﷺ عن الرجلين اللذين رآهـما يعـذبان فى قبورهما: أن **أحدهما** كان يمشى بالنمـيمة بين الناس، **والآخر** كان لايستـتر من البول، والحديث فى الصحيحين وغيرهما.

قال المحقق فى الروح : فهذا ترك الطهـارة الواجبة، وذاك ارتكب السبب الموقع للعداوة بين الناس بلسانه، وإن كان صادقاً، وفـيه تنبيه على أن الموقع بينهم العداوة بالكذب والزور والبهتـان أعظم عذاباً، كما أن فى ترك الاستـبراء من البول تنبيـهاً على أن من ترك الصلاة التى الاستبراء من البـول بعض شروطها أشد عذاباً، وفى حديث شعبـة« أما أحدهما فكان يأكل لحوم الناس » فهذا مغتاب، وذاك نمام.

وفى صحـيح البخـارى فى تعذيب من يكذب الكذبة فـتبلغ الآفـاق، وفى حديث ابن مسعود فى الذى ضرب فى قبره سوطاً امتـلأ القبر عليه ناراً، لكونه صل صلاة واحدة بغير طهور، ومر على مظلوم فلم ينصره، وتعذيب من يقرأ القرآن ثم ينام عنه بالليل ولايعمل به فى النهـار، وتعذيـب الزناة والزوانى، وتعذيـب أكل الربا كمـا شـاهدهم النبى ﷺ فى البرزخ، وحديث أبى هريرية وفيه رضخ رءوس أقوام بالصخر لتثاقل رؤوسهم عن الصلاة، والذين يأكلون الزقوم والضريع لتركـهم الزكاة، والذين يأكلون اللحم النتن الخبيث لزناهم، والذين تقرض شفاههم بمقاريض من حديد لقيامهم فى الفتن بالكلام والخطب.

ومن الذين يعـذبون فى قـبورهم، وأخـبـر عنهم النبى ﷺ الجـبارون والمتكبـرون، والمراءون والهمـازون، واللمازون والطعانون على السلف، والذين يأتون الكهنة والمنجـمين والعرافين، فيسألونهم ويصدقونهم، وأعـوان الظلمة الذين باعوا آخرتهم بدنيا غيرهم ونحو هؤلاء، ممن يشـتغل بذنوب الناس عن ذنبـه، وبعيـوبهم عن عيـبه، فكل هؤلاء وأمثـالهم يعذبون فى قبورهم بهذه الجرائم بحسب كثرتها وقلتها وصغرها وكبرها.

ولما كان أكـثر الناس كذلك كـان أكثر اصـحاب القبـور معذبين ، والفـائز منهم قليل، فظواهر القبـور تراب، وبواطنها حسـرات، وعذاب. فنسأل الله تعـالى العافية والرحـمة، والعفو والغفران.

الرابعة : الأسباب المنجية من عذاب القبر على قسمين أيضاً مجمل ومفصل. **أما المجمل** فهو بحسب ترك تلك الأسباب التى تقتضى العذاب ومن أنفعها أن يجلس عندما يريد النوم لله ساعة يحاسب نفسـه فيها على ماخسره وربحه فى يومـه، ثم يحدد له توبة نصوحاً بينه وبين الله، فينام على تـلك التوبة، ويعزم على أن لايعـود إلى الذنب إذا استقـيظ، ويفعل هذا كل ليلة. فإن مـات من ليلته مات على توبة، وإن اسـتقيظ اسـتيقظ مـستقبـلاً للعمل مسروراً بتـأخير الأجل، وليس للعبـد أنفع من هذه التوبة، ولاسيمـا إذا أعقب ذلك بذكر الله، واستعمال السنن التى وردت عن رسول الله ﷺ عند النوم، حتى يغلبه النوم، فمن

أراد الله به خيراً وفقه لذلك، ولاحول ولاقوة إلا بالله.

وأما المفصل فمنها مارواه مسلم فى صحيحه من حديث سلمان الفارسى ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول « رباط فى سبيل الله خير من صيام شهر وقيامه، وإن مات أجرى عليه عمله، الذى كان بعمله وأجرى عليه رزقه وأمن الفتان » .

وفى سنن الترمذى من حديث فضالة بن عبيد ﷺ، عن رسول الله ﷺ قال: « كل ميت يختم على عمله إلا الذى مات مرابطاً فى سبيل الله، فإنه يجرى عليه عمله إلى يوم القيامة، ويأمن من فتنة القبر» قال الترمذى حديث حسن صحيح.

وتقدم ذكر الشهداء، والذى يقرأ تبارك الملك، فعن ابن عباس ﷺ قال: ضرب رجل اصحاب رسول الله ﷺ خباءه على قبر وهو لايحسب أنه قبر، فإذا قبر إنسان يقرأ سورة الملك حتى ختمها، فأتى النبى ﷺ فقال: يارسول الله ضربت خبائى على قبر، وأنا لاأحسب أنه قبر، فإذا قبر إنسان يقرأ سورة الملك حتى ختمها، فقال رسول الله ﷺ «هى المانعة، هى المنجية تنجيه من عذاب القبر » قال الترمذى: حديث حسن غريب .

قال المحقق فى كتابه الروح: روينا فى مسند عبد بن حميد، عن ابراهيم ابن الحكم، عن أبيه عن عكرمة عن ابن عباس ﷺ أنه قال لرجل : ألا أتحفك بحديث تفرح به؟ قال الرجل :بلى ! قال : اقرأ ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ ﴾ احفظها وعلمها أهلك، وولدك وصبيان بيتك وجيرانك، فإنها المنجية، والمجادلة تجادل أو تخاصم يوم القيامة عند ربها لقارئها، وتطلب له إلى ربها أن ينجيه من عذاب القبر قال رسول الله ﷺ « لوددت أنها فى قلب كل إنسان من أمتى » .

قال أبو عمر ابن عبد البر: وصح عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن سورة ثلاثين آية شفعت فى صاحبها حتى غفر له ـ تبارك الذى بيده الملك » .

تنبيه

الحق عند أهل السنة أن عذاب القبر على النفس والبدن جميعاً.

فصل

فى ذكر الروح والكلام عليها، وقد أشار إلى قطرة من بحر لجى من متعلقاتها فقال:

وإنَّ أرواح الورَى لم تُعدم   مع كونها مخلوقة فاستفهم

(و) مما ينبغى العلم به (إن أرواح) بنى آدم جمع روح، وقد اختلف فى حقيقتها، وهل

هى النفس أو غيرها؟ وهل هى جزء من البدن، أو عرض من أعراضه، أو جسم مساكن له مودع فيه، أو جوهر يجرى.

وقد تكلم الناس فى هذه المسائل من سائر الطوائف، اضطربت فيها أقوالهم وكثر خطؤهم، ومن الناس من أمسك عن الكلام والخوض فيها، لقوله تعالى﴿ **وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي** ﴾ [الإسراء: ٨٥]. وهدى الله أتباع الرسول وسلف الأمة، وأهل السنة، لما اختلف فيه من الحق بإذنه، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم.

قال الإمام ابن القيم ـ بعدما ساق أقوال الناس فى حقيقة الروح على اختلاف مذاهبهم، وتباين آرائهم، وذكر عدة مذاهب وزيفها، ثم قال : والصحيح إن الروح جسم مخالف بالماهية لهذا الجسم المحسوس، وهو جسم نورانى علوى، خفيف حى متحرك، ينفذ فى جوهر الأعضاء، ويسرى فيها سريان الماء فى الورد ، وسريان الدهن فى الزيتون، والنار فى الفحم، فما دامت هذه الأعضاء صالحة لقبول الآثار الفائضة عليها من هذا الجسم اللطيف، بقى هذا الجسم اللطيف متشابكاً بهذه الأعضاء، فأفادها هذه الآثار من الحسن والحركة والإرادة. وإذا أفسدت هذه الأعضاء بسبب استيلاء الأخلاط الغليظة عليها، وخرجت عن قبول تلك الآثار، فارق الروح البدن، و انفصل إلى عالم الأرواح.

قال: وهذا القول هو الصواب فى المسألة، وهو الذى لايصح غيره،ودل عليه الكتاب والسنة، وإجماع الصحابة وأدلة العقل والفطرة، وذكر له مائة دليل وخمسة عشر دليلاً، وأجاد وأفاد، وزيف كلام ابن سيناء وابن حزم أمثالهما.

فائدة

ذكر بعض المتكلمين : أن محل الروح القلب، واستدل له بحديث ابن عساكر، أن النبىﷺ قال « أما النفس ففى القلب، والقلب بالنياط، والنياط يسقى العروق، فإذا هلك القلب انقطع العرق » وهذا الحديث مرسل .

وأما إختلاف الناس فى الروح هل النفس أو غيرها، فمن الناس من قال: إنهما اسمان لمسمى واحد،وهذا قول الجمهور، وقيل : بل هما متغايران.

قال المحقق بعد كلامه: وقالت فرقة من أهل الحديث والفقه، والتصوف الروح :غير النفس.

قال مقاتل بن سليمان: **للإنسان حياة وروح ونفس،** فمتى نام خرجت نفسه التى يعقل بها الأشياء، ولم تفارق الجسد، بل تخرج كحبل ممتد له شعاع فيرى الرؤيا بالنفس التى

خرجت منه، وتبقى الحياة والروح فى الجسد فيه يتقلب ويتنفس، فإذا حرك رجعت إليه أسرع من طرفة عين، فإذا أراد الله تعالى أن يميته فى المنام أمسك تلك النفس التى خرجت.

وقال أيضاً: إذا نام خرجت نفسه فصعدت إلى فوق، فإذا رأت الرؤيا رجعت فأخبرت الروح، وتخبر الروح القلب فيصبح ويعلم أنه قد رأى كيت وكيت.

وقوله (الورى) محله جر بالإضافة إلى الأرواح، أى أرواح الورى، كفتى الخلق، والمراد بنو آدم، ومشلهم الجن فيما يظهر، لأن التكليف والمعاد والحساب، يشملهم (لم تعدم) بموت الأبدان التى كانت فيها ولاتموت هى ولاتفنى، وزعمت طائفة أنها تموت لأنها نفس وكل نفس ذائقة الموت، قالوا: ودلت الأدلة على أنه لايبقى إلا الله وحده، كما قال تعالى ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾[الرحمن: ٢٦-٢٧] وقال تعالى ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ [القصص: ٨٨].

قالوا: وإذا كانت الملائكة تموت، فالنفوس البشرية أولى والدليل على عدمها عدم قدمها (مع كونها) أى الأرواح (مخلوقة) لله ومحدثة ومربوبة أوجدها بعد إن لم تكن (فاستفهم) أى اطلب علم ذلك من مظانه، يقال: فهم كفرح فهما ويحرك، وهى أفصح، وفهامة وفهامية: علم الشئ وعرفه بالقلب، وهو فهم، ككتف سريع الفهم، واستفهمنى طلب منى، فهم المطلوب فأفهمته وفهمته، فالفهم قوة من شأنها أن تعد النفس لاكتساب الآراء، والذكاء جودة تلك القوة والذهن. قيل : يرادف الفهم، وقيل :الذهن، هو نفس القوة والفهم استعمالها، وإنما حث على طلب الفهم فى ذلك، وإمعان التدقيق، لإدراك تلك المدارك لاختلاف مقالات الناس فى هذا المقام، ولأنه مزلة إقدام، وحاصل ذلك أنه ذكرمسألتين عظيمتين، **الأولى** أن الروح محدثة، **والثانية**: أن العدم لايدركها والفناء لايلحقها، ولنذكر أدلة كل مسألة وحكمها ومافيها من الخطأ والصواب، ولنقدم ماأخره فى النظم، نظراً للواقع.

اعلم رحمك الله أن هذه المسألة زل فيها عالم وطوائف من بنى آدم، وهدى الله أتباع رسله فيها للحق المبين والصواب المستبين، **فاجتمعت الرسل عليهم الصلاة والسلام على أن روح الإنسان محدثة، مخلوقة مصنوعة مربوبة مدبرة، وهذا معلوم بالاضطرار من دين الرسل صلوات الله وسلامه عليهم. كما يعلم بالاضطرار من دينهم، أن العالم حادث وأن معاد الأبدان واقع، وأن الله تعالى وحده الخالق وكل ماسواه مخلوق له.**

وقد انطوى عصر الصحابة والتابعين وتابعيهم ، وهم القرون المفضلة على ذلك من غير

اختلاف بينهم فى حدوثها، وأنها مخلوقة حتى نبغت نابغة ممن قصر فهمه فى الكتاب والسنة، فزعم أنها قديمة غير مخلوقة، واحتج لذلك أنها من أمر الله، وأمر الله غير مخلوق، وبأن الله أضافها إليه، كما أضاف إليه علمه وكتابه وقدرته وسمعه وبصره ويده، وتوقف آخرون، . فقالوا: لانقول مخلوقة ولاغير مخلوقة. . . .

وقد أخبر نبينا ﷺ أنه مامن مسلم يسلم عليه إلا رد الله عليه روحه حتى يرد عليه السلام إلى غير ذلك مما يحصل من جملته القطع بأن موت الأنبياء إنما هو راجع إلى أنهم غيبوا عنا بحيث لاندركهم وإن كانوا موجودين أحياء، وذلك كالحال فى الملائكة فإنهم أحياء موجودون ولانراهم، وإذا تقرر أنهم أحياد فإذا نفخ فى الصور نفخة الصعق صعق من فى السموات والأرض إلا من شاء الله، فإذا صعق غير الأنبياء موت، وأما صعق الأنبياء فالأظهر أنه غشية، فإذا نفخ فى الصور نفخة البعث فمن مات حيى ومن غشى عليه أفاق، ولذلك قال ﷺ فى الحديث المتفق على صحته « فأكون أول من يفيق» فنبينا ﷺ أول من يخرج من قبره قبل جميع الناس، إلا موسى فإنه حصل فيه تردد هل بعث قبله من غشيته، أو بقى على الحالة التى كان عليها قبل نفخة الصعق مفيقاً؟ لأنه حوسب بصعقة يوم الطور، وهذه فضيلة عظيمة لموسى عليه السلام ولايلزم من فضيلة واحدة، فضيلة موسى عليه السلام على نبينا مطلقاً لأن الشئ الجزئى لايوجب أمراً كلياً. انتهى.

قال المحقق: فعلم أنها صعقة موت، وحينئذ فلا تدل الآية على أن الأرواح تموت عند النفخة الأولى، وكل من لم يذق الموت قبلها، فإنه يذوقه حينئذ. وأما من ذاق الموت أولم يكتب عليه الموت، فلا تدل الآية على أنه يموت موتة ثانية. والله أعلم.

تتمة

فى مسائل مما نحن بصدده من أمر الروح

الأولى : اختلف فى خلق الأرواح. هل كان قبل الأجساد أو تأخر عنها؟ للناس فيها قولان، حكاها شيخ الإسلام وتلميذه المحقق.

وممن ذهب إلى تقدم خلق الأرواح على الأجساد محمد بن نصر المروزى، وأبو محمد بن حزم، واحتج من قال ذلك. بحجج. وقال آخرون: بل حلقت الأجساد قبل الأرواح، واحتجوا بحجج وذكرها.

ثم قال: والحاصل أن الذى ذهب إليه ابن القيم تبعاً لشيخه وجموع أن خلق الأجساد مقدم على خلق الأرواح، والله أعلم.

فـائـدتـان

الأولى: روى الإمام أحمد من حديث ابن عباس ﷺ عن النبى ﷺ أنه قال: « **أخذ الله عزوجل الميثاق من ظهر آدم - يعنى عرقه - فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها فنشرهم بين يديه كالذر ثم كلمهم قبلاً قال: الست بربكم. قالوا: بلى شهدنا**».

قال الحافظ ابن الجوزى فى كتابه « مثير الغرام» : **هذا الحديث يدل على أن ذلك المكان أول وطن، والنفس أبداً تنازع إلى الوطن الأول.**

الثانـية: قال أيضـاً فى الكتاب المذكور أن الله عـزوجل لما أخذ الميـثاق كتب كـتاباً على الذرية، فألقمه هذا الحجر - يعنى الحجر الأسود - فهو يشهد للمؤمن بالوفاء، وعلى الكافر بالجحود . قال العلماء: ولهذه العلة يقول لامسه إيماناً بك ووفاء بعهدك. أ هـ .

المسألة الثـانية: من مسـائل متعلقات الروح، أيـن مستقـر الأرواح مابين الموت إلى يوم القيامة، هل فى السماء أو فى الأرض؟ وهل هى فى الجنة أو النار أم لا؟

فهذه من المسائل الـعظام، وهى إنما تتلقى من السمع فقط، ومع ذلك فقد اختـلفت فيها أقوال العلماء، وتباينت فى محالها آراء الفضلاء.

ثم ذكر المصنف رحمـه الله تعالى ماقيل فى ذلك، ثم قال: قال الإمـام المحقق فإن قيل قد ذكرتم أقـوال الناس فى مستقـر الأرواح ومأخذهم، فمـا هو الراجح من هذه الأقوال، حتى يعتقد؟

أجاب رحمه الله تعالى: بأن الأرواح متفاوتة فى مستقرها، فى البرزخ أعظم تفاوت.

فمنـها: أرواح فى عليـين فى الملأ الأعلى، وهى أرواح الأنبيـاء صلوات الله وسـلامه عليهم، وهم متفاوتون فى منازلهم، كما رآهم النبى ﷺ ليلة الإسراء.

ومنها: أرواح فى حواصل طير خضر تسرح فى الجنة، حيث شاءت، وهى أرواح بعض الشهداء لا جميعهم، بل من الشهداء من تحبس روحه عن دخول الجنة لدين عليه أو غيره. كما فى مسند الإمام أحمد عن محمد بن عبد الله بن جحش أن رجلاً جاء إلى النبى ﷺ فقال يارسول الله، مالى إن قتلت فى سـبيل الله؟ قال : الجنة، فلما ولى قال: « إلاّ الدّين سارّنى به جبريل آنفا ».

ومنهم: من يكون محـبوسـاً على باب الجنة. كما فى حـديث آخر « رأيت صـاحبكم محبوساً على باب الجنة».

ومنهم: من يكون محبوساً فى قبره لحديث صاحب الشملة التى غلبها ثم استشهد فقال الناس: هنيئاً له الجنة، فقال النبى ﷺ « والذى نفسى بيده إن الشملة التى غلبها لتشتعل عليه ناراً فى قبره ».

ومنهم : من يكون مقره باب الجنة، كما فى حديث ابن عباس رضى الله تعالى عنهما « الشهداء على بارق نهر بباب الجنة فى قبة خضراء، يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشية » رواه الإمام أحمد، وهذا بخلاف جعفر بن أبى طالب رضي الله عنه حيث أبدله الله من يديه بجناحين يطير بهما فى الجنة حيث شاء.

ومنهم: من يكون محبوساً فى الأرض لم تَعْلُ روحه إلى الملأ الأعلى، فإنها كانت روحاً سفلية أرضية، فإن الأنفس الأرضية لاتجامع السماوية، كما لاتجامعها فى الدنيا، والنفس التى لم تكتب فى الدنيا معرفة ربها لاتكون بعد المفارقة لبدنها إلا هناك، كما أن النفس العلوية التى كانت فى الدنيا عاكفة على محبة الله تعالى وذكره، والتقرب إليه والأنس به، تكون بعد المفارقة مع الأرواح العلوية المناسبة لها، فالمرء مع من أحب فى البرزخ، ويوم المعاد. كما فى حديث « ويجعل روحه - يعنى المؤمن - مع النسيم الطيب» أى الأرواح الطيبة المشاكلة لروحه فالروح بعد المفارقة تلحق بأشكالها وأخدانها وأصحاب عملها.

ومنها: أرواح تكون فى تنور الزناة والزوانى، وأرواح فى نهر الدم وتلقم الحجارة، فليس للأرواح شقيها وسعيدها مستقر واحد، بل روح فى أعلى عليين، وروح أرضية سفلية لاتصعد من الارض.

ومن تأمل السنن والآثار عرف صحة ذلك، لكن الشأن فى فهمها ومعرفة النفس وأحكامها، وأن لها شأناً غيرشأن البدن، وأنها فى كونها فى الجنة فهى فى السماء، وتتصل بفناء القبر وبالبدن فيه، وهى أسرع شئ حركة وانتقالاً، وصعوداً وهبوطاً، وتنقسم إلى مرسلة ومحبوسة، وعلوية وسفلية، ولها بعد المفارقة صحة ومرض، ولذة ونعيم، وألم وعذاب، أعظم مما كان لها حال اتصالها بالبدن بكثير، فهنالك الحبس والألم، والعذاب والمرض، والحسرة. وهناك اللذة والنعيم والإطلاق.

ثم قال: ومأأشبه حالها بهذا البدن، بحال البدن فى بطن أمه، وحالها بعد المفارقة بحاله بعد خروجه من البطن إلى هذه الدار، فلهذه الأنفس أربع دور، كل دار أعظم من التى قبلها.

الدار الأولى: بطن أمه، وذلك الحصر والضيق والغم والظلمات الثلاث.

الدار الثانية: هذه الدار التى نشأت فيها وألفتها، واكتسبت الخير والشر وأسباب السعادة والشقاوة فيها.

الدار الثالثة: دار البرزخ، وهى أوسع من هذه الدار وأعظم، بل نسبتها إليها كنسبة هذه الدار إلى الأولى.

الدار الرابعة: دار القرار، وهى الجنة أو النار، فلا دار بعدها، والله تعالى ينقل الروح فى هذه الدار طبقاً بعد طبق، حتى يبلغها الدار التى لايصلح لها غيرها، ولايليق بها سواها، وهى التى خلقت لها وهيئت للعمل الموصل إليها، ولها فى دارمن هذه الدور شأن غير شأن الدار الأخرى، فتبارك الله فاطرها ومنشئها ومميتها ومحييها، ومسعدها ومشقيها. وبالله التوفيق.

المسألة الثالثة : هل تتلاقى أرواح الموتى وتتزاور وتتذاكر، وتتلاقى أرواح الأحياء والأموات أيضا؟ وهذا يعلم مما مرَّ من حيث الجملة، لأن الأرواح قسمان: معذبة، ومنعمة. فالمعذبة: فى شغل شاغل لها بما هى فيه من العذاب عن التزاور والتلاقى، وأما الأرواح المنعمة المرسلة غير المحبوسة، فهذه تتلاقى وتتزاور وتتذاكر ماكان منها فى الدنيا مايكون من أهل الدنيا، فتكون كل روح مع رفيقها الذى على مثل عملها، وروح نبينا ﷺ فى الرفيق الاعلى، قال تعالى ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴾[النساء: ٦٩].

قال المحقق: وهذه المعيَّة ثابتة فى الدنيا وفى دار البرزخ وفى دار الجزاء، **والمرء مع من أحب فى هذه الدور الثلاث.** وقد تواترت المرائى بتلاقى الأرواح بعضها مع بعض.

قال الإمام عبد الله بن المبارك: رأيت سفيان الثورى فى المنام، فقلت: مافعل الله بك؟ قال: لقيت محمداً ﷺ وحزبه.

وقد جاءت سنة صحيحة بتلاقى الأرواح وتعارفها، فروى ابن أبى الدنيا قال: لما مات بشر بن البراء ابن معرور، وَجدت عليه أم بشر وجداً شديداً.

فقالت: يارسول الله، إنه لايزال الهالك يهلك من بنى سلمة، فهل يتعارف الموتى؟ فأرسل إلى بشر السلام، فقال رسول الله ﷺ « نعم والذى نفسى بيده يا أم بشر، إنهم ليتعارفون كما تتعارف الطير فى رؤوس الشجر» فكان لايهلك هالك من بنى سلمة إلا جاءته أم بشر، فقالت: يافلان عليك السلام: فيقول: وعليك. فيقول: اقرأ على بشر السلام.

وعن عبيد بن عمير قال: **أهل القبور يتوكفون الأخبار، فإذا أتاهم الميت قالوا: مافعل فلان؟ فيقول: صالح، مافعل فلان؟ فيقول: ألم يأتكم ؟ أما قدم عليكم؟ فيقولون: لا، فيقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، سلك به غير سبيلنا.**

وقال عبيد بن عمير أيضاً: إذا مات الميت تلقته الأرواح يستخبرونه كما يستخبر الراكب، مافعل فلان؟ مافعل فلان؟ فإذا قيل توفى ولم يأتهم، قالوا: ذهب به إلى أمه الهاوية.

وقال سعيد بن المسيب: إذا مات الرجل استقبله ولده كما يستقبل الغائب.

وعن أبى أيوب الأنصارى رضى الله تعالى عنه: أن رسول الله ﷺ قال« إن نفس المؤمن إذا قبضت تلقاها أهل الرحمة من عند الله، كما يتلقى البشير فى الدنيا، فيقال: انظروا أخاكم حتى يستريح، فإنه كان فى كرب شديد، فيسألونه: ماذا فعل فلان؟ وماذا فعلت فلانة؟ وهل تزوجت فلانة؟ فإذا سألوه عن رجل قد مات قبله، قال: إنه قد مات قبلى، وقالوا: إنا لله وإنا إليه راجعون، ذهب إلى أمه الهاوية، فبئست الأم وبئست المربية». رواه ابن أبى الدنيا والطبرانى فى الأوسط. وقال «إن أعمالكم ترد على أقاربكم وعشائركم من أهل الآخرة، فإن كان خيراً فرحوا واستبشروا، وقالوا: اللهم هذا فضلك ورحمتك، فأتم نعمتك عليه وأمته عليها، ويعرض عليهم عمل المسئ فيقولون : اللهم ألهمه عملاً صالحاً ترض به وتقربه إليك ».

وأخرج الإمام أحمد والحكيم الترمذى فى نوادر الأصول عن عبد الله ابن عمر رضى الله تعالى عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ « إن روحى المؤمنين لتلتقيان على مسيرة يوم، ومارأى أحدهما صاحبه قط » .

وذكر الحافظ ابن منده بسنده عن ابن عمر رضي الله عنه، قال: لقى عمر بن الخطاب على بن أبى طالب رضي الله عنه، فقال له: ياأبا الحسن ربما شهدت وغبنا، وربما شهدنا وغبت، ثلاثاً أسألك عنهن، فهل عندك منهن علم؟ فقال على: وماهن؟ قال: الرجل يحب الرجل ولم ير منه خيراً، والرجل يبغض الرجل ولم ير منه شراً، فقال على نعم، سمعت رسول الله ﷺ يقول « الأرواح جنود مجندة، تلتقى فى الهواء فتشام فما تعارف منها أئتلف، وماتناكر منها أختلف» فقال عمر «واحدة» قال عمر: والرجل يحدث الحديث إذ نسيه فبينما هو قد نسيه إذ ذكره؟ فقال : نعم، سمعت رسول الله ﷺ يقول « مافى القلوب قلب إلا وله سحابة كسحابة القمر، بينا القمر يضئ إذ تخللته سحابة فأظلم إذ انجلت فأضاء، وبينا القلب يتحدث إذ تخللته سحابة فنسى إذ انجلت عنه فيذكر، قال عمر: اثنان ، قال

والرجل يرى الرؤيا، فمنها مايصدق، ومنها مـا يكذب، فقال: نعم، سمعت رسول الله ﷺ يقول « مامن عبد ينام يمتلئ نوماً إلا عرج بروحه الى العرش فالذى لايستيقظ دون العرش فتلك الرؤيا التى تصدق، والذى يستيقظ دون العرش فهى التى تكذب » فقال عمر رضى الله تعالى عنه: ثلاث كنت فى طلبهن، فالحمد لله الذى أصبتهن قبل الموت.

فكلُّ ماعن سيد الخلق ورَدْ　　　من أمر هذا الباب لايُرَدْ

(فكلما) أى شئ أو الذى (عن سيد الخلق) ورسول الله ﷺ الحق نبينا محمد رسول الله ﷺ .

قال فى المطلع: **السيد** الذى يفوق فى الخير قومه.

وقيل: التقى وقيل: **الحليم**. وقيل: الذى لايغلبه غضبه، وجميع ذلك فى نبينا ﷺ .

وقال فى القاموس: سـيد القوم أجلهم، وهو ﷺ أجل خلق الله، وأعظم خلق الله، وأكرم خلق الله، وأكـمل خلق الله ﷺ (ورد) بالأسانيد المقـبولة ودونه أهل العلم فى الكتب المنقولة المشهورة (من أمر) أى من أمور (هذا الباب) الذى مناطه السمع من الكتاب والسنة وإجماع السلف، فكل ذلك (حق) يجب اعتقاده والإيمان به لأن صحت به النقول، ولم ترده العقول، وإن عجزت العقول عن إدراكه، فإن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام تأتى بمحارات العقول، لابمحلاتها، والفرق بينهما بين لايخفى على ذى تبصر.

(لايرد) من ذلك شئ لثبوته عن المعصـوم ﷺ فمن تصدى لرد شئ من هذا الباب، فقد أخطأ الـصواب، وضل وخاب، **فإن الرسل صلوات الله وسـلامه عليـهم، جعلهم الله وسائط بينه، وبين عباده فى تعريفهمماينفعهم، ومايضرهم، وتكميل مايصلحهم فى معاشهم ومعادهم، وبعثوا جميعهم بالدعوة إلى الله، وتعريف الطريق الموصل إليه، وبيان حالهم بعد الوصول إليه.**

فـالأصل الأول: إثبات التـوحـيد والصـفـات والقدر، وذكـر أيام الله، فى أوليائه وأعدائه، وهى القصص التى قصها الله تعالى على عباده، والأمثال التى ضربها لهم.

والأصل الثانى: يتضمن **تفصـيل الشرائع والأمـر والنهى والإباحة،** وبيان مايـحبه ومايكرهه.

والأصل الثالث: يتضمن الإيمان باليوم الآخر،والجنة والنار والثواب، والعقاب.

قال شيخ الإسـلام فى قاعدة له فى وجوب الاعتـصام بالرسالة: **على هذه الأحوال**

الثلاثة، مدار الخلق الأمر والسعادة والفلاح، موقوفة عليها، ولاسبيل إلى معرفتها إلا من جهة الرسل، فإن العقل لايهتدى إلى تفاصيلها ومعرفة حقائقها، وإن كان يدرك وجه الضرورة إليها، من حيث الجملة، كالمريض الذى يدرك وجه الحاجة إلى الطلب، ومن يداويه ولايهتدى إلى تفاصيل المرض، وتنزيل الدواء عليه، وحاجة العبد إلى الرسالة أعظم بكثير، من حاجة المريض إلى الطبيب، فإن آخر مايعذب بعدم الطبيب موت الأبدان.

وأما إذا لم يحصل للعبد نور الرسالة وحياتها مات قلبه موتاً لاترجى الحياة معه أبداً، وشقى شقاوة لاسعادة معها أبداً،فلا فلاح إلا باتباع الرسول ﷺ والإيمان بما جاء به ﷺ ومن جملة ماورد عن سيد الخلق نبينا محمد ﷺ ، وأنه حق لايرد أشراط الساعة وعلاماتها، ولهذا قال:

فصل

فى أشراط الساعة وعلاماتها الدالة على اقترابها ومجيئها

قال الله تعالى﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ﴾ وقال﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا ﴾[محمد:١٨] أى أماراتها وعلاماتها واحدها شرط.

قال الإمام البغوى: وكان نبينا ﷺ من اشراط الساعة والآيات فى ذلك كثيرة، وأما الأحاديث فلا تكاد تحصى فإن قيل: كيف يوصف بالاقتراب ماقد مضى قبل وقوعه ألف ومائة ونيف وسبعون عاماً ؟

فالجواب: أن الأجل إذا مضى أكثره، وبقى أقله، حَسُن أن يقال فيه: اقترب الأجل، ولاريب أن أجل الدنيا قد مضى أكثره، وبقى أقله،ولقرب قيام الساعة عنده تعالى جعلها كغد الذى بعد يومك فقال ﴿ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾ وروى الترمذى وصححه من حديث أنس مرفوعاً « بعثت أنا والساعة كهاتين » وأشار بالسبابة والوسطى،فأفضل إحداهما على الأخرى.

وفى الصحيحين من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه قال: رأيت النبى ﷺ قال باصبعه هكذا بالوسطى، والتى تلى الإبهام، وقال « بعثت والساعة كهاتين » .

وفى الصحيحين عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما مرفوعاً « إنما اجلهكم فيمن مضى قبلكم من الأمم من صلاة العصر إلى مغرب الشمس، ولما كان أمر الساعة شديداً كان الاهتمام بشأنها أكثر من غيرها، ولهذا أكثر النبى ﷺ من بيان أشراطها وأماراتها، وأخبر عن مابين يديها من الفتن البعيدة والقريبة، ونبّه أمته وحذرهم ليتأهبوا لتلك العقبة الشديدة.

ثم أعلم أن وقت مجيئ الساعة مما انفرد الله بعلمه، وإنما أخفاه لأنه أصلح للعباد لئلا يتباطؤا عن التأهب والاستعداد، كما أن إخفاء وقت الموت أصلح لهم وأنفع، وقد انتدب جماعة من العلماء على تعيين قربها ومجيئها، واستدلوا بأحاديث غير صحيحة، وماصح منها فدلالتها غير صريحة.

وذكر الحافظ جلال الدين السيوطى ذلك فى جزء له سماه « الكشف » وذكرهو تقريباً: أنها تقوم على رأس خمسمائة بعد الألف أو أزيد.

قال الشيخ العلامة مرعى فى « بهجة الناظرين » وهذا أيضاً لايقوم عليه برهان.

ثم اعلم أن أشراط الساعة وأماراتها تنقسم إلى ثلاثة أقسام.

قسم ظهر وانقضى وهى الأمارات البعيدة.

وقسم ظهر ولم ينقضى، بل لايزال فى ازدياد حتى إذا بلغ الغاية ظهر.

والقسم الثالث : وهى الأمارات القريبة الكبيرة التى تعقبها الساعة، فإنها تتابع كنظام خرزات انقطع سلكها.

فالأولى التى ظهرت ومضت :

منها : بعثة النبى ﷺ وموته، وفتح بيت المقدس. وقتل أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه .

ومنها: وقعة الجمل وصفين. فقد صح عن النبى ﷺ أنه قال « لاتقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان يكون بينهما مقتلة عظيمة دعواهما واحدة .

ومنها: واقعة النهروان: أى الخوارج. وفى الخوارج أحاديث كثيرة جداً فى الصحيحين وغيرهما.

ومنها : نزول أمير المؤمنين وخاتمة الخلفاء الراشدين، سبط رسول رب العالمين سيدنا الإمام أبى محمد الحسن بن على، وأخى الحسين رضى الله تعالى عنهم أجمعين، وقد قال النبى ﷺ « إن ابني هذا سيد وسيصلح بين فئتين عظيمتين من المسلمين ».

ومنها: ملك بنى أمية وماجرى على أهل البيت فى أيامهم من الأذية، كقتل الحسين بعد ماسم الحسن، ووقعة الحرة وماجرى فيها من المحن، وقتل ابن الزبير ورمى الكعبة بالمنجنيق، وماجرى فى ذلك مما لايحسن ولايليق.

ومنها: ملك بنى العباس، وماجرى فى أيامهم من المحن والبأس.

ومنها: نار الحجاز التى أضاءت منها أعناق الإبل ببصرى.

ومنها:(*) ظهور الرفض واستبداد الرافضة بالملك وإظهار الطعن، واللعن على السلف الصالح من الصحابة الكرام رضوان الله عليهم. وقد أخرج الإمام أحمد وأبو يعلى والطبرانى عن ابن عباس ﷺ مرفوعاً « يكون فى آخر الزمان قوم يسمون الرافضة، يرفضون الإسلام، فإذا رأيتموهم فاقتلوهم فإنهم مشركون» وبلفظ الطبرانى بإسناد حسن عنه، كنت عند النبى ﷺ وعنده علـى، فقال النبى ﷺ « سيكون من أمتى قوم ينتحلون حب أهل البيت لهم نبز يسمون الرافضة فاقتلوهم فإنهم مشركون » .

ومنها: خروج كذابين دجالين كل منهم يدَّعى أنه نبى.

ومنها: زوال ملك العرب، رواه الترمذى.

ومنها: كثرة المال، رواه الشيخان وغيرهما.

ومنها: كثرة الزلازل والمسخ والقذف، وغير ذلك مما أخبر عنه ﷺ أنه من أمارات الساعة فظهر ومضى وانقضى .

الثانية : الأمارات المتوسطة وهى التى ظهرت ولم تنقضى بل تزيد وتكثر، وهى كثيرة جداً.

منها: قوله ﷺ « لاتقوم الساعة حتى يكون أسعد الناس بالدنيا لُكع بن لُكع» رواه الإمام أحمد والترمذى من حديث حذيفة ﷺ، واللكع العبد الأحمق واللئيم، والمعنى لاتقوم الساعة حتى يكون اللئام والحمقى ونحوهم، رؤساء الناس.

ومنها:قوله ﷺ « يأتى على الناس زمان الصابر على دينه كالقابض على الجمر » رواه الترمذى عن أنس، وقوله ﷺ « يكون فى آخر الزمان عباد جهال وقراء فسقة»

(*) يُفصِّل عبدالقاهر البغدادي الحديث عن فرق الشيعة فيذكر أن الروافض من السبئية : فهم أظهروا بدعتهم في زمان عليّ ﷺ، فقال بعضهم لعليّ أنت الإله، فأحرق عليّ قوماً منهم، ونفى ابن سبأ إلى ساباط المدائن، وهذه الفرقة ليست من فرق أمة الإسلام لتسميتهم علياً إلها .

ثم افترقت الرافضة ـ بعد زمان عليّ ﷺ ـ أربعة أصناف : زيدية وإمامية، وكيسانية وغلاة، وافترقت الزيدية فرقاً، والإمامية فرقاً، والغلاة فرقاً، كلّ فرقة منها تكفر سائرها، وجميع فرق الغلاة منهم خارجون عن فرق الإسلام، فأما فرق الزيدية وفرق الإمامية فمعدودون في فرق الأمة)

وقد علّق الأستاذ محمد محيي الدين عبدالحميد محقق كتاب (الفرق بين الفِرَق) علي البغدادي بقوله :

(جعل المؤلف فرقة الزيدية من الرافضة، مع أن الزيدية أتباع زيد بن علي الباقين على اتباعه . . والرافضة الذين كانوا معه ثم تركوه، لأنهم طلبوا إليه أن يتبرأ من الشيخين ـ ﷺ ـ فقال : لقد كانا وزيري جدى فلا أتبرأ منهما، فرفضوه، وتفرّقوا عنه، والزيدية من الشيعة . . .

ص٢١ كتاب (الفرق بين الفِرَق) لعبد القاهر البغدادي .

وفى لفظ «فسَّاق» رواه أبو نعيم، والحاكم عن أنس.

ومنها: أن يرى الهلال ساعة يطلع، فيقال لليلتين لانتفاخ الأهلة ـ بالخاء المعجمة ـ أى عظمها، وروى بالجيم.

ومنها: ماأخرجه أبو نعيم فى الحلية عن أنس ﷺ: من اقتراب الساعة اثنان وسبعون خصلة « **إذا رأيتم الناس أماتوا الصلاة، وأضاعوا الأمانة، وأكلوا الربا، واستحلوا الكذب، واستخفوا بالدماء، واستعلوا البناء، وباعو الدين بالدنيا، وتقطعت الأرحام، ويكون الحلم ضعفاً، والكذب صدقاً، والحرير لباساً، وظهر الجور، وكثر الطلاق، وموت الفجاءة، وائتمن الخائن، وخون الأمين، وصُدِّقَ الكاذب، وكثر القذف، وكان المطر قيظاً والولد غيظاً،وفاض اللئام فيضاً، وغاضَ الكريم غيضاً، وكان الأمراء والوزراء كذبة، والأمناء خونة، والعرفاء ظلمة، والقراء فسقة، إذ ألبسوا مسوك الضأن، قلوبهم أنتن من الجيفة، وأمر من الصبر: يغشيهم الله فتنة، يتهاوكون فيها تهاوك اليهود والظلمة، وتظهر الصفراء وتطلب البيضاء يعنى ـ الذهب والفضة ـ وتكثر الخطباء، ويقل الأمر بالمعروف،ومليت المصاحف،وصورت المساجد، وطولت المنابر، وخربت القلوب، وشربت الخمور، وعطلت الحدود، وولدت الأمة ربتها، وترى الحفاة العراة صاروا ملوكاً، وشاركت المرأة زوجها فى التجارة، وتشبَّه الرجال بالنساء، والنساء بالرجال، وحُلف بغير الله، وشهد المرء من غير أن يستشهد، وسلم للمعرفة، وتفقه لغير الله، وطلبت الدنيا بعمل الآخرة، واتخذ المغنم دُوَلا ـ بضم الدال المهملة وفتح الواو ـ مايتداول من المال، إذا اختص الأغنياء، وأرباب المناصب بأموال الفئ ومنعوها مستحقيها كما فى النهاية . والأمانة مغنما، والزكاة مغرما، وكان زعيم القوم أرذلهم، وعق الرجل أباه، وجفى أمه، وبر صديقه، وأطاع امرأته وعلت أصوات الفسقة فى المساجد، واتخذت القينات والمعازف، وشربت الخمور فى الطرق، واتخذ الظلم فخراً، وبيع الحُكم وكثرت الشرط، واتخذ القرآن مزامير وجلود السباع صفاقاً، أى بأن تجعل على السرج كما يفعله أمراء زماننا، ولعن آخر هذه الأمة أولها، فليرتقبوا عند ذلك ريحاً حمراء وخسفاً ومسخاً وقذفاً».**

وآيات وأخبار كثيرة جداً ذكرت منها طرفاً صالحاً فى كتابى: البحور الزاخرة فى علوم الآخرة الأشراط والأمارات.

والثالثة : العلامات العظام والأشراط الجسام، التى تعقبها الساعة، وهى المقصود فى النظم وإليها الإشارة بقوله:

وما أتى فى النصِّ من أشراطِ فكلــه حــقٌّ بــلا شطــاطِ.

(وما) أى وما ورد عن سيد الخلق، وهو حق يجب اعتقاده ولايسوغ رده (آتى) أى ورد (فى النص) القرآنى أو الحديث النبوى (من أشراط) الساعة بأقسامها الثلاثة مما ذكرنا، ومما لم نذكر.

والمراد بالساعة: يوم القيامة، وسميت الساعة لقربها أو لأنها تأتى بغتة فى ساعة، أو لأن بعث الموتى من قبورهم أسرع من اللمحة، أو لأن فصل القضاء فى ذلك اليوم فى قدر ساعة.

ويروى عن على رضى الله تعالى عنه أنه سئل عن محاسبة الخلق فقال: كما يرزقهم فى غداة واحدة كذلك يحاسبهم فى ساعة واحدة(فكله) أى الذى أتى فى النص من أشراط الساعة، وفى نسخ (فكلها) أى الأشراط (حق) واقع ويقين ليس له مدافع(بلا شطاط) كسحاب وكتاب أى من غير طول وبعد، يقال: رجل شاط بين الشطاط بالكسر، هو البعد مابين الطرفين وقرئ (ولاتشطط ولاتشاطط)، أى لاتباعد عن الحق، والمعنى أن الذى جاء فى النص من أشراط الساعة حق كله، لابعد فيه. ولاعقل ينافيه.

ثم أخذ فى تعدد تلك الأشراط فقال

منها الإمامُ الخاتمُ الفصيح محمد المهدى والمسيح

(منها) أى من أشراط الساعة أى من العلامات العظمى وهى أولها أن يظهر (الإمام) المقتدى بأقواله وأفعاله(الخاتم) للأئمة فلا إمام بعده، كما أن النبى ﷺ هو الخاتم للنبوة والرسالة، فلا نبى ولارسول بعده (الفصيح) اللسان لانه من صميم العرب أهل الفصاحة والبلاغة.

والفصاحة فى اصطلاح أهل المعانى والبيان خلوص الكلام من ضعف التأليف وتنافر الكلمات والتعقيد مع فصاحة مفرداته، والفصاحة فى المفرد خلوصه عن تنافر الحروف والغرابة ومخالفة القياس، والفصاحة فى المتكلم ملكة يقتدر معها على التعبير بلفظ فصيح، والبلاغة فى الكلام مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته، وفى المتكلم ملكة يقتدر بها على تأليف كلام بليغ.

وقوله (محمد المهدى) هذا اسمه وأشهر أوصافه، فأما اسمه فمحمد، جاء ذلك فى عدة أخبار، وفى بعضها أحمد واسم أبيه عبد الله، فقد صح عن النبى ﷺ أنه قال: «يواطئ اسمه اسمى واسم أبيه اسم أبى » رواه أبو نعيم من حديث أبى هريرة، ولفظه

أنه ﷺ قال «لو لم يبـق من الدنيا إلا يوم لطول الله ذلك اليوم حـتى يلى رجل من أهل بيتى يوطئ اسمه إسمى واسم أبيه اسم أبى، يملؤها قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً، وأما تسميتـه ووصفه بالمهدى فقد ثبت له هذه الصفة فى عدة أخـبار، قال أبو عمرو الدانى «إنما سمى المهدى، لأنه يهدي إلى جبل من جبال الشام، يستخرج منها أسفار التوراة يحاج بها اليـهود فيـسلم على يده جماعـة منهم، وأما لقبـه: فالجابر لأنه يجبـر قلوب أمة محـمد ﷺ ولانه يجبـر أى يقهر الجبارين والظـالمين ويقصمهم، وأمـا كنيته فأبو عبـد الله، وأما نسبـه فمن أهل بيت رسول الله ﷺ من ولد فـاطمة البـتول ابنة النبى ﷺ ورضى عنها وعن أولادها من ولد الحسن وللحسين فيه ولادة أيضاً.

فـوائـد

منها: فى حليته وصـفته، قال ابن عباس ﷺ المهدى : اسمه مـحمد ابن عبد الله، وهو رجل ربعة مشـرب بحمرة، يفرج الله به عن هذه الأمة كل كـرب، ويصرف بعدله كل جور.

ومن حديث حذيفة رضى الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ « المهدى رجل من ولدى، وجهة كالكوكب الدرى، اللون لون عـربى، والجسم جسم إسرائيلى، يملأ الأرض عدلاً، كـما ملئت جوراً يرضى فـى خلافته أهـل الأرض، وأهل السماء والطيـر فى الجو يملك عشرين سنة » أخرجه أبو نعيم والطبرانى .

وأخرج أبو داود والبـيهقى عن ابن مـسعود رضـى الله تعالى عنه قال: قـال رسول الله ﷺ «المهدى منى أجـلى الجبهـة، أقنى الأنف، يملأ الأرض قـسطاً وعدلاً، كمـا ملئت ظلماً وجوراً، يملك سبع سنين ».

وأخرج أبو نعيم عن طاوس، قال: علامة المهـدى أن يكون شديداً على العمال، جواداً بالمال، رحيماً بالمسـاكين ورأيتنى قد وصفته فى كتابى « البـحور الزاخرة» : آدم أى أسمر، ضرب من الرجـال، أى خفيف اللحم، ممشـوق مستـدق ربعة، لا بالطويل ولابالقصـير، أجلى الجبهة: أى خفيف شعر النزعتين من الصدغين، وهو الذى انحسر الشعر عن جبهته، أقنى الأنف: أى طويلة مع دقة أرنبته،أشم: أى رفيع العرنين، أزج:أى حاجبه فيه تقويس مع طول فى طرفه وامتـداده، أبلج: أعين أكحل العينين واسع العين - والكحل بفـتحتين - سـواد فى أجفـان العين خلقـة من غـير اكـتحـال، براق الثنايا: أى لثناياه بريق ولمعـان، أفرقهما: أى ليـست متلاصقة. أزيل الفخذين: أى منفرج الفخذين مـتباعدهما،وفى رواية «فى لسانه ثقل، وإذا أبطأ عليه ضرب فخذه الأيسر بيده اليمنى، ابن أربعين سنة ».

وفى رواية « مابين ثلاثين إلى أربعين ، خاشع لله خشوع النسـر بجناحيه، عليه عباءتان قطوانيتان » .

قال فى النهاية: هى عبائة بيضاء قصيرة الحمل، والنون زائدة.

الفائدة الثانية فى سيرته

قال أهل العلم : يعمل بسيرة النبى ﷺ لايوقظ نائماً ويقاتل على السنة، لايترك سنة إلا أقامـها، ولابدعة إلا رفعـها، يقوم بالدين آخـر الزمان،كمـا قام به النبى ﷺ أوله، يملك الدنيا كلها كـما ملك ذو القرنين، وسليمان بن داود عليهمـا السلام،يكسر الصليب ويقتل الخنزير ويرد إلى المسلمين ألفـتهم ونعمتهم، يملأ الأرض قـسطاً وعدلاً، كما ملئت ظلماً وجـوراً، يحثو المـال حثواً ولايعـده عداً، يقسم المال صـحاحاً بالسـوية، يرضى عنه ساكن السماء، وساكن الأرض، والطير فى الجو، والوحش فى الفقر، والحيتان فى البحر، يملأ قلوب أمة محمد ﷺ غنى، حتى يأمر منادياً ينادى: ألا من له حاجة من المال: فلا يأتيه إلا رجل واحـد، فيقول ؟ أنا، فيـقول : ائت السادن ـ أى الخازن ـ فـقل له: المهدى يأمرك أن تعطينى مالا، فـيقول له: احث حتى إذا جعله فى حجـره، وأبرزه ندم، فيقول: كنت أجشع. أى أحـرص أمة محـمد ﷺ أعجـز عن وسعهم، قـال: فيرده فـلا يقبل منه،فيـقال له :إنا لانأخـذ شيئـاً أعطيناه، تنعم الأمة برها وفاجـرها فى زمانه، نعـمة لم يسمعوا بمثلها قط، وترسل السماء علـيهم مدراراً،ولاتدخر شيئاً من قطرها،وتؤتى الأرض اكلها، لاتدخـر عنهم شيئاً من بذرها،تجـرى على يديه الملاحم، يستخـرج الكنوز، ويفتح المدائن مابين الخافقين، يؤتى إليه بملوك الهند مغللين، ويجعل خزائنهم لبيت المقدس حلياً، يأوى إليه الناس، كما يأوى النحل إلى يعسوبه، حتى يكون الناس على مثل أمرهم الأول، يمـده الله بثلاثة آلاف من الملائكة، يضـربون وجـوه مخـالفيـه وأدبارهم، جبـرائيل على مقدمته، وميكائيل على ساقته، ترعى الشاة والذئب فى زمانه بمكان واحد، ويلعب الصبيان بالحيات والعقارب، لاتضـرهم شيئاً، ويزرع الإنسان، مداً فيخرج له سـبعمائة مد، ويرفع الربا والزنا،وشرب الخـمر، وتطول الأعمار، وتؤدى الأمانة، وتهلـك الأشرار ولايبقى من يبغض آل محمد ﷺ محبوب ـــ يـعنى المهدى ـ فى الخلائق يطفئ الله به الفتنة العمياء، وتأمن الأرض حتى إن المرأة تحج فى خـمس نسوة مامـعهن رجل، ولايخفن شيـئاً إلا الله تعالى، مكتوب فى شعائر الأنبياء: مافى حكمه ظلم ولاعيب.

الثالثة: فى علامات ظهوره.

منها كسوف الشمس والقمر، ونجم الذنب والظلمة،وسماع الصوت برمضان، وتحارب القبائل بذى القعدة، وظهور الخسف والفتن، ومعه قميص رسول الله ﷺ وسيفه، ورايته من مرط مخملة معلمة سوداء فيها حجر، لم تنشر منذ توفى رسول الله ﷺ ولاتنشر حتى يخرج المهدى، مكتوب على رأسها « البيعة لله » كذا فى الإشاعة للعلامة السيد محمد البرزنجى المدنى، ويغرس قضيباً يابساً فى أرض يابسة، فيخضر ويورق، ويطلب منه آية فيومئ إلى طير فى الهوى بيده، فيسقط على يده، وينادى مناد من السماء أيها الناس إن الله قطع عنكم الجبارين والمنافقين وأشياعهم، وولاَّكم خير أمة محمد ﷺ فألحقوه بمكة، فإنه المهدى واسمه محمد بن عبد الله، وتخرج الأرض افلاذ كبدها، مثل الاسطوانت من الذهب، ويخرج كنز الكعبة المدفون فيها، فيقسم فى سبيل الله» رواه أبو نعيم عن على رضى الله تعالى عنه ويستخرج تابوت السكينة من غار أنطاكية، أو من بحيرة طبرية،فيوضع بين يديه بيت المقدس،فإذا نظر إليه اليهود أسلموا إلا قليلاً منهم، وتأتيه الرايات السود من خرسان، فيرسلون إليه البيعة وتنشق الفرات فتحسر عن جبل من ذهب.

وذكروا : أنه ينكسف القمر أول ليلة من رمضان، والشمس ليلة النصف، ونظر فى هذا الشيخ مرعى بأن العادة انكساف القمر الليالى الأبدار، والشمس أيام الأسرار، ولكن من الممكن أن يكون ذلك آية لظهوره،وفيها خرق العادة.

وقيل: إن القمر ينكسف قبل خروجه مرتين برمضان.

وقيل : ثلاث ليال متواليات.

وروى عن كعب الأحبار: يطلع نجم بالمشرق وله ذنب يضئ كما يضئ القمر، ينعطف حتى يلتقى طرفاه أو يكاد.

وفى الديلمى مرفرعا: يكون هدة فى رمضان، توقظ النائم وتفزع اليقظان.

ومن وجه آخر : يكون صوت فى رمضان فى نصف الشهر،يصعق منه سبعون ألفاً، ويعمى مثلها، ويخرس مثلها، ويصم مثلها، وينفتق من الأبكار مثلها.

ومنها: خسف قرية ببلاد الشام، يقال لها جرستا.

الرابعة: فى الإشارة إلى بعض الفتن قبل خروجه، وخروج خوارج قبل ذلك.

منها أنه يُحسر الفرات عن جبل من ذهب، كما تقدم، فإذا سمع به الناس ساروا إليه، واجتمع عليه ثلاثة كلهم ابن خليفة، فيقتتلون عنده، ثم لايصير إلى أحد منهم، فيقول كل واحد: والله لئن تركت الناس يأخذون منه ليذهبن كله، فيقتتلون عليه حتى يقتل من كل

مائة تسع وتسعون.

وفى رواية تسعة أعشارهم، وفى رواية: من كل تسعة سبعة، فيقول كل رجل: لعلى أنا أنجو.

وقد قال النبى ﷺ « من حضره فلا يأخذ منه شيئاً » وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ « لاتقوم الساعة حتى يبعث دجالون كذابون قريباً من ثلاثين، كلهم يزعم أنه رسول الله » رواه مسلم فى صحيحه، ورواه البخارى فى معناه وتمام الحديث فى مسلم « وحتى يقبض العلم، وتكثر الزلازل، ويتقارب الزمان، وتظهر الفتن ويكثر الهرج - وهو القتل - » الحديث.

ومن أقوى علامات المهدى: خروج من يتقدمه من الخوارج: السفيانى والأبقع والأصهب والأعرج والكندى.

أما السفيانى فاسمه عروة، واسم ابيه محمد، وكنيته أبو عتبة، قال على رضى الله تعالى عنه: **السفيانى من ولد خالد بن يزيد بن أبى سفيان رجل ضخم الهامة بوجهه أثر جدرى**، بعينه نكتة بيضاء يخرج من ناحية دمشق، وعامة من يتبعه من كلب، فيقتل حتى يبقر بطون النساء ويقتل الصبيان، ويخرج إليه رجل من أهل بيتى فى الحرم، فيبلغ السفيانى فيبعث إليه جنداً من جنده، فيهزمهم فيسير إليه السفيانى بمن معه، حتى إذا جاوز بيداء من الأرض خسف بهم، فلا ينجو إلا المخبر عنهم. أخرجه الحاكم فى مستدركه وهذا حديث صحيح الإسناد، على شرط البخارى ومسلم ولم يخرجاه.

والأبقع: يخرج من مصر، والأصهب يخرج من بلاد الجزيرة، ثم يخرج الجرهمى من الشام، ويخرج القحطانى من بلاد اليمن، قال كعب: فبينما هؤلاء الثلاثة قد تغلبوا على مواضعهم، وإذا قد خرج السفيانى من دمشق من واد يقال وادى اليابس، يؤتى فى منامه، فيقال له قم فاخرج، فيقوم فلا يجد أحداً، ثم يؤتى الثانية، ثم الثالثة، ويقال له فيها فانظر إلى باب دارك، فينحدر إلى باب داره، فإذا سبعة أنفار أو تسعة معهم لواء، فيقولون نحن أصحابك ومع رجل منهم لواء معقود، لايرى ذلك اللواء أحد إلا انهزم، فيخرج إليه صاحب دمشق فيقاتله، فإذا نظر إلى رايته انهزم، فيدخل دمشق الشام فى ثلاثمائة وستين راكباً، وما يمضى عليه شهر حتى يجتمع عليه ثلاثون ألفاً من كلب، وهم أخواله، وعلامة خروجه خسف بقرية حرستا، ويسقط جانب مسجدها الغربى، ثم يخرج الأبقع والأصهب من جزيرة العرب.

ويخرج الأعرج الكندى بالمغرب، ويدوم القتال بينهم سنة، ثم يغلب .

وقد روى الإمام الحافظ ابن الإسكافى بسند مرضى إلى جابر بن عبد الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ « من كذب بالدجال فقد كفر ومن كذب بالمهدى فقد كفر»

تتمة

جاء عن ابن سيرين: أن المهدى خير من أبى بكر وعمر. قد كاد يفضل الأنبياء، وجاء عنه أيضاً لايفضل عليه أبو بكر وعمر، وإن كان أخف من الأول فليس بصحيح، فإن الأمة مجمعة على أفضليتهما عليه، وعلى جميع الصحابة خلافاً للرافضة خذلهم الله تعالى، بل غيرهما من الصحابة أفضل من المهدى، ثم يستمر سيدنا المهدى، حتى يسلم الأمر لروح الله عيسى ابن مريم عليه السلام، ويصلى المهدى بعيسى عليه السلام صلاة واحدة، وهى صلاة الفجر، ثم يستمر المهدى على الصلاة خلف عيسى عليه السلام، بعد تسليمه الامر إليه، ثم يموت المهدى ويصلى عليه روح الله عيسى، ويدفنه فى بيت المقدس والله أعلم.

العلامة الثانية: خروج الدجال ومايتعلق به.

ومأأدراك ماالدجال منبع الكفر والضلال، وينبوع الفتن والأوجال، قد انذرت به الأنبياء قومها، وحذرت منه أممها، وحذر منه المصطفى وأنذر، ونعته لأمته نعوتاً لاتخفى على ذى بصيرة.

وقد قيل : إنه صاف بن صياد أو صائد، وأن مولده المدينة، كما فى الحديث الوارد.

وقيل بل هو شيطان موثق فى بعض الجزائر، أو أنه من أولاد شق الكاهن أو هو شق نفسه: وأن أمه كانت جنية عشقت أباه، فأولدها إياه.

وفى الترمذى: أنه يخرج من خراسان. وفى صحيح مسلم عن أنس رضى الله تعالى عنه مرفوعاً « يتبع الدجال من يهود أصبهان سبعون ألفاً عليهم الطيالسة » .

وفى مستدرك الحاكم عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما مرفوعاً « يخرج الدجال من يهودية أصبهان، ثم يخلق له عين والأخرى كأنها كوكب ممزوجة بدم، يشوى فى الشمس سمكاً، ويتناول الطير من الجولة ثلاث صيحات يسمعها أهل المشرق والمغرب » ومن حليته أنه شاب. وفى رواية : شيخ. وسندهما صحيح جسم أحمر. وفى رواية أبيض أمهق. وفى رواية آدم.

قال الحافظ ابن حجر فى شرح البخارى: يمكن أن تكون أدمته طافية، وقد يوصف ذلك بالحمرة لأن كثيراً من الادم تحفر وجنتاه، جعد الرأس، قطط أعور العين اليمنى، ومعنى طافية بغير همز أنها ناتئة نتوء العنبة، وضبطه بعضهم بالهمز وأنكره بعضهم.

وجمع القاضى بين الروايات بأن عينه اليمنى طافية بغير همز، وممسوحة أى ذهب ضوءها، وهو معنى حديث أبى داود مطموس العين ليست بناتئة ولاجحراء أى ليست بعالية ولاعميقة، كما فى الرواية الأخرى، وهى الجاحظة التى كأنها كوكب، وكأنها نخاعة فى حائط، وهى الخضراء كما جاء ذلك فى الأحاديث.

قال: وعلى هذا فهو أعور العينين معاً، وذلك أن العور العيب، والأعور من كل شئ المعيب، وكلا عينى الدجال معيبة أحداهما بذهاب نورها والأخرى بتنوها وخضرتها.

قال الإمام النووى : وهذا فى غاية الحسن . انتهى.

ومن أوصاف الدجال أنه قصير أفحج أى متباعد الساقين. وقيل: هو تدانى مابين صدور القدمين مع تباعدهما، وقيل: هو الذى فى رجليه اعوجاج جفال الشعر ـ بضم الجيم ـ وتخفيف الفاء أى كثيرة، هجان ـ بكسر أوله، وتخفيف الجيم ـ أبيض أقمر أى شديد البياض ـ ضخم فيلمانى ـ بفتح الفاء وسكون التحتية : أى عظيم اللحية.

قال ابن الاثير فى نهايته فى صفة الدجال: أقمر قيلم، وفى رواية: فيلمانيا الفيلم العظيم الجثة، والفيلم الأمر العظيم والياء زائدة، والفليمانى منسوب إليه بزيادة الألف والنون للمبالغة. انتهى. كأن رأسه أغصان شجرة، أى شعر رأسه كثير متفرق قاتم : وفى رواية: أن رأسه من ورائه حبك، أى شعره منكس من الجعود كالماء الساكن، والرمل إذا هبت عليهما الرياح.

قال فى النهاية : وهذا معنى مامر أنه جعد قطط ـ مكتوب بين عينيه: كـ. ف . ر حروفاً مقطعة، يقرؤها كل مسلم كاتب وغير كاتب، ولايقرؤها الكافر، لايولد له ولد ولايدخل مكة ولا المدينة، يتبعه أقوام كأن وجوههم المجان المطرقة، وسبعون ألفاً من يهود أصبهان، عليهم التيجان، وكلهم ذو سيف محلى.

ومن صفاته أيضاً: أنه تنام عيناه ولاينام قلبه، له: أى الدجال حمار أهلب وهو المشعر الغليظ يعنى كثير الشعر، مابين أذنيه أربعون ذراعاً، يضع خطوه عند منتهى طرفه.

وفى الحديث أن قبل خروجه بثلاث سنين، تمسك السماء ثلث قطرها، والأرض ثلث نباته، والسنة الثانية تمسك السماء تلثى قطرها، والأرض ثلثى نباتها، والسنة الثالثة تمسك السماء مافيها ويهلك كل ذى ضرس وظلف، ويسير معه جبلان أحدهما فيه أشجار وأثمار وماء، وأحدهما فيه دخان، فيقول : هذه الجنة، وهذه النار، رواه الحاكم عن ابن عمر مرفوعاً.

وعن حذيفة: أن معه جنة وناراً ورجالاً يقتلهم ثم يحييهم، ومعه جبل ثريد ونهر ماء.

وعن حذيفة رضى الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ « لأنا أعلم بما مع الدجال منه معه نهران يجريان أحدهما رأى العين ماء أبيض، والآخر رأى العين نار تأجج، فأما إن أدرك ذلك أحد منكم، فليأت النهر الذى يراه ناراً، وليغمض ثم ليطأطئ رأسه فيشرب فإنه ماء بارد، وإن الدجال ممسوح العين عليها ظفـرة غليظة مكتوب بين عينيه : كافر ، يقرؤه كل مؤمن كاتب وغير كاتب.

وأخرج مسلم من حديث النواس بن سمـعان ﷺ قال: ذكر رسول الله ﷺ « الدجال ذات غداة فخفض فـيه ورفع، حتى ظنناه فى طائفة النخل، فلما رحنا إليـه عرف ذلك فينا فقال: ماشأنكم؟ قلنا: يارسول الله ذكرت الدجال غـداة فخفضت فيه ورفعت حتى ظنناه فى طائفة النخل، فقال غير الدجال: أخوفنى علـيكم أن يخرج وأنا فيكم، فأنا حجيجه دونكم، وإن يخرج ولست فيكم فكل امـرئ حجيج نفسه، والله خليفـتى على كل مسلم، إنه شاب قطط عينه طافية كأنى أشبهه بعبـد العزى بن قطن، فمن أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف، إنه خارج خلة،أى أنه يخرج قصداً وطريقاً، والتخلل: الدخول فى الشئ بين الشام والعراق، فعاث يميناً وعاث شمالاً، ياعباد الله فاثبتوا: قلنا: يارسول الله فما لبثه فى الأرض؟ قال أربعون يومـاً، يوم كسنة، ويوم كشهر، ويوم كـجمعة، وسائر أيامـه كأيامكم. قلنا: يارسول الله فذلك اليوم الذى كسنة تكفينا فـيه صلاة يوم. قالا: لا، أقدروا له قدره. قلنا: يارسول الله، ومالإسراعه فى الأرض؟ قال كالغيث اسـتدبرته الريح فيأتى على القوم فيدعوهم فيؤمنون به ويستجيـبون له، فيأمر السماء فتمطر والأرض فتنبت، فتـروح عليهم مسارحتهم أطول ما كانت دراً، وأصبغه ضروعاً وأمده خـواصر، ثم يأتي القوم فيدعوهم فيردون عليه قوله فينصرف عنهم فيصبحـون ممحلين، ليس بأيديهم شيء من أموالهم ويمر بالخربة فيقول : أخرجي كنوزك فتتبـعه كنوزها كيعاسيب النحل، ثم يدعو رجلاً ممتلئاً شـاباً فيضربه بالسيف فيقطعه جزلتين رمية الغرض، ثم يدعوه فيقبل يتهلل وجهه يضحك. فبينما هو كذلك إذ بعث الله المسيح ابن مريم ﷺ، فينزل عند المنارة البيضاء شرقى دمشق بين مهرودتين، واضعاً كفيه على أجنحة ملكين، إذا طأطأ رأسه قطر، وإذا رفع رأسه تحـدر منه جمان كاللؤلؤ، فلا يحل لكافر يجد ريح نفسه إلا مات ونفسه ينتهى حيث ينتهى طرفه. الحديث.

وقد ذكر جماعة من العلماء: **الذى معه من صورة الجنة والنار ونحوهما، على طريق التخييل لا الحقيقة.**

وقال جماعة: منهم ابن عربى بل هى على ظاهرها امـتحاناً من الله تعالى لعباده، قال

أى ليؤمنن بعيسى قبل موت عيسى، وذلك عند نزوله من السماء آخر الزمان حتى تكون الملة واحدة ملة إبراهيم عليه السلام، ونوزع بالاستدلال فى هذه الآية الكريمة، وإن الضمير فى قوله قبل موته ليهود. ويؤيده قراءة أُبى رضى الله تعالى عنه قبل موتهم.

وأما السنة ففى الصحيحين وغيرهما عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «والذى نفسى بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً، فيكسر الصليب ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، الحديث.

وأخرج مسلم عن جابر بن عبد الله رضى الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ «لاتزال طائفة من أمتى يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة، فينزل عيسى ابن مريم فيقول أميرهم: تعال فصل لنا، فيقول: ألا إن بعضكم على بعض أمراء تكرمة الله هذه الأمة».

وأما الإجماع فقد أجمعت الأمة على نزوله، ولم يخالف فيه أحد من أهل الشريعة، وقد انعقد الإجماع على أنه ينزل ويحكم بهذه الشريعة المحمدية، وليس ينزل بشريعة مستقلة عند نزوله من السماوات كانت النبوة قائمة به، وهو متصف بها ويتسلم الأمر من المهدى، ويكون المهدى من أصحابه وأتباعه كسائر أصحاب المهدى، حتى أصحاب الكهف الذين هم من أتباع المهدى.

فوائد

فى متعلقات السيد المسيح عليه السلام

الأولى: فى حليته وسيرته، أما حليته، فعند البخارى من حديث عقيل ابن خالد: أنه أحمر أجعد، عريض الصدر. وفى رواية: آدم كأحسن ماأنت راء من آدم الرجال سبط ينطف - بكسر الطاء المهملة - أى يقطر. زاد فى رواية له لمة - أى بكسر اللام وتشديد الميم - أحسن ماأنت راء من اللمم، قد رجَّلها - بتشديد الجيم - أى سرحها، ولامنافاة بين الحمرة والأدمة لجواز أن تكون أدمته صافية.

وأما سيرته: فيكسر الصليب ويقتل الخنزير، كما تقدم، ويقتل القرد ويضع الجزية، ولايقبل إلا الإسلام، ويتحد الدين فلا يعبد إلا الله، وتترك الصدقة، أى الزكاة لعدم من يقبلها، وتظهر الكنوز فى زمنه، ولايرغب فى اقتناء المال، وترفع الشحناء والتباغض، وينزع الله سم من كل ذى سم حتى يلعب الأولاد بالحيات والعقارب، فلا تضرهم، ويرعى الذئب مع الشاة فلا يضرها، ويملأ الأرض سلماً، وينعدم القتال وتنبت الأرض نبتها كعهد

فى الإشاعة: كالعلامة الشيخ مرعى: التحقيق الأول، ويدل له ماتقدم من قوله ﷺ «فمن أدرك ذلك منكم فليقع بالذى يراه أنها نار، فإنه عذب بارد» وبما فيه فى رواية «فالنار روضة خضراء».

وأخرج مسلم عن أبى سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ «يخرج الدجال فيتوجه قبله رجل من المؤمنين، فليقاه المسالح مسالح الدجال ـ أى وهم جمع مسلحة ـ قوم معهم ـ سلاح فيقولون له: أين تعمد؟ فيقول: أعمد إلى هذا الرجل الذى خرج. قال: فيقولون له: أو ماتؤمن بربنا؟ فيقول مابربنا خفاء؟ فيقولون اقتلوه فيقول بعضهم لبعض: أليس قد نهاكم ربكم أن تقتلوا أحداً دونه، قال فينطلقون به إلى الدجال، فإذا رآه المؤمن قال: ياأيها الناس، هذا الدجال الذى ذكره النبى ﷺ قال فيأمر به الدجال فيشج فيقول: خذوه واشبحوه فيوسع ظهره وبطنه ضرباً، قال: فيقول أما تؤمن بى؟ قال: فيقول أنت المسيح الكذاب. قال فيؤمر به فينشر بالمنشار من مفرقه حتى يفرق بين رجليه. قال: ثم يمشى الدجال بين القطعتين ثم يقول له: قم فيستوى قائماً. وفى رواية: قم حياً بإذنى فيعود حياً. فيقول له: أتؤمن بى؟ فيقولماازددت فيك إلا بصيرة. قال: ثم يقول: ياأيها الناس إنه لايفعل بعدى بأحد من الناس، قال: فيأخذه الدجال ليذبحه فيجعل مابين رقبته إلى ترقوته نحاساً فلا يستطيع إليه سبيلاً. قال: فيأخذ بيديه ورجليه فيقذف به فيحسب الناس أنه قذفه إلى النار، وإنما ألقى فى الجنة. فقال رسول الله ﷺ: هذا أعظم الناس شهادة عند رب العالمين.

قال القرطبى فى تذكرته: يقال إن هذا الخضر عليه السلام.

قال العلامة الشيخ مرعى فى بهجته: ثبت أن الدجال لايسلط على أحد بالقتل إلا على رجل واحد، يخرج إليه وهو شاب حسن، فيقول له الدجال: أتؤمن بى وبألوهيتى؟ فيقول له: إنك اللعين الكذاب الحديث.

فائدة

ورد أنه لم يبق من الناس بلا فتنة من الدجال إلا اثنا عشر ألف رجل وسبعة آلاف امرأة. والله المستعان.

(و) منها: أى من علامات الساعة العظمى **العلامة الثالثة** أن ينزل من السماء السيد (المسيح) عيسى ابن مريم عليه السلام، ونزوله ثابت فى الكتاب والسنة وإجماع الأمة. أما الكتاب فقوله تعالى﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ﴾[النساء:١٥٩]

آدم حتى يجتمع النفر على القطف من العنب فيشبعهم، وكذا الرمانة، وترخص الخيل لعدم القتال، ويغلو الثور لأن الأرض تحرث كلها، ويكون مقـرراً لشريعة نبينا محمد ﷺ لأنه رسول لهذه الأمة كما مر. ويكـون قد علم الأحكام هذه الشريعة بأمر الله تعالى، وهو فى السماء قبل أن ينزل ويكون المهدى من خواص عـيسى بل وزيره، والمقرب لديه يراجعه فى الأمور وتصدر عنه الشورى.

الثانية: فى وقت نزوله من السماء ومحله ومايجرى على يديه من الملاحم.

أما محل نزوله فعند المنارة البيضاء شرقى دمـشق، واضعاً كفيه على أجنحة ملكين، إذا طأطأ رأسه قطر، وإذا رفع رأسه تحـدر منه جمان كاللؤلؤ، فلا يحل لكافـر يجد ريحه إلا مات، ونفسه ينتهى حيث ينتهى طرفه.

وفى حديث مسلم ينزل بين مهرودتين الحديث. قوله مهرودتين: قال فى جامع الأصول: رويت هذه اللفظة: بالمهملة والمعـجمة. يقال للثوب إذا صبغ بالورس، ثم بالزعـفران: جاء لونه مثل زهرة الحـوذانة، فذلك الثوب مهرود، وقـيل أراد بالمهرود: الثوب المصـبوغ بالهرد، وهو صبغ أصفر. قيل: إنه الكركم. وقيل أراد فى شقتين من الهرد وهو القطع. انتهى.

والجمان حب الفـضة ويكون نزول سيدنا عـيسى عليه السلام لست سـاعات مضت من النهار، حتى يأتى مسـجد دمشق، يقعد على المنبر فيدخل المسلمـون المسجد وكذا النصارى واليهـود، فكلهم يرجونه حـتى لو ألقى شئ لم يصب إلا رأس إنسان من كـثرتهم، ويأتى مؤذن المسلمـين وصاحب بوق اليهود وناقـوس النصارى، فيتـقرعون فلا يخـرج إلا سهم المسلمين. فـحينئذ يؤذن مؤذنهم ويخرج اليـهود والنصارى من المسجـد، ويصلى المسلمين صلاة العصر، ثم يخرج بمن معه من أهل دمشق فى طلب الدجال كما سيأتى.

الثالثة: فى مقدار مـدته ووفاته. وفى حديث أبى هريرة رضى الله تعـالى عنه الطبرانى وابن عساكـر أنه ﷺ قال « ينزل عيسى ابن مريم فيـمكث فى الناس أربعين سنة» وعند الإمام أحـمد وغيره أنه يمكث أربعـين سنة ثم يتوفى ويصلى عليـه المسلمون ويدفنونه عند نبينا محمد ﷺ .

وفى المنتظم للإمام الحافـظ ابن الجوزى عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهـما أن رسول الله ﷺ قال « ينزل عـيسى ابن مريم فـيتزوج ويولد له » ذكـر بعضهم ولدين أحـدهما يسميه موسى والآخر محمداً وأن أمـهما من اليزد. قال: « ويمكث خمساً وأربعين سنة ثم يموت، ويدفن معى فى قبرى وأقوم أنا وعيسى من قبر واحد بين أبى بكر وعمر »

وإلى قتل سيدنا عيسى عليه السلام للدجال الإشارة بقوله:

وإنه يقتل للدجالِ ببابِ لدخلَ عليه جدالِ

(وإنه) أى المسيح عيسى عليه السلام (يقتل) بأمر الله له ومعونته وتأييده يقتل (للدجال) أى الكذاب. وهو اسم لهذا الشخص المشار إليه فى الشرائع، وقيل: سمى دجلاً لأنه يقطع ويسير فى أكثر نواحيها يقال. دجل الرجل إذا فعل ذلك. وقيل:لتمويهه على الناس وتلبيسه، يقال: دجل إذا لبس وموّه .

تنبيه

إنما سمى الدجال مسيحاً لان أحد عينيه ممسوحة لايبصر بها، والأعور يسمى: مسيحاً، كما فى جامع الأصول، وأما تسمية سيدنا عيسى ابن مريم مسيحاً فقيل لمسح زكريا عليه السلام إياه، وقيل: لأنه كان يمسح ذا العاهة فيبرأ. وقيل: لأنه كان يمسح الأرض أى يقطعها فى سياحته، وقيل: المسيح الصديق، فسيدنا عيسى مسيح الهدى، وأما الدجال فمسيح الضلالة.

تقدم أن عيسى عليه السلام يصلى بالمسلمين صلاة العصر بمسجد دمشق، ثم بمن معه من أهلها فى طلب الدجال ويمشى وعليه السكينة والأرض تقبض له، ومأادراك نفسه من كافر إلا وقتله، ويدرك حيث ماأدرك بصره، حتى يدرك بصره حصونهم وقرياتهم، إلى أن يأتى إلى بيت المقدس يجده مغلقاً قد حصره الدجال فيصادف ذلك صلاة الصبح. وفى رواية عند الإمام أحمد من حديث جابر مرفوعاً « فيفر المسلمون - يعنى من الدجال - إلى جبل الدخان بالشام فيأتيهم فيشتد حصارهم ويجهدهم جهداً شديداً، ثم إن الناس يشكون فى أمر الدجال حين لم يقدر على قتل ذلك الرجل ثانياً كما تقدم، ويبادر إلى بيت المقدس فإذا أطال الحصار، قال رجل إلى متى هذا الحصار؟ أخرجوا إلى هذا العدو، حتى يحكم الله بيننا إما بالشهادة وإما الفتح، فهـا أنتم إلا بين إحدى الحسنين فيتابعون على القتال، بيعة يعلم الله أنها الصدق من أنفسهم وذلك بعد ثلاث سنين شداد، يصيب الناس فيها الجوع الشديد. وإن قوت المؤمن التهليل والتسبيح والتحميد ثم تأخذهم ظلمة لايبصر أحدهم كفه، فينزل ابن مريم عليه السلام فيحسر عن أبصارهما وبين أظهرهم رجل عليه لامته، فيقولون: من أنت؟ فيقول: أنا عبد الله وكلمته اختاورا إحدى ثلاث: أن يبعث الله على الدجال وجنوده عذاباً جسيماً أو أن يخسف الله بهم الأرض أو يرسل عليهم سلاحكم، ويكف سلاحهم عنكم؟ فيقولون هذا يا رسول الله أشفى لصدورنا فيومئذ ترى اليهودى

العظيم الطويل الأكول الشعوب لاتقل يده سيفه من الرعب فينزلون إليهم فيسلطون عليهم. هكذا فى هذه الرواية وفى المواهب اللدنية للقسطلانى رحمه الله تعالى: بقى فى البيت قبر يدفن فيه عيسى ابن مريم عليه السلام يكون فى قبره الرابع.

قال العلامة الشيخ مرعى فى بهجته: قال بعض مشائخنا: وذكر رابع القبور لاينافى قوله ﷺ فى الحديث «المار معى فى قبرى» فإنه ﷺ عبر بذلك لشدة القرب إذ هو لقربه كأنه معه أو بتقدير تضاف أى فى جانب قبرى لينطبق الكلام، ويتسق. فدل مجموع ماذكرنا أن المسيح عيسى عليه السلام يموت بالمدينة المنورة. والله أعلم.

العلامة الرابعة: خروج يأجوج ومأجوج وإليها الإشارة بقوله:

وأمر يأجوج ومأجوج أثبت　　　فإنه حق كهدم الكعبة

(وأمر يأجوج ومأجوج) يهمزان ولايهمزان لغتان وقرئ بهما، فمن همزهما جعلها من أجيج القار، وهو ضوئها وحرارتها، سموا بذلك لكثرتهم وشدتهم. وقيل: من الأجاج وهو الماء الشديد الملوحة. وقيل: هما اسمان أعجميان غير مشتقين. قال مقاتل: هو من ولد يافث بن نوح عليه السلام. فاختلط ماءه بالتراب فأسف، فخلقوا من ذلك. وفيه نظر، لأن الأنبياء لايحتلمون.

وقد روى الطبرانى من حديث حذيفة رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال« يأجوج أمة لها أربعمائة أمير وكذلك مأجوج ولايموت أحدهم حتى ينظر إلى ألف فارس من ولده» قال أهل التاريخ أولاد نوح عليه السلام ثلاثة سام وحام ويافث. فسام أبو العرب والعجم والروم، وحام أبو الحبشة والزنج والنوبة، ويافث أبو الترك والصقالبة، ويأجوج ومأجوج.

وقال الكسائى فى العرائس: إن يافث سار إلى المشرق، فولد له هناك جوهر ونبرش وأشاره واسقويل ومياشح. وهى أسماء أعجمية، فمن جوهر جميع الصقالبة والروم وأجناسهم، ومن مياشح جميع أصناف العجم، ومن أشاره يأجوج ومأجوج وأجناسهم.

قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما: هم عشرة أجزاء وولد آدم كلهم جزء لأنهم لايموت أحدهم حتى ينظر إلى ألف ذكر من صلبه، يحملون السلاح فمنهم من طوله مائة وعشرون ذراعاً أو خمسون، ومنهم من طوله وعرضه كذلك. ومنهم من يلتحف بأحد أذنيه ويفترش الأخرى.

وقال على رضي الله عنه: منهم من طوله شبر. ومنهم: من هو مفرط فى الطول، لهم مخالب فى موضع الأظفار من أيدينا وأنياب وأضراس كأضراس السباع، ولهم شعر فى أجسادهم،

والمراد بأمرهم خروجـهم وهو ثابت بالكتاب والسنة وإجماع الأمـة. فلهذا قال (أثبت) أى اعتقد ثبوته.

أما الكتاب فقوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ ﴾ [الأنبياء: ٩٦].

وأما السنة: ففى صحيح مسلم من حـديث النواس بن سمعان رضى الله تعالى عنه عن النبى ﷺ أنه قال: «إن الله تعالى يوحى إلى عيسى ابن مريم عليه السلام بعد قتله الدجال أنى قد أخرجت عـباداً لى لا يدان لأحد بقتـالهم، فحرر عبادى إلى الطـور ويبعث الله يأجوج ومأجوج، وهم من كل حـدب، ينسلون فيمر أولهم على بحيـرة طبرية فيشربون مافـيها، ويمر آخرهم، فيقـولون: لقد كان بهذه ماء، ويحصرون عيـسى وأصحابه حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيراً من مائة دينار» الحديث.

وقال ﷺ «لاتـقوم السـاعة حتى يكون عشـر آيات: طلوع الشـمس من مغـربها، والدخان والدابة، ويـأجوج ومأجـوج، ونزول عيسى ابن مـريم. وثلاث خسـوفات، ونار تخرج من قعـر عدن أبين» الحديث. رواه ابن ماجـه من حديث حذيفة بن أسـيد وهو فى مسلم. وذكر فيه: خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب.

وفى حـديث حذيفـة: ويمنعـهم الله من مكة والمدينة وبيت المقـدس، وفى خبـر على ﷺ: لهم مخاليب وأنياب السباع، وتداعى الحمـام وتسافد البهائم، وعوى الذئب وشعور تقيهم الحر والبرد، وآذان عظام، أحدهما وبرة يشتون فيها والأخرى جلدة يصيفون فيها.

وقد ذكر الإمام ابن عبد البر الإجماع على أنهم من ولد يافث بن نوح عليه السلام، وأن النبى ﷺ سئل عن يأجوج ومأجوج هل بلغتهم دعوتك؟ فقال: جرت ليلة أسرى بى فدعوتهم فلم يجيبوا، فللنص القرآنى والأحاديث الواردة عن النبى ﷺ مما ذكرنا ومما لم نذكر.

قال: (فـإنه) أى أمر يأجوج ومـأجوج - يعنى خروجهـم من وراء السد - على الناس (حق) ثابت لوروده فى الذكر وثبوته عن سيـد البشر فوجب اعتقاده، فـقدروى الجماعة إلا أبا داود من حديث زينب بنت جحش رضى الله تعالى عنها قالت: خرج رسول الله ﷺ فزعاً محـمراً وجهه، يقول: لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقـترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه» وحلق بإصبعيـه الإبهام والتى تليها. قالت: فقلت يارسول الله أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال: نعم إذا كثـر الخبث» أشار بذلك إلى أن الذى فتحوا من السد قليلاً وهم مع ذلك لم يلهمهم الله أن يقولوا عند نقبه وحفره غداً نفتحه إن شاء الله، فإذا قالوها خرجوا.

وقد روى عبد الرزاق عن أبى قتادة قال: يأجوج ومأجوج أثنتان وعشرون قبيلة بنى ذو القرنين السدَّ على إحدى وعشرين، وكانت قبيلة منهم غائبة فى الغزو، وهم الترك، فبقوا دون السد.

وفى حديث حذيفة لايمرون بفيل ولاوحش، ولاطير، ولاجمل ولاخنزير إلا أكلوه، ومن مات منهم أكلوه. وذكر بعضهم فى صفتهم أن فيهم من له قرن وذنب وأنياب بارزة، يأكلون اللحوم نيئة.

وأخرج بن أبى حاتم عن عبد الله بن عمرو أنه قال: الجن والإنس عشرة أجزاء فتسعة أجزاء يأجوج ومأجوج وجزءاً سائر الناس. وقال مكحول: الأرض مسيرة مائة عام، ثمانون منها يأجوج ومأجوج، وهى أمتان كل أمة أربعمائة ألف أمة لاتشبه أمة الأخرى.

تتمة

فى سبب خروجهم وإفسادهم وهلاكهم

اعلم أن الأسكندر بَنَى الردم الذى سدَّ به على **يأجوج ومأجوج**، كما ذكر الله ذلك فى محكم الذكر فى قوله سبحانه: **﴿ قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ﴾** بالقتل والتخويف وإتلاف الزرع، وفعل الخبيث **﴿ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا ﴾** أى جعلا نخرجه لك من أموالنا. **﴿ عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴾** أى حاجزاً فلا يصلون إلينا **﴿ قَالَ ﴾** ذو القرنين **﴿ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي ﴾** من القوة والعلم وطلب ثوابه والمال ونفوذ المقال **﴿خَيْرٌ﴾** أى أفضل مما تعطوننى أنتم **﴿ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ ﴾** أى آلة أقوى بها وفعل منكم **﴿ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾** هو أكبر وأعظم من السد فجاءوه بذلك فحفر مابين الصدفين ـ يعنى الناحيتين من الجبلين لأنهما يتصادفان أى يتقابلان حتى بلغوا الماء، ثم قال **﴿ آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ﴾** أى القطع التى أعدها لذلك فجعل الأساس من الصخر والنحاس المذاب والبنيان من زبر الحديد بعضها فوق بعض وجعل بينها الحطب والفحم **﴿ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا﴾** فنفخوا النار حتى إذا جعل الحديد **﴿ نَارًا ﴾** أى كالنار **﴿قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾** أى أصب عليه نحاساً مذاباً، فجعلت النار تأكل الحطب وتصير النحاس مكان الحطب، حتى لزم الحديد والنحاس، وكان طول مائة فرسخ وعرضه خمسون ذراعاً، وارتفاعه مائتى ذراع، وطول الجبلين الذين بنى بينهما مائة.

ﷺ وأصحابه إلى الله تعالى: فيرسل الله تعالى عليهم النغف ـ بفتح النون والغين

المعجمـة ففاء - وفى رواية دود كالنغف فـى أعناقهم وهو دود يكون فى أنوف الإبل والغنم الواحدة نغـفة، فيصـبحون موتى كـموت نفس واحدة - معناه - قـتلى لايسمع لهم حس - فيقول المسلمون إلا رجل يشرى نفسه، فينظر مافعل هذا العذو؟ فيتجرد رجل منهم محتسبا نفسه قد وطنها على أنه مقتول، فينزل فيـجدهم موتى بعضهم على بعض، فينادى: يامعشر المسلمـين ألا أبشـروا إن الله عـز وجل قـد كـفاكـم عدوكم فـيـخـرجـون من مـدائنهم وحصـونهم، ويسرحون مـواشيـهم، فما يكون لهـا مرعى إلا لحومـهم فتشكـر منه -بفتح الكاف- أى تسمى أحسن ماتشكَّرت، وماتـشكرت عن شئ، وحتى إن دواب البحر تسمن وتشكر شكراً من لحومهم ودمائهم، ويهبط نبى الله عيسى عليه السلام وأصحابه إلى الأرض، فلا يجدون فى الأرض مـوضع شبـر إلا ملأه زهمهم ونتنهم أى ريحـهم من الجيف، فـيؤذون الناس بنتنهم أشد من حياتهم، فيستغيثون بالله، فيبعث الله ريحاً يمانية غبراء، فتصير على الناس غماً ودخـاناً، ويقع عليهم الزكمة ويكشف مابهم بعـد ثلاثة أيام، وقد قذفت الريح جيفهم فى البحر».

ولفظ صحيح مسلم « فيرغب نبى الله عيسى وأصحابه إلى الله، فيرسل الله تعالى طيراً كأعناق البخت، فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله، ثم يرسل الله مطراً لايكن منه بيت مدر ولادبر، فيغسل الأرض حتى يتركها كالزلفة، ثم يقال للأرض: انبتى ثمرك ودرى بركتك، فيومئذ تأكل العصابة من الرمانة، ويسـتظلون بقحفها، ويبارك فى الرِّسل يعنى اللبن - حتى إن اللقحة من الإبل لتكفى الفئام من الناس - أى الجماعة - واللقحة من البقر لتكيف القبيلة من الناس، واللقحة من الغنم لتكفى الفخذ من الناس » الحديث. ويوقد المسلمون من قسى يأجوج ومأجوج ونشابهم وأترستهم سبع سنين.

قوله: كالزلفة يروى بالفـاء وبالقاف قال القاضى عياض: ضبطناه بالوجـهين عن متقنى شيوخنا وبهـما ضبطه أهل اللغة، وفسـرها ابن عباس رضى الله تعالى عنهـما بالمرآة وقاله ثعلب وأبو زيد.

وقال بعضهم هو بالفاء الإجانة الخضراء. وقـيل الصحفة. وتفسير ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أظهروا وبالله التوفيق.

قال النواس بن سـمعان رضى الله تعالى عنه قـال: قال رسول الله ﷺ « فبـينما هم يعنى عيسى وأصـحابه كذلك، أى فى ذلك العيش الرغـد، وقد هلك عدوهم إذ بعث الله تعالى ريحاً طيبـة فتأخذهم تحت آباطهم فتقبض روح كل مـؤمن وكل مسلم، ويبقى شرار الناس يتهارجون فيها تهارج الحمر فعليهم تقوم الساعة » والله أعلم.

العلامة الخامسة: من العلامات العظمى، هدم الكعبة المشرفة وإليها الإشارة بقوله (كـ) ما أن أمر يأجوج ومأجوج حق ثابت يجب أعتقاده ووقوعه فكذا يجب اعتقاد وقوع (هدم الكعبة) المعظمة وسلب حليها، وإخراج كنزها لما أخرج البخارى ومسلم والنسائى من حديث أبى هريرة رضى الله تعالى عنه، عن النبى ﷺ أنه قال « يخرب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة» وأخرج الإمام أحمد من حديث ابن عمر رضى الله تعالى عنهما نحوه وزاد « ويسلبها حليها ويجردها من كسوتها، فلكأنى أنظر إليه أصليع أفيدع يضرب عليها بمساحته أو معولة »

وأخرج الأزرق عنه « يجيش البحر عن فئة من السودان ثم يسيلون سيل النمل حتى ينتهى إلى الكعبة فيخربونها، والذى نفسى بيده أنى لكأنى أنظر إلى صفته فى كتاب الله تعالى أفيحج، أصيلع أفيدع، قائماً يهدمها بمساحته أو معوله ».

كما فى حديث حذيفة مرفوعاً « كأنى أنظر إلى حبشى أحمر الساقين أزرق العينين، أفطس الأنف كبير البطن، وقد صف قدميه على الكعبة هو وأصحابه ينقضونها حجراً حجراً ويتداولونها حتى يطرحوها فى البحر» قوله: ذو السويقتين أى صاحبهما وهما تصغير الساقين، أى دقيق الساقين، وقوله: أصيلع تصغير الأصلع، وهو من ذهب شعر مقدم رأسه، والأفيدع: تصغير أفدع وهو من فى يده اعوجاج: وجاء فى بعض روايات الحديث أصعل أى صغير الرأس، وفى بعضها أصمع أى صغير الأذنين: وقيل: كبير الأذن والأفيحج: تصغير أفحج المتباعد الفخذين.

وأخرج الإمام أحمد من حديث أبى هريرة رضى الله تعالى عنه مرفوعا « يبايع الرجل بين الركن والمقام، ولن يستحل هذا البيت إلا أهله فإذا استحلوه فلا تسأل عن هلكة العرب، ثم تجئ الحبشة فيخربونه خراباً لايعمر بعده أبداً، وهم الذين يستخرجون كنزه» فإن قلت: وقد ورد وتقدم أن المهدى هو الذى يخرج كنز الكعبة، وفى هذا الحديث: أن ذوى السويقتين هو الذى يخرج كنزها، ولعمرى أنه لسؤال وارد، واستشكال مضاد، ألم أر من تقدمنى من نقب عن هذا السؤال، ولاأجاب. ولعل الجواب: أن المهدى يستخرج الكنز المذكور ثم بعد ذلك يجتمع فى خزانة الكعبة فى مدة المهدى، ومدة سيدنا عيسى إلى أن يخربها ذو السويقتين، مال كثير سيما مع كثرة المال وانكباب أهل ذلك الوقت على أنواع القربات مع كثرة الحجاج، وهذا ممكن أويكون المهدى كشفه وظهر عليه وأخذ منه عوزه، وترك باقيه، والله أعلم.

فإن قلت: تسلط هذا العدو الخبيث على هدم بيت الله المعظم ينافى قوله تعالى : ﴿ **أَوَلَم يروْا أَنَّ جَعَلْنَا حرَمًا آمِنًا** ﴾ [العنكبوت: ٦٧] ﴿ **وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ** ﴾ [الحج: ٢٥]: وقد حماه سبحانه من أصحاب الفيل وجيرانه حينئذ كفار مشركون، فكيف يسلط عليه الحبشة، وهو قبلة المسلمين، وهم جيرانه؟

فالجواب: ماذكره الحافظ ابن حجر فى فتح البارى، وهو أن يقال: قد أشار النبى ﷺ للجواب فى الحديث فى قوله: ولن يستحل هذا البيت إلا أهله، ففى زمن الفيل ماكانوا قد استحلوه فمنعه منهم، وأما الحبشة فلا يهدمونه إلا بعد استحلال أهله له مراراً وقد استحله جيش يزيد بن معاوية بأمره، ثم الحجاج زمن عبد الملك بأمره، فسلط الله عليه القرامطة، فقتلوا من المسلمين فى المطاف مالا يحصى، وقلعوا الحجر ونقلوه لبلادهم فلما وقع استحلاله لأهله مراراً مكَّن غيرهم من ذلك عقوبة لهم على أنه ليس فى الآية استمرار الأمن المذكور فيه. إنتهى. ملخصاً.

قلت: والذى يظهر لى أن هذا العالم مشعر بالاضمحلال، كما ورد الشرع بالأمن، ورد باضمحلال هذا العالم ودماره، فأشعر أن الأمن حياً إلى غاية أشار الشارع إليها، فوجب تصديق الأمرين كل واحد زمنه، حسبما هو مقتضى الشرع.

فإن قلت: هل هدم الكعبة زمن عيسى عليه السلام أو بعده؟ فهذا مما اختلف فيه العلماء والظاهر أن هدم البيت بعد موت سيدنا عيسى عليه السلام وهبوب الريح التى يموت بها مَنْ في قلبه ذرة من إيمان.

وقيل: إن هدم الكعبة بعد خروج الدابة: وقيل: بعد الآيات كلها قرب قيام الساعة حين ينقطع الحج ولايبقى فى الأرض من يقول الله، وهذا أليق بكرم الله، والذى تقتضيه الحكمة، فإن البيت قبلة الإسلام والحج إليه أحد أركان الدين ومبانيه، فالحكمة تقتضى بقاءه ببقاء الدين، فإذا جاءت الريح الطيبة، وقبضت المؤمنين فبعد ذلك يهدم البيت ويرتفع القرآن.

قال الشيخ مرعى فى بهجته: جاء عن الثقاة يمكث الناس ماشاء الله فى الخصب والدعة بعد هلاك يأجوج ومأجوج، وطلوع الشمس وخروج الدابة قال له: ثم يخرج الحبشة، وعليهم ذو السويقتين فيخربون مكة ويهدمون الكعبة ثم لاتعمَّر بعدها أبداً، وهم الذين يستخرجون كنوز مصر.

قال: ثم يجتمع بقايا المسلمين فيقاتلونهم فيقتلونهم ويسبونهم حتى يباع بعباءة. فبين أن

هدم الكعبة بعد الآيات كلها وإن كان لايحل من تأمل والله أعلم.

فائدتان

الأولى: فى ذكر خروج القحطانى والجهجاه والهيثم والمقعد، وهؤلاء بعد موت المهدى.

أخرج أبو الشيخ من حديث **أبى هريرة مرفوعاً** « ينزل عيسى ابن مريم عليه السلام فيقتل الدجال، ويموت فيستخلفون ـ يعنى بعد وفاة سيدنا عيسى بأمره ـ رجلاً من بين تميم يقال له **المقعد**، فإذا مات المقعد لم يأت على الناس ثلاث سنين حتى يرفع القرآن من صدور الرجال» ويبدأ النقص ليوافق مايأتى من بقايا الدين مدة مديدة بعد عيسى عليه السلام.

والظاهر أن هذا **التميمى الملقب بالمقعد**، هو شعيب بن صالح أحد الأمراء والوزراء للمهدى، **بل هو أحد المهدين**، والظاهر أنه يبقى أميراً فى نواحى الشرق ثم يستدعى عليه السلام بعد وفاة المهدى عند خروج ذى السويقتين على مكة ونواحيها فيقتلهم ويسبيهم حتى يباع الحبشى بالعباءة ثم عند وفاة المسيح يوصى له بالأمر لما يرى فيه من الكفاءة والقيام بأعباء الدين.

ولم أر هذا التحرير لغيرى فإن لم يكن شعيب فهو أحد الأمراء أو الذى إمارة الشرق بعد شعيب إن كان قد مات، **ويكون هذا يلقب بالمقعد**.

وأخرج مسلم فى صحيحه عن **أبى هريرة** رضي الله عنه مرفوعاً « لاتذهب الأيام والليالى حتى يملك الناس رجل يقال له الجهجاه».

وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عنه مرفوعا « لاتقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يسوق الناس بعصاه » .

وأخرج نعيم بن حماد عن سليمان بن عيسى قال: بلغنى أن المهدى يمكث أربعة عشر سنة ببيت المقدس، ثم يموت، ثم يكون من بعده رجل من قوم تُبَّع، يقال له المنصور يعنى **القحطانى**، يمكث ببيت المقدس إحدى وعشرين سنة.

قلت وهذا لايلتئم أن يكون هو شعيب بن صالح التميمى، لأن بنى تميم ليسوا من اليمن ولا من قحطان، وإن وافقه فى تلقيبه بالمنصور، ثم يقتل القحطانى ثم يملك المولى يعنى الجهجاه، ويمكث ثلاث سنين، ثم يُقتل ثم يملك بعده الهيثم المهدى ثلاث سنين وأربعة أشهر وعشرة أيام.

وهذا المهدى غير الأول، وكأنه لقب بذلك لحسن سيرته وصفاء سريرته.

والحاصل أن الواجب اعتقاده من ذلك مادلت عليه الأخبار الصحيحة من وجود المهدى الذى يخرج الدجال وسيدنا عيسى فى زمنه، ويصلى عيسى عليه السلام خلفه صلاة الفجر، وهو المراد حيث أطلق المهدى.

وأما المذكورون قبله فلم يصح فيهم شئ والذى من بعده فأمراء صالحون وهو خيرهم وأفضلهم. والمراد غير سيدنا عيسى فإنه رسول كريم من أولى العزم، وهو آية وعلامة وحده.

الثانية: جاء فى الحديث الشريف أنه عليه الصلاة والسلام قال« **حجوا قبل أن لاتحجوا، فوالذى** فلق الحبة وبرأ النسمة ليرفعن هذا البيت من بين أظهركم حتى لايدرى أحدكم أين مكانه بالأمس».

وأخرج البيهقى من حديث أبى هريرة رضي الله عنه مرفوعاً « **حجوا قبل أن لاتحجوا تقعد أعرابها على أذناب أوديتها، فلا يصل إلى الحج أحد** ».

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: **قال رسول الله** صلى الله عليه وسلم: « **استمتعوا بهذا البيت فقد هدم مرتين ويرفع فى الثالثة**».

قال ابن خزيمة: **قوله« ويرفع فى الثالثة » يريد بعد الثالثة، والله أعلم.**

العلامة السادسة: ماأشار إليها بقوله (**وإن منها**) أى من أشراط الساعة التى ورد النص **بها (آية الدخان)** كرمان وغراب، لغتان. قال العلماء: آية الدخان ثابتة بالكتاب والسنة. أما الكتاب فقوله تعالى﴿ **فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ** ﴾[الدخان: ١٠] قال ابن عباس وابن عمر رضى الله تعالى عنهم والحسن وزيد بن على رحمهم الله تعالى: **هو دخان قبل** قيام الساعة، يدخل فى أسماع الكفار والمنافقين، ويعترى المؤمن كهيئة الزكام وتكون الأرض كلها كبيت أوقد فيه، ولم يأت بعد، وهو آت.

وأما السنة : فأخرج مسلم من حديث حذيفة بن أسيد رضى الله تعالى عنه قال: «طلع علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نتذاكر فقال: ماتذاكرون؟ قالوا: الساعة يارسول الله. قال إنها لن تقوم حتى يروا قبلها عشر آيات» فذكر منها الدخان. ورواه الترمذى وابن ماجه « وإنه يمكث فى الأرض أربعين يوماً ».

وفى حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه « أن من أشراط الساعة دخاناً يملأ مابين المشرق والمغرب، يمكث فى الأرض أربعين يوماً، فأما المؤمن فيصيبه منه شبه الزكام، وأما الكافر فيكون بمنزلة السكران، يخرج الدخان من فيه ومنخريه وعينيه وأذنيه ودبره» رواه الطبرانى.

وقيل: إن الدخان مرو أنه الجوع الذى كان حال بين أبصار قريش وبين السماء. ففى الصحيحين عن مسروق قال: كنا جلوساً عند عبد الله بن مسعود وهو مضطجع بيننا، فأتاه رجل فقال: ياأبا عبد الرحمن: إن قاصا عند أبواب كندة، يقص ويزعم أن آية الدخان تجئ فتأخذ أنفاس الكفار ويأخذ المؤمن منها كهيئة الزكام، فقال عبد الله، وجلس وهو غضبان: ياأيها الناس اتقوا الله من علم منكم شيئاً فليقل بما يعلم، ومن لم يعلم فليقل الله أعلم. فإنه أعلم لأحدكم أن يقول لما لايعلم: الله أعلم. فإن الله تعالى قال لنبيه ﷺ ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾[ص:٨٦] أن رسول الله ﷺ لما رأى من الناس إدباراً قال « اللهم سبع كسبع يوسف» وفى رواية لما دعا قريشاً كذبوه واستعصوا عليه فقال« اللهم أعنى عليهم بسبع كسبع يوسف » فأختهم سنة حصت كل شئ حتى أكلوا الجلود والميتة من الجوع، وينظر إلى السماء أحدهم فيرى كهيئة الدخان من الجوع، الحديث. قال العلامة الشيخ مرعى كغيره: كلام ابن مسعود رضى الله تعالى عنه موافق لظاهر الآية، فلا دليل فيها لما ذهب إليه الجمهور، وإنما دليلهم السنة، وكأن ذلك لم يبلغ ذلك ابن مسعود رضى الله تعالى عنه، حين أنكر ذلك مع أنه ورد عنه أيضاً أنه كان يقول: هما دخانان مضى واحد، والذى بقى يملأ مابين السماء والأرض ولايجد المؤمن منه إلا كالزكمة، وأما الكافر فيشق مسامعه، فيبعث الله عند ذلك الريح الجنوب من اليمن فتقبض روح كل مؤمن ويبقى شرار الناس. وورد ذلك من عدة طرق عن جماعة من الصحابة مرفوعاً وموقوفاً، قال الحافظ ابن حجر فى فتح البارى: وتضافر هذه الأحاديث يدل على أن لذلك أصلا. والله أعلم.

العلامة السابعة: من علامات الساعة وأشراطها رفع القرآن العظيم من الصدور والسطور وإليه الإشارة بقوله:

وإنه يذهبُ بالقرآن

(وإنه) أى الشأن والأمر (يذهب) بضم التحتية مبنياً لما لم يسم فاعله أى يذهب الله تعالى(بالقرآن) العظيم من المصاحف والصدور، وهى من أشد معضلات الأمور، فأخرج الديلمى من حديث أبى هريرة رضى الله تعالى عنه مرفوعا « يسرى على كتاب الله ليلاً فيصبح الناس وليس منه آية ولاحرف، فى جوف إلا نسخت » .

قال فى البهجة: قرر الأئمة أنه يرفع أولاً من المصاحف وذلك أنهم يبيتون فيصبحون، وليس حرف مكتوب فيها، ثم يرفع من الصدور عقب ذلك لأعجل زمن حتى لايكون شيئاً

منه محفـوظاً حتى يقول الحافظ للآخر وقد سـأله الآخر: كنت أحفظ شيئاً نـسيته لاأدرى ماهو.

وفى الحديث « أكثر من الطواف بالبـيت قبل أن يرفع وينسى الناس مكانه، وأكثروا من تلاوة القرآن قبل أن يرفع. قيل: وكيف يرفع مافى صدور الرجال. قال: يسرى عليهم ليلاً فيصبحون منه فقراء، وينسون قول لا إله إلا الله».

وأخرج ابن ماجه بسند قوى والحاكم والبيـهقى والضياء عن حذيفة رضى الله تعالى عنه قال: يدرس الإسـلام كما يدرس وشى الثوب حـتى مايدرى ماصيـام، ولاصلاة ولانسك ولاصدقة، ويسرى على كتاب الله فى ليلة فلا يبقى منه آية ويبقى طوائف من الناس الشيخ والعجوز يقولون: أدركنا آباءنا على هذه الكلمة لا إله إلا الله فنحن نقولها. والله أعلم.

العلامـة الثامنة:من علامات السـاعة وأشراطها طلوع الشـمس من مغربها وأشـار إليها بقوله:

طلوع شمس الأفق من دبور

(طلوع شمس الأفق) قال الله تعالى ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ﴾ [إبراهيم:٣٣]

وأخرج الطبـرانى فى الأوسط وأبو الشيخ وابن مردويه عـن أنس رضى الله تعالى عنه قال: حدثنى رسول الله ﷺ أن الشمس والقمر والنجوم خلقن من نور العرش.

وأخرج أبو الشيخ عن سلمان الفـارسى رضى الله تعالى عنه قال« خلق الله الشمس من نور عـرشه وكـتب فى وجـهها: إنى أنا الله لا إله إلا أنا، رضـائى كلام وغـضبى كـلام ورحمتى كلام وعذابى كلام، وخلق القمر من نور حجابه الذى يليه وكتب فى وجهه إن أنا الله لا إله إلا أنا صنعت القمر، وخلقت الظلمـات والنور: فالظلمة ضلالة والنور هدى أى أضل من شئت وأهدى من شـئت، وكتب فى بطنه إنى أنا الله لا إله إلا أنا، خلقت الخـير والشر بقدرتى وعزتى، أبتلى بها من شئت من خلقى. والمراد بالأفق هنا ماظهر من نواحى الفلك.

وقول(من دبور) بفتح الدال المهملة وضم الموحدة مخففة فراء بعد الوار، جهة الغرب، لأنها تدابر باب الكعبة وتسمى الريح التى مهبها من جهة الغرب دبوراً.

قال العلـماء رحمـهم الله تعالى: طلوع الشـمس من مغـربها ثابت بالسنة الصـحيـحة والأخبار الصريحة وبالكتاب المنزل على النبى المرسل قال تعالى ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لا يَنفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا ﴾[الأنعام:١٥٨]. أجمع المفسرون أو جمهورهم على أن طلوع الشمس من

مغربها، لم ينفعه تحديد الإيمان ولم ينفعه فعل بر من جميع الأعمال لأنه فقد الإيمان الذى هو أساس لما عداه من تلك الأعمال فلا ينفعه إيمانه الحادث حينئذ، ولاماصدر منه قبل ذلك من الإحسان، وعمل البر من صلة الأرحام وإعتاق الرقاب. وقرى الأضياف وغير ذلك مما هو من مكارم الأخلاق لأنها على غير أساس. قال تعالى ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ [إبراهيم: ١٨] والإيمان الحادث فى ذلك الوقت ليس مقبولاً حتى يكون من باب أسلم على ماسلف من الخير، فهؤلاء لاينفعهم لا بانضمام الأفعال اللاحقة ولا بانضمام أعمالهم السابقة لفقد الأساس الذى هو الإيمان، وأما من تحقق اتصافه بالإيمان الشرعى من قبل ذلك الوقت، واستمرار إيمانه إلى طلوع الشمس من مغربها، فهو لايخلو إما أن يكون مؤمناً مقيماً على المعاصى، لم يكسب فى إيمانه خيراً ومؤمناً مخلطاً أو مؤمناً تائباً عن المعاصى كاسباً فى إيمانه خيراً مااستطاع.

فالأول: ينفعه إيمانه السابق المجرد عن الأعمال لأصل النجاة، فلا يخلد فى النار وإن دخلها بذنوبه، فالإيمان السابق ينفعه، وينفعه الإيمان أيضاً لأنه نور على نور، ولكن لاتنفعه التوبة عن المعاصى، ولاتقبل منه حسنة يعملها، بعد ذلك.

والثانى: ينفعه إيمانه السابق لأصل نجاته وينفعه ماقدمه من الحسنات لدرجاته وينفعه إيمانه يومئذ أيضاً لما مر. ولكن لاتنفعه توبته حينئذ من التخليط ولاحسنة يعملها بعد ذلك مالم يكن عملها من قبل. واستمر على عملها من نحوصلاة وقراءة وذكر كان يعمله.

والثالث: ينفعه إيمانه السابق لأجل نجاته وتنفعه أعماله السابقة الصالحة لدرجاته، وينفعه إيمانه ذلك اليوم أيضاً وينفعه مايعمله بعد ذلك من الحسنات التى سبق منه أمثالها.

وهذا التفصيل مما دلت عليه الآية الكريمة وبينته الأحاديث الواردة فى تفسير الآية المذكورة من ذلك ماأخرجه الشيخان وغيرهما من حديث أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ « لاتقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون، فذلك حيث لاينفع نفس إيمانها».

وأخرج الإمام أحمد وعبدالله بن حميد ومسلم والحاكم وابن مردويه من حديث أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أن النبى ﷺ قال « بادروا بالأعمال ستا طلوع الشمس من مغربها، و الدجال، والدخان، ودابة الأرض، وخويصة أحدكم، وأمر العامة » قال قتادة: خويصة أحدكم: الموت وأمر العامة الساعة.

وأخرج ابن مردويه من حديث ابن عباس رضى الله تعالى عنه مرفوعاً « خلق الله باباً للتوبة ـ وفيه ـ فذلك الباب مفتوح منذ خلقه الله إلى صبيحة تلك الليلة عند طلوع الشمس والقمر من مغربها ـ إلى أن قال ـ فإذا أغلق باب التوبة لم يقبل للعبد بعد ذلك توبة ولم تنفعه حسنة يعملها بعد ذلك إلا ماكان قبل ذلك، فإنه يجرى لهم وعليهم بعد ذلك ماكان يجرى لهم، قيل ذلك، فذلك قوله تعالى ﴿ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨].

وله شواهد من الأحاديث الصحاح ويوضحه مانقله ابن هشام فى مغنى اللبيب عن ابن عطية وابن الحاجب: أن الآية من حذف المعطوف أى لاينفع نفساً إيمانها وكسبها، لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيراً، والآية من اللف والنشر. ومفهومه أنها إذا كانت كسبت ينفعها كسبها المماثل للسابق وهو المطلوب.

ونلخص من مجموع الأحاديث المذكورة ومافى معناها أن الشمس إذا طلعت مغربها لاينفع الإيمان المحدث فى ذلك اليوم. لمن كان كافراً أو مشركاً ولا التوبة المحدثة فيه، لمن كان مخلطاً ولا أعمال البر المحدثة فيه لمن لم يكن يعلمها قبل ذلك اليوم، وأما من كان قبل ذلك مؤمناً فإن الإيمان المجرد عن الأعمال الصالحة السابقة على ذلك اليوم ينفع صاحبه لأجل نجاته، وإيمانه المتجدد يومئذ ينفعه لأنه نور على نور، وإن لم تقبل توبته عن سيئاته، فإن الإيمان السابق مع التخليط ينفعه مع ماتقدم له من الأعمال الصالحة التى كان يعملها وإنما الممنوع قبول توبته عن تخليطه، وقبول مالم يكن متصفاً به من الإيمان وأعمال البر، قبل ذلك اليوم. والضابط: أن كل بر محدث يكون السبب فى إحداثه رؤية الآية ولم يسبق من صاحبه مثله لاينفع سواء كان من الأصول أو الفروع، وكل بر ليس كذلك يكون صاحبه كان عاملاً به قبل رؤية الآية، ينفع.

وهذا التحقيق نبه على مثله الإمام العلامة ابن مفلح فى الآداب الكبرى. وقد ورد فى طلوع الشمس من مغربها عدة أحاديث منها ماتقدم.

ومنها ماأخرجه ابن مردويه عن حذيفة رضى الله تعالى عنه. قال: سألت رسول الله ﷺ ماآية طلوع الشمس من مغربها قال« تطول تلك الليلة حتى تكون قدر ليلتين» وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما« قدر ثلاث ليال » فيستيقظ الذين يخشون ربهم فيصلون ويعملون كما كانوا ولايرون إلا قد قامت النجوم مكانها، ثم يرقدون ثم يقومون ثم يقضون صلاتهم، والليل كأنه لم ينقض فيضطجعون حتى إذا استيقظوا والليل مكانه

حتى يتطاول عليهم الليل، فإذا رأوا ذلك خافوا أن يكون ذلك بين يدى أمر عظيم، ففزع الناس وهاج بعضهم فى بعض قالوا: ماهذا؟ فيفزعون إلى المساجد فإذا اصبحوا طال عليهم طلوع الشمس، فبينما هـ ينظرون طلوعها من المشرق إذ هى طالعة عليهم من مغربها، فيضج الناس ضجة واحدة، حتى إذا صارت فى وسط السماء رجعت وطلعت من مطلعها» **قال الحليمى من الشافعية: أول الآيات الدجال ثم نزول عيسى ثم طلوع الشمس من مغربها.**

قلت: والذى يظهر والله أعلم أن أول الآيات خروج المهدى، ثم الدجال،ثم نزول عيسى، ثم خروج يأجوج ومأجوج،ثم هدم الكعبة، ثم الدخان، ثم ارتفاع القرآن، ثم طلوع الشمس من مغربها، فى يومها أو قريب منها.

وهذا هو النسق الذى مشينا عليه والله أعلم، وأما السفيانى فإنه لم يعد خروجه آية وإنما هو علامة لخروج المهدى.

العلامة التاسعة: خروج دابة الأرض وإليها الإشارة بقوله:

كذات أجياد على المشهور

(كذات) أى صاحبه (أجياد) وأجياد كما فى القاموس اسم أرض بمكة أو جبل بها ويسم جياد، بغير ألف قبل الجيم. وقوله (على) القول (المشهور) من إضافتها إلى أجياد **لأنها تخرج منه**، ففى حديث أبى هريرة رضى الله تعالى عنه مرفوعاً « تخرج دابة الأرض من أجياد فيبلغ صدرها الركن اليمانى، ولم يخرج ذنبها بعد، وهى دابة ذات قوائم» .

وعنه أيضاً أنه أراه النبى ﷺ المكان الذى تخرج منها الدابة. وفى حديث بريدة رضى **الله تعالى** عنه. قال: ذهب بى رسول الله ﷺ « إلى موضع بالبادية قريب من مكة فإذا بأرض يابسة حولها رمل، فقال ﷺ « تخرج الدابة من هذا الموضع ».

والحاصل: أن فى المحل الذى تخرج منه الدابة أقوال أشهرها: أجياد كما أشرنا إليه.

قال الحافظ السخاوى: وخروجها آخر الزمان من مكة، أما من صدع الصفا وبه جزم غير واحد، أو من المروة أو من شعب أجياد، أو من بعض أودية تهامة، أو من وراء مكة أو مدينة قوم لوط أهـ.

وقيل: بل أول خروجها من أقصى اليمين، وهذا أخرجه الحاكم فى المستدرك عن أبى **الطفيل** عن سروعة عن النبى ﷺ قال « يكون للدابة ثلاث خرجات فى الدهر، تخرج فى أول خرجة فى أقصى اليمين فينتشر ذكرها بالبادية ولايدخل ذكرها القربة ـ يعنى مكة ـ

ثم تمكث زماناً طويلاً. ثم تخرج خرجة أخرى دون تلك فيعلو ذكرها فى أهل البادية، ويدخل ذكرها القرية، ثم بينما الناس فى أعظم المساجد حرمة وأحبها إلى الله وأكرمها على الله - يعنى المسجد الحرام - ولم يرعهم إلا وهى فى ناحية المسجد مابين الركن الأسود إلى باب بنى مخزوم فيرفض الناس عنها، وتثبت عصابة من المسلمين عرفوا أنهم لن يعجزوا الله فتنفض عن رأسها التراب فتجلو عن وجوههم حتى كأنهم الكواكب الدرية » الحديث.

وقد جمع بعضهم بين الروايات بأن للدابة ثلاث خرجات ففى بعضها تخرج من مدينة قوم لوط، ويصدق عليها أنها من أقصى البادية. وفى بعضها تخرج من بعض أودية تهامة: ويصدق عليها أنها من وراء مكة، وأنها من اليمين لأن الحجاز يمانية ومن ثم قيل للكعبة يمانية، والمرة الثالثة تخرج من مكة، وهى من كبرها، وعظم جثتها وطولها يمكن أن تخرج من بين الصفا والمروة، وأجياد. فإنها تمتد مقدار ثلاثة أيام وأكثر. وحينئذ يصدق عليها أنها خرجت من المروة ومن الصفا ومن أجياد ومن المسجد، ومن البادية، التى بقرب مكة، وحدد خرقاً للعادة فى صورة متباينة، على أنه ورد فى رواية كما فى حياة الحيوان أنه يخرج من كل بلد دابة مما هو مثبوت نوعها فى الأرض فليست بواحدة، ويكون قوله: دابة اسم جنس، وورد أن خروجها ليلة جمع والناس سائر إلى منى فينصدع الصفا، فتخرج منه، وقيل: تخرج من الحجر. وقيل من أرض الطائف، ومعها عصا موسى وخاتم سليمان عليهما السلام لايدركها طالب ولايعجزها هارب. فخروج الدابة المذكور ثابت فى الكتاب والسنة أما الكتاب فقوله تعالى ﴿ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الأَرْضِ ﴾ [النمل: ٨٢].

وأما السنة فكثيرة منها مافى حديث حذيفة رضى الله تعالى عنه أن النبى ﷺ قال: «دابة الأرض طولها ستون ذراعاً لايدركها طالب ولايفوتها هارب» وفى حديث أبى هريرة رضي الله عنه مرفوعاً «تخرج دابة الأرض من أجياد فيبلغ صدرها الركن اليمانى ولم يخرج ذنبها بعد» وهى دابة ذات قوائم، وقال أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه: تخرج ثلاثة أيام والناس ينظرون فلا يخرج إلا ثلثها.

وروى: فلا يخرج إلا رأسها ويبلغ عنان السماء وتبلغ السحاب. وقال أبو هريرة رضى الله تعالى عنه: فيها من كل لون ومابين قرنيها فرسخ للراكب، وقال وهب: وجهها وجه رجل وسائر خلقها كخلق الطير. قال ابن جرير: رأسها رأس ثور وعينها عين خنزير وأذنها أذن فيل، وقرنها قرن أيل وعنقها عنق نعامة وصدرها صدر أسد، ولونها لون نمر، وخاصرتها خاصرة هرة، وذنبها ذنب تيس، وقوائمها قوائم بعيرين كل مفصلين اثنا

عشر ذراعاً بذراع آدم عليه السلام.

وقال كعب: صوتهـا صوت حمار. وأخرج الإمام أحمد والترمـذى وابن ماجه والحاكم من حـديث أبى هريرة رضى الله تعـالى عنه قـال: قال رسـول الله ﷺ « تخـرج الدابة ومعها خاتم سليمان، وعصا موسـى فتجلو وجه المؤمن بالعصا وتختم أنف الكافر بالخاتم، حتى أن أهل الخوان ليجتمعون فيقول: هذا يامؤمن ويقول هذا : ياكافر » .

قـال العلماء: وتنـادى بأعلى صوتهـا ﴿ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لا يُوقِنُونَ ﴾ وتسم الناس المؤمن والكافر، فأمـا المؤمن فيرى وجهـه كأنه كوكب درى ويكتب بين عينيـه مؤمن، وأما الكافر فتنكت بين عينيـه نكتة سوداء ويكتب بين عينيه كافر، فلا يبـقى مؤمن إلا نكتته فى مسجده بعصا مـوسى نكتة بيضاء فتفشو تلك النكتة حتى يبيض لهـا وجهه، ولايبقى كافر إلا نكتت فى وجهـه نكتة سوداء فى خـاتم سليمان فـتفشـو تلك النكتة، حتى يسـود لها وجهه، ويتـعوذ بعض الناس عنها بالصلاة فـتأتيه من خلفه، فتـقول: يافلان الآن تصلى، فيـقبل عليهـا فتسـمه فى وجـهه، ثم تنطلق ويشتـرك الناس فى الأموال ويصطحـبون فى الأسفار، يعرف المؤمن من الكافر وبالعكس، حـتى إن المؤمن ليقول للكافر: ياكافر، اقض حقى والكافـر يقول للمؤمن: اقض حـقى، وتستقـبل المشرق فتـصرخ صرخـة تنفذها ثم تستقبل الشام فتصرخ صرخة تنفذها، ثم المغرب واليمن كذلك.

وأخرج نعـيم بن حماد فى الفتن والحاكم فـى المستدرك عن ابن مسـعود رضى الله عنه قال: يلبثون - يعنى الناس بعد يأجوج ومأجوج - حـتى تطلع الشمس من مغربها، فحقت الأقلام وطويت الصحف، ولايـقبل لأحد. توبة، ويخر إبليس، ساجـداً ينادى إلهى مُرنى أسجد لمن شئت، وتجتـمع إليه الشياطين فتقول: ياسيدنا إلى من تفـزع؟ فيقول: إنما سألت ربى أن ينظرنى إلى يوم الوقت المعلوم، وقد طلعت الشمس من مـغربها، فهذا يوم الوقت المعلوم؟ وتصـير الشـياطين ظاهرة فـى الأرض حتى يقـول الرجل: هذا قرينى الذى كـان يغوينى، الحمـد الله الذى أخزاه، ولايزال ، إبليس ساجدا باكـياً حتى تخرج الدابة فـتقتله وهو ساجد.

قال الـعلماء فى سـؤال إبليس أن ينظر إلى يوم البـعث مكر منه وخداع، وجـهل برب العاليـن، فإنه إنما حاول أن لايذوق الموت لأن يوم الـبعث ليس بيوم مـوت، وإنما هو يوم بعث ونشور وإحياء وبعثرة لما فى القبور، فإذا كان الأمر كذلك فكيف يقبض إذ ذاك إبليس أو غيـره وإنما ذلك اليـوم الجزاء فـأجابه العليم ا لحكيم بأنـه منظر إلى يوم الوقت المعلوم،

وهذا أصح من قــول كعب الأحــبار لأن إبليس ربما يذوق الموت يــوم الحشــر. وكمــا ذكر الكسائى فى العرائس.

فـائـدة

روى عن عبدالله بن عــمرو بن العاص ﷺ : أن الدابة هى الجساسة المذكــورة فى قصة تميم الدارى رضى الله تعالى عنه، وأنهــا فى جزيرة بحر القلزم وعن ابن عــباس رضى الله تعالى عنهما: أنها الثعبان الذى كان فى بئر الـكعبة فاختطفه العقاب حين أرادت قريش بناء البيت الحــرام، وأنه ألقاها بالحجون. وقــيل: رمى بها فى أجياد فــالتقمــتها الأرض، والله أعلم.

العاشرة: خروج النار التى تخرج من قعر عدن تحشر النــاس إلى محشرهم، وإليها أشار بقوله:

وآخرُ الآيات حشرُ النار كما أتى فى مُحكم الأخبار

(وآخر الآيات) العظام (حــشر النار) للناس من المشرق إلى المغــرب ومن اليمن إلى مهــاجر إبراهيم عليه الســلام وهو أرض الشام (كمــا أتى) ذلك مصرحــا به (فى محكم الأخبار) وصحيح الآثار.

فإن قلت: فى قــولك وآخر الآيات مصــادمة للحديث الصــحيح، الذى أخرجــه الإمام أحمد والبخــارى فى صحيحه، والنسائى عن أنس بن مالــك رضى الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ « **أمــا أول اشراط الســاعة فنار تخــرج من المشــرق، فتــحشــر الناس إلى المغرب» الحديث.**

قلت: تقدم فى حديث حذيفة بن اسيد مرفوعــاً « لن تقوم الساعة حتى يرى قبلها عشر آيات ـ فذكر الدخان، و الدجال، والدابة، وطلوع الشمس من مغربها، ونزول عيسى عليه السلام، وخــروج يأجوج ومــأجوج، وثلاث خــسوفــات قال: وآخر ذلك نار تــخرج من اليمن، تطارد الناس إلى محشرهم» .

وقد جمع بعض العلمــاء بينهما بأن آخرِّية خروج النار بــاعتبار ماذكر مــعها من الآيات وأوليتهــا بأنها من أول الآيات، التى لاشئ بعدها من أمــور الدنيا أصلاً، بل يقع بالتــهائها النفخ فى الصور، خــلاف ماذكر مــعها فــإنه يبقى بعد كل آية منهــا أشياء من الدنيــا ذكره الحافظ السخاوى.

وذكر غيره: بأن النار ناران، إحداهما تحشر الناس من المشرق إلى المغرب.

والثانية: تخرج من اليمن فتطرد الناس إلى المحشر الذى هو أرض الشام، فلعل إحدى النارين فى أول الآيات والأخرى فى آخرها، وحينئذ فلا حاجة إلى الجمع الذى ذكره السخاوى وإن لم يكن فى علم الله إلا نار واحدة، فجمع السخاوى موجه، وعليه فالجمع بين حديث نار قبل يوم القيامة من حضر موت، فتسوق الناس. وفى لفظ: تخرج نار من قعر عدن أَبْيَنَ ترحل الناس إلى المحشر. وحديث: نار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب، فإنه يقال: إن الشام الذى هو المحشر مغرب بالنسبة إلى المشرق فيكون ابتداء خروجها قعر عدن من اليمن، فإذا خرجت انتشرت إلى المشرق، فتحشر أهله إلى الغرب الذى هو الشام، الذى هو المحشر.

ولفظة أبين بوزن أحمر اسم الملك الذى بناها. وفى النهاية: عدن أبين مدينة معروفة باليمن أضيفت إلى أبين بوزن أبيض وهو رجل من حمير عَدَنَ بها أى أقام. انتهى.

وأخرج الإمام أحمد عن ابن عمر ﷺ: ستكون هجرة بعد هجرة، فخيار أهل الأرض ألزمهم مهاجر ابراهيم عليه السلام، ويبقى فى الأرض أشرار أهلها تلفظهم أرضوهم وتقذرهم نفس الله، وتحشرهم النار مع القردة والخنازير، تبيت معهم إذا باتوا، وتقيل معهم إذا قالوا، وتأكل من تخلف.

قوله: تقذرهم نفس الله: هو من المتشابه والإيمان به واجب، كما أخبر لا كما يتوهمه البشر.

تتمة

ثبت بالسنة الصحيحة أن أهل الأرض يكفرون ويعبدون الأوثان وأنه **لاتقوم الساعة إلا على شرار الناس**. فقد أخرج الإمام أحمد ومسلم من حديث ابن عمر رضى الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ « تجئ بعد موت عيسى عليه السلام ريح باردة من قِبَل الشام، لاتبقى على وجه الأرض أحد فى قلبه مثقال ذرة من إيمان إلا قبضته، حتى لو أن أحدكم دخل فى كبد جبل لدخلت عليه، حتى تقبضه فيبقى شرار الناس فى خفة الطير، وأحلام السباع، لايعرفون معروفاً ولاينكرون منكراً، فيتمثل لهم الشيطان فيقولون: ماتأمرنا؟ فيأمرهم بعبادة الأوثان فيعبدونها، وهم فى ذلك دارٌ رزقهم حسن عيشهم، ثم ينفخ فى الصور».

فإن قلت: أليس قد ذكرت إن الدابة تقتل الشيطان.

فالجـواب : أنه ليس فى الحديث أن الـذى يظهر لهم إبليس بل يجوز أن يـكون شيطاناً آخر غير إبليس من ذريته، وورد أن الريح تأتى من قِبَل اليمـن والجواب أنهما ريحان شامية ويمانية.

وأخرج الإمام أحمد بسند قوى عن أنس رضى الله تعـالى عنه مرفوعا « لاتقوم الساعة حتى لايقـال فى الأرض لا إله إلا الله »، فإن قـيل: كيف هذا مع مـاصح عنه ﷺ من قوله « لاتزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق إلى يوم القيامة، حتى يأتى أمر الله» .

فالجواب: هذا غير مصادم للحديث، لأن معناه أنهم لايزالون على الحق حتى تأتيهم هذه الريح اللينة قرب القيامـة فأطلق فيه بقاءهم إلى قيام الساعة مـريداً أشراطها ودونها المتناهى فى القرب. وفى المستدرك الحاكم من مرفوع أبى هريرة رضى الله تعالى عنه « وحتى تؤخذ المرأة جهاراً نهاراً تنكح وسط الطريق لاينـكر ذلك أحد ». وفى لفظ: « حتى ينكح أحدهم أمة فيكون أمثلهم يومئذ الذى يقول لو نحيـتها عن الطريق قليلاً، فذلك فيهم مثل أبى بكر وعمر فيكم».

فكلها صحت بها الأخبار وسطرت آثارها الأخيار

(فكلها) أى أشراط الساعة المذكورة (صحت بها الأخبار) عن النبى المختار وأصحابه الأبرار صلوات الله وسلامه عليه وعليهم. ماتعاقب اليل والنهار (و) كلها قد (سطرت) أى كتبت (آثـارها) مفعول سطرت أى الآثار الدالة عليـها، والمتضمنة لإتيـانها ومجيـئها وعلاماتهـا المشيرة إلى اقتـرابها (الأخيار) فـاعل سطرت وهو جمع خير، والأخـيار ضد الأشرار، والمراد بهم هنا علماء الأمة من التابعين وتابعيهم وأئمة السلف ومقلديهم.

وقد روى أبو نـعيم فى الحليـة، والخطيب فى التاريخ من حـديث أبى هريرة رضى الله تعالى عنه والقـضاعي من حديث ابن عمـر رضي الله تعالى عنهما أنه ﷺ قـال « خيار أمتى علماؤها وخـيار علمائها رحمائهـا ألا وإن الله تعالى يغفر للعالم أربعـين ذنباً قبل أن يغفر للجاهل ذنباً واحداً وإن العالم الرحيم بمجـيئ يوم القيامة وإن نوره قد أضاء يمشى فيه مابين المشرق والمغرب، كما يضئ الكوكب الدرى» وإسناده ضعيف.

وقد عزونا كل قول لقائله وكل حديث لناقله غالباً لخرج من تبعته وليعلم من أنعم النظر وأمعن الفكـر فيمـا حررته أنه زبدة ما مـحص المتقـدمون وثمرة مـاغرسـه المحررون، وبالله التوفيق.

فصل
فى أمر المعاد

اعلم أن المعاد الجسمانى حق واقع دل عليه النقل الصحيح، فوجب الإيمان به والتصديق وهو أن يبعث الله تعالى الموتى من القبور، بأن يجمع أجزاءهم الأصلية ويعيد الأرواح إليها كقوله تعالى ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [يس: ٧٩] إلى غير ذلك من النصوص القرآنية القطعية والأحاديث الساطعة النبوية قال:

واجزِمْ بأمرِ البعثِ والنشورِ   والحشْرِ جزماً بعد نَفْخ الصُّور

(واجزم) جزم إيقان واعتقاد وعرفان (بأمر البعث) بعد الموت (والنشور) من القبور (والحشر) لأجل الجزاء وفصل القضاء (جزماً) مصدر مؤكد لقوله واجزم، وذلك كله واقع (بعد نفخ الصور) المراد: نفخه البعث، وحاصل ماذكر فى هذا البيت أربعة أشياء، البعث والنشور، والحشر والنفخ فى الصور. أما البعث فالمراد به. المعاد الجسمانى فإنه المتبادر عند الإطلاق، إذ هو الذى يجب اعتقاده، ويكفر منكره.

قال الإمام المحقق فى كتابه الروح كشيخه وغيرهما : معاد الأبدان متفق عليه بين المسلمين واليهود والنصارى.

وقال الجلال الدوانى: هو بإجماع أهل الملل وبشهادة نصوص القرآن، بحيث لايقبل التأويل كقوله تعالى ﴿أَوَلَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ- إلى قوله - وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾[يس: ٧٧ - ٧٩] .

أخرج ابن جرير وابن المنذر والبيهقى وغيرهم، عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال جاء العاص بن وائل إلى رسول الله ﷺ بعظم حائل ففته بيده، فقال: يامحمد يحيى الله هذا بعد ماأرمَّ ؟ قال« نعم يبعث الله هذا، ثم يميتك، ثم يحييك ثم يدخلك نار جهنم» فنزلت الآيات من آخر يس ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الإِنسَانُ ﴾ إلى آخر السورة. وهذا نص صريح فى الحشر الجسمانى بقطع عرف التأويل بالكلية.

وثم فى الحديث فى قوله ﷺ « ثم يبعث الله هذا ثم يميتك » للترتيب الإخباري لا للترتيب الحكمى، كقولهم : بلغنى ماصنعت اليوم ماصنعت أمس أعجب أى ثم أخبرك أن ماصنعت أمس أعجب.

وأما النشور فهو يرادف البعث فى المعنى، نشر الميت ينشر نشوراً، وإذا عاش بعد الموت، وأنشره الله أى أحياه. وأما الحشر فهو فى اللغة الجمع. والمراد به جمع أجزاء

الإنسان بعد التفرقة، ثم إحياء الأبدان بعد موتها.

واعلم أنه يجب الجزم شرعاً أن الله تعالى يبعث جميع العباد ويعيدهم بجميع أجزائهم الأصلية، وهى التى شأنها البقاء من أول العمر إلى آخره، ويسوقهم إلى محشرهم لفصل القضاء، فإن هذا حق ثابت بالكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة. قال الله تعالى ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾[النحل: ٣٨]﴿ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾[التغابن: ٧] ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾[المؤمنون: ١٦] والآيات فى ذلك كثيرة جداً.

وأما الأحاديث فكثيرة جداً ففى البخارى ومسلم وغيرهما عن ابن عباس رضى الله تعال عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يخطب على المنبر يقول « إنكم ملاقوا الله حفاة عراة غرلا » وفى رواية: مشاة الغُرْل - بضم الغين المعجمة وإسكان الراء جمع أغرل وهو الأقلف. ومثله فى الصحيحين من حديث عائشة رضى الله تعالى عنها قالت: فقلت الرجال والنساء جميعاً ينظر بعضهم إلى بعض؟ قال « الأمر أشد من أن يهمهم ذلك » وروى نحوه من حديث أم سلمة رضى الله تعالى عنها وفيه، فقالت أم سلمة فقلت يارسول الله: واسوأتاه ينظر بعضنا إلى بعض؟ فقال« شغل الناس. فقلت ماشغلهم؟ فقال نشر الصحائف فيها مثاقيل الذر، ومثاقيل الخردل ».

تنبيهان

الأول: اختلف الناس هل البعث إعادة بعد تفريق، أو إيجاد معدوم؟ قال عكرمة رحمه الله تعالى: إن الذين يغرقون فى البحر وتقتسم لحومهم الحيتان، ثم تصير نخره، ثم تمر بها الإبل فتأكلها، ثم تسير الإبل فتبعره، ثم يجئ قوم فينزلون فيأخذون ذلك البعر فيوقدونه، ثم تخمد تلك النار، فتجئ الريح، فتلقى ذلك الرماد على الأرض، فإذا جاءت النفخة، فإذا هم قيام ينظرون، يخرج أولئك وأهل القبور سواء.

قال العلامة الشيخ مرعى رحمه الله تعالى: قال العلماء: إن الله تعالى يجمع ماتفرق من أجساد الناس من بطون السباع وحيوانات الماء وبطن الأرض، وماأصاب النيران منها بالحرق والمياه بالغرق، وماأبلته الشمس وماذرته الرياح، فإذاجمعها وأكمل كل بدن منها، ولم يبق إلا الأرواح نفخ إسرافيل عليه السلام فى الصور، فأرسلها بنفخة من ثقب الصور، فترجع كل روح إلى جسدها، فإذا هم قيام ينظرون.

والشهور أن هذه الإعادة جمع متفرق والأصح: أنه إيجاد بعد عدم. نص عليه علماء

السنة وهو مذهب المحققين.

الثاني: اختلفوا فى إعادة الأعراض التى كانت قائمة بالأجساد فى الدنيا، فمذهب الأكثرين أنها تعاد بأشخاصها التى كانت قائمة بالجسم، حال الحياة. قلت: وقد نقل الإجماع، غير واحد من العلماء من آخرهم الشيخ مرعى وغيره عن أهل السنة أن الأجساد الدنيوية تعاد بأعيانها وأعراضها والله أعلم.

وأما النفخ فى الصور: فالمراد به نفخة البعث والنشور.

واعلم أن النفخ فى الصور ثلاث نفخات:

الأولى، نفخة الفزع: وهى التى يتغير بها هذا العالم ويفسد نظامه، وهى المشار إليه بقوله تعالى **﴿ وَمَا يَنظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾**[ص:١٥] أى من رجوع ومرد وقوله تعالى**﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ﴾**[الزمر:٦٨] فسَّر الزمخشرى فى كشافه المستثنى فى هذه الآية بمن ثبت الله قلبه من الملائكة، وهم جبرائيل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت. وقيل غير ذلك. وإنما يحصل الفزع لشدة مايقع من هول تلك النفخة. فقد أخرج ابن جرير فى تفسيره والطبرانى فى المطولات وغيرهما عن أبى هريرة ﷺ قال: حدثنا رسول الله ﷺ « أن الله لما فرغ من خلق السموات والأرض خلق الصور فأعطاه إسرافيل فهو واضعه على فيه شاخصاً ببصره إلى العرش ينتظر متى يؤمر. قلت: يارسول الله ومالصور؟ قال القرن. قلت: أى شئ هو؟ قال:عظيم إن عظم دارة فيه، فيقول: انفخ نفخة الفزع. فينفخ فيفزع أهل السماء والأرض إلا من شاء الله فيأمر فيمدها ويطيلها ولايغتر، وهى التى يقول الله تعالى **﴿وَمَا يَنظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴾** فيسير الله الجبال فتمر مر السحاب، فتكون سراباً وترتج الأرض بأهلها رجاً، فتكون كالسفينة الموقرة فى البحر تضربها الأمواج، وكالقنديل المعلق بالعرش ترجحه الأرواح، وهى التى يقول الله تعالى **﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ* تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ﴾**[النازعات:٦-٧] فتميل الأرض بالناس على ظهرها فتذهب المراضع وتضع الحوامل وتشيب الولدان، وتطير الشياطين هاربين من الفزع، حتى تأتى الأقطار، فتتلقاها الملائكة، فتضرب وجوهها، فترجع ويولى الناس مدبرين ينادى بعضهم بعضاً وهو الذى يقول الله تعالى **﴿ يَوْمَ التَّنَادِ * يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾** [غافر:٣٢-٣٣] فبينما هم على ذلك إذ تصدعت الأرض فانصدعت من قطر إلى قطر، فرأوا أمراً عظيماً، ثم نظروا إلى السماء فإذا هى كالمهل، ثم انشقت فانتثرت نجومها وانخسفت شمسها وقمرها، قال رسول الله ﷺ والأموات يومئذ لايعلمون بشئ من

ذلك. قلت يارسول الله: متى استثنى الله تعالى فى قوله ﴿إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ﴾ قال: أولئك الشهداء. وإنما يتصل الفزع إلى الأحياء، وهم أحياء عند ربهم يرزقون وقاهم الله فزع ذلك اليوم وأمنهم منه، وهو عذاب يبعثه الله على شرار خلقه، يقول الله ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾[الحج: ١-٢] فيمكثون فى ذلك ماشاء الله ». الحديث.

النفخة الثانية: نفخة الصعق، وفيها هلاك كل شئ. قال تعالى﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ﴾ وقد فسر الصعق بالموت. وفى الحديث المتقدم الذى رواه ابن جرير وغيره من حديث أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال: « ثم يأمر اسرافيل فينفخ نفخة الصعق فيصعق أهل السموات والأرض إلا من شاء الله، فيقول ملك الموت: قد مات أهل السموات والأرض إلا من شاء الله، فيقول الله، وهو أعلم فمن بقى؟ فيقول: أى رب بقيت أنت الحى القيوم الذى لايموت. وبقيت حملة العرش وبقى جبريل وميكائيل وبقيت أنا. فيقول الله تعالى: فليمت جبرائيل وميكائيل فيموتان ثم يأتى ملك الموت إلى الجبار فيقول: رب قد مات حملة العرش فيقول، وهو أعلم: فمن بقى؟ فيقول بقيت أنت الحى القيوم الذى لايموت، وبقيت أنا فيقول: أنت خلق من خلقى خلقتك لما رأيت فمت فيموت. فإذا لم يبق إلا الواحد القهار طوى السماء والأرض كطى السجل للكتب وقال: أنا الجبار لمن الملك اليوم ـ ثلاث مرات ـ فلم يجبه أحد، ثم يقول لنفسه: لله الواحد القهار، وتبدل الأرض غير الأرض، والسموات فيبسطها ويسطحها ويمدها مد الأديم لاترى فيها عوجاً ولا أمتاً» الحديث.

وأخرج مسلم من حديث ابن عمر رضى الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ «يطوى الله السموات يوم القيامة، ثم يأخذهن بيده اليمنى ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون أين المتكبرون» وسيأتى إن لم يخلق للفناء، لم يفن كالجنة ومافيها من الحور والولدان، وكذا النار ومافيها من الحيات والعقارب. والله أعلم.

النفخة الثالثة: نفخة البعث والنشور، وقد جاء فى الكتاب العزيز آيات تدل عليها كقوله تعالى ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾[يس: ٥١] وقوله ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾[الزمر: ٦٨] ﴿وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾[ق: ٤١] قال المفسرون المنادى: إسرافيل عليه السلام ينفخ فى الصور وينادى أيتها العظام البالية والأوصال المتقطعة، واللحوم المتمزقة والشعور المتفرقة إن الله يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء،

والمكان القريب صخرة بيت المقدس، وبين النفختين أربعون عاماً.

قال بعض العلماء: اتفقت الروايات على ذلك وفى مسلم عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه مرفوعاً « مابين النفختين أربعون » قالوا ياأبا هريرة: أربعون يوماً. قال: أبيت. قالوا: أربعون شهراً ؟ قال: أبيت. قالوا: أربعون عاماً؟ قال: أبيت » الحديث. قوله: « أبيت » فيه ثلاث تأويلات: قيل: امتنعت من بيان ذلك. وقيل: أبيت أسأل رسول الله ﷺ عن ذلك وقيل: نسيت. وقيل سر ذلك لأنه لايعلمه إلا الله تعالى.

وفى تفسير الثعلبى عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه مرفوعاً « إن الله يرسل مطراً على الأرض فينزل عليها أربعين يوماً حتى يكون فوقهم اثنا عشر ذراعاً، فيأمر الله تعالى الأجساد أن تنبت كنبات البقل، حتى إذا تكاملت أجسادهم كما كانت، قال الله تعالى ليحيى حملة العرش ليحى جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل ثم يأمر الله تعالى إسرافيل فيأخذ الصور فيضعه على فيه، ثم يدعو الأرواح فيؤتى بها تتوهج أرواح المؤمنين نوراً والأخرى ظلمة فيقبضها جميعاً، ثم يلقيها فى الصور، ثم يأمره أن ينفخ نفخة البعث فتخرج الأرواح، كلها كأنها النحل، قد ملأت مابين السماء والأرض ثم يقول الله تعالى: وعزتى وجلالى ترجعن كل روح إلى جسدها، فتدخل الأرواح من الخياشيم، ثم تمشى مشى السهم فى اللديغ، ثم تتشقق الأرض عنهم سراعاً، فأنا أول من تنشق عنه الأرض، فتخرجون منها إلى ربكم تنسلون ».

وفى حديث أبى هريرة الذى رواه الشيخان « ثم ينزل من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل، وليس من الانسان شئ إلا يُبلى إلا عظم واحد، وهو عَجْبُ الذنب منه يركب الخلق منه يوم القيامة، قال الحافظ المنذرى كغيره عَجَبُ الذنب - بفتح العين المهملة وإسكان الجيم بغدها باء موحدة أو ميم - هو العظم الحديد الذى يكون فى أسفل الصلب، وأصل الذنب من ذوات الأربع. وفى حديث أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه « قال مثل حبة خردل منه تنبتون » وفى تفسير الثعلبى وابن عطية عن أبى هريرة وابن عباس رضي الله عنهما «وإذا مات الناس كلهم فى النفخة الأولى - يعنى نفخة الصعق - أمطر عليه أربعين عاماً كمنى الرجال من ماء تحت العرش يدعى ماء الحيوان فينبتون من قبورهم بذلك المطر كما ينبت الزرع من الماء، حتى إذا استكملت اجزاءهم نفخ فيهم الروح ثم يلقى عليهم نومة فينامون فى قبورهم، فإذا نفخ فى الصور النفخة الثانية، قاموا هم يجدون طعم النوم فى أعينهم، كما يجده النائم إذا استيقظ من نومه، فعند ذلك يقولون : ياويلنا من بعثنا من مرقدنا».

وروى الإمام أحمد فى الزهد عن أبى هريرة رضي الله عنه مرفوعا «يجاء بالجبارين و المتكبرين

يوم القيامة رجال فى صورة الذر يطؤهم الناس من هوانهم على الله، حتى يقض بين الناس، ثم يذهب بهم إلى نار الأنيار؟ قيل يا رسول الله: وما نار الأنيار؟ قال عصارة أهل النار» .

كذاَ وقوف الخلقِ للحسابِ و الصحُفُ والميزانِ للّثوابِ

(كذا) أى كما يجب الجزم بالبعث والحشر، يجب أن يجزم جزماً باتا بأمر (وقوف الخلق) من الإنس والجن والدواب والطير وغيرهم، قال تعالى ﴿ وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾[الكهف: ٤٧] والحاصل أن الله يجمع فى ذلك اليوم الأولين والأخرين، حتى لايدرى الشخص أى يضع قدمه من شدة الزحام.

واعلم أن اليوم الوقوف أهو إلاّ عظيمة وشدائد جسيمة تذيب الأكباد، وتذهل المراضع، وتشيب الأولاد، وهوحق ثابت ورد به الكتاب والسنة وانعقد عليه الإجماع، وهو يوم القيامة.

وقد اختلف فى تسميته بذلك، فقيل: لكون الناس يقومون من قبورهم. وقيل لقيام الناس لرب العالمين. كما روى مسلم فى صحيحه عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما مرفوعا﴿ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[المطففين: ٦] قال يقوم أحدهم فى رشحه إلى نصفه أذنيه.

قال ابن عمر رضى الله تعالى عنهما: يقومون مائة سنة. وروى عن كعب ثلاثمائة سنة. وروى أبو يعلى ابن حبان فى صحيحه عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه، عن النبى ﷺ قال « يوم يقوم الناس لرب العالمين » مقدار نصف يوم من خمسين ألف سنة، فيهون ذلك على المؤمن كتدلى الشمس للغروب إلى أن تغرب » .

وأخرج ابن حبان فى صحيحه عن أبى سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال« يوما كان مقداره خمسين ألف سنة » فقيل: ماأطول ماهذا اليوم؟ فقال رسول الله ﷺ والذى نفسى بيده إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة» قيل: إنما سمى يوم القيامة لقيام الملائكة والروح فيه صفاً قال تعالى ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفًّا ﴾[النبأ: ٣٨] قال القرطبى القيامة قيامتان، صغرى وكبرى، فالصغرى مايقوم على كل إنسان فى خاصته من خروج روحه، وانقطاع سعيه، وحصوله على عمله، والكبرى هى التى تعم الناس وتأخذهم أخذة واحدة.

لطيفة

سئل ابن عباس رضى الله عنهما عن يوم القيامة. أهو من الدنيا أم من الأخرة؟ فقال: صدر ذلك اليوم من الدنيا وآخره من الآخرة.

أخرج ابن المبارك عن كعب قال: لو ان رجلا كان له مثل عمل سبعين نبيا لخشى ان لاينجو من ذلك اليوم.

واخرج الشيخان عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه مرفوعا «يعرق الناس يوم القيامةحتى يذهب عرقهم فى الأرض سبعين ذراعاً ويلجمهم حتى يبلغ آذانهم» .

وأخرج مسلم عن المقداد رضى الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول «إذا كان يوم القيامة أدنيت الشمس من العباد حتى تكون قد ميل أو ميلين - قال - فتصهرهم الشمس فيكونون فى العرق على قدر أعمالهم، منهم من يأخذه إلى عقبيه، ومنهم من يأخذه إلى حقويه، ومنهم من يلجمه إلجاماً» .

قال سليم بن عامر ماأدرى مايعنى بالميل، مسافة الارض، أو الميل الذى يكحل بهالعين قال: فيكون الناس على قدر أعمالهم فى العرق» الحديث.

وأخرج الحاكم وصححه عن جابر رضى الله تعالى عنه مرفوعا« إن العرق ليلزم المرء فى الموقف حتى يقول يارب إرسالك بى إلى النار أهون على مما أجد» وهو يعلم مافيها من شدة العذاب .

فائدة

قد صح أن الفقراء يدخلون الجنة قبل الأغنياء خمسمائة عام، فيكونون قد سلموا من تلك الأهوال، ونجوا من ذلك النكال والوبال، قال بعض السلف: لو طلعت الشمس على الأرض كهيئتها يوم القيامة لأحرقت الأرض وأذابت الجوامد، ونشفت الأنهار.

وهذا الوقوف مع مامر (للحساب) الثابت بالسنة والكتاب وإجماع أهل الحق بلا ارتياب، قال الله تعالى ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[الحجر:٩٢-٩٣] وقال فى حق أعدائه ﴿ أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ ﴾[الرعد:١٨]، ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝﴾[الزلزلة:٧-٨] قال الثعلبى: الحساب تعريف الله الخلائق مقادير الجزاء على أعمالهم، وتذكيرهم إياه ماقد نسوه من ذلك، يدل على هذا قوله تعالى ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ﴾[المجادلة:٦].

والحساب: مصدر حاسب، وحسب الشئ يحسبه بالضم إذا عده سماعاً وهو معنى قول من قال: الحساب لغة العد، واصطلاحاً توقيت الله عباده قبل الانصراف من المحشر على أعمالهم، خيراً كان أو شراً، تفصيلاً لا بالوزن إلا من استثنى منهم.

وقد اختلف فى معنى محاسبته تعالى عباده على ثلاثة أقوال:

أحدها: أن يعلمـهم مالهم وماعليهم، قـال بعض العلمـاء: بأن يخلق الله فى قلوبهم علوماً ضرورية بمقادير أعمالهم من الثواب.

والعقاب الثانى: ونقل عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما: أن يوقف الله تعالى عباده بين يديه ويؤتيهـم كتب أعمالهـم فيها سيئاتهم وحسناتهم، فيقـول: هذه سيئـاتكم وقد تجاوزت عنها، وهذه حسناتكم وقد ضاعفتها لكم.

الثالث: أن يكلم الله عباده فى شأن أعمالهم وكيفـية مالها من الثواب، ومـاعليها من العـقاب، وفى هذه من صـحيح الأخـبار وصـريح الآثار مـايقلع شرس من فى قلبـه نوع اختلاق كل شبهة وبدعة.

وقد أخرج الترمذى من حديث أبى برزة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال «لاتزول قدم عبد يوم القيامة حتى يسـأل عن أربع، عن عمره فيما أفناه، وعن علمه فيـما عمل به، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه. وعن جسمه فيما أبلاه» قالت الترمذى حديث حسن صحيح.

وفى الصحيحين من حديث عائشـة رضى الله تعالى عنها قالت: قال رسول الله ﷺ «من نوقش الحسـاب عذب. فقالت: أليس يقـول الله تعالى ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا * وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾[الانشقاق: ٧-٩] فقال ﷺ إنما ذلك العرض وليس أحد يحاسب يوم القيامة إلا هلك».

وفى صحيح مسلم وسنن الترمذى من حديث أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال « لتـؤدن الحقوق إلى أهلها يـوم القيامة حـتى يقاد للشاة الجلحـاء من الشاة القرناء» الجلحاء : التى لاقرن لها.

وفى حديث عبد الله بن القيس رضى الله تعالى عنه أنه سمع النبى ﷺ يقول« يحشر الله العبـاد يوم القيامة ـ وقـال الناس ـ عراة غرلاً بُهْمـاً. قال. قلنا: ومابُهْمـاً؟ قال: ليس معهم شئ، ثم يناديهم بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب: أنا الديان، أنا المالك، لاينبغى لأحـد من أهل النار أن يدخل النار. وله عند أحد من أهل الجنة حق حتى أقـضيه منه. ولاينبـغى لأحد من أهل الجنة أن يدخـل الجنة ولأحد من أهل النار عنده حق حـتى أقضـيه منه، حتى اللطمـة. قال: قلنا: كيف وإنما نأتى عـراة غرلا بهما؟ قـال: الحسنات والسيئات» رواه الإمام أحمد بإسناد حسن.

لا ينبـغي لأحـد من أهل النار أن يدخل النار، وله عند أحـد من أهل الجنة حق حـتى أقضيـه منه، ولا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخـل الجنة ولأحد من أهل النار عنده حق حتـى أقضيـه منه، حـتى اللطمة، قـال: قلنا : كيف وإنما نأتـي عراة غـرلاً بهمـا؟ قال: الحسنات والسيئات» رواه الإمام أحمد بإسناد حسن .

تـنـبـيـهـات

إنما قدم الحساب بعد الحشر والوقوف على أخذ الصحف مع أنه مؤخر عن أخذ الصحف في الوقوع، لأن الحساب من المقاصد، وأخذ الصحف من الوسائل فقدمت المقاصد على الوسائل، مع مراعاة قافية النظم.

الثاني: كيفية الحساب مختلفة وأحواله متباينة، فمنه العسير، ومنه العدل، ومنه التكريم، ومنه التوبيخ والتبكيت، ومنه الفضل والصفح ومتولى ذلك أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين.

الثالث: أول من يحاسب العلماء أو الغازون وأرباب الأموال، وأول من مايحاسب عليه العبد الصلاة، كما أخرج الإمام عبد الله بن المبارك وأبو داود والترمذى وحسنه، والحاكم وصححه، والنسائى وابن ماجه من حديث أبى هريرة رضى الله تعالى عنه عن النبى ﷺ أنه قال: « أول مايحاسب العبد عليه يوم القيامة الصلاة، يقول الله تعالى لملائكته: انظروا لصلاة عبدى أتمها أم نقصها؟ فإن كانت تامة كتبت له تامة، وإن كان ينقص منها شيئاً قال الله: انظروا هل لعبدى من تطوع؟ فإن كان له تطوع، قال أتموا لعبدى فريضه من تطوعه، ثم تؤخذ الأعمال على ذلك »

وأخرج النسائى عن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه، عن النبى ﷺ أنه قال« أول مايحاسب عليه العبد صلاته، وأول مايقضى بين الناس فى الدماء».

فإن قيل: قد ورد فى التنزيل أن الناس لايسألون قال تعالى ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلا جَانٌّ﴾[الرحمن: ٣٩] .

فالجواب: أنه معارض بقوله ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢-٩٣] ويجاب عن الآية الكريمة أنهم لايسألون سؤال استفهام، لأنه تعالى عالم بكل أعمالهم وإنما يسألون سؤال تقرير، فيقال لهم: فعلتم كذا، وقيل يسألون فى موطن دون موطن رواه عكرمة عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما.

ونظير هذا قوله تعالى﴿ هَذَا يَوْمُ لا يَنطِقُونَ * وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾[المرسلات: ٣٥-٣٦] وفى الآية الأخرى ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾[الزمر: ٣١] فللناس يوم القيامة حالات والآيات مخرجة باعتبار تلك الحالات، ومن ثم قال الإمام أحمد فى أجوبته القرآنية: أول ماتبعث الخلائق على مقدار ستين سنة لاينطقون ولايؤذن لهم فى الاعتذار فيعتذرون، ثم يؤذن لهم فى الكلام فيتكلمون، فذلك قوله تعالى ﴿ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا

﴿فَارْجِعْنَا﴾[السجدة: ١٢] فإذا أذن لهم في الكلام تكلموا واختصموا فذلك قوله تعالى ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ عند الحساب وإعطاء المظالم ثم يقال لهم بعد ذلك ﴿لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ﴾[ق: ٢٨] يعنى فى الدنيا، فإن العذاب مع هذا القول كائن. أ هـ.

الرابع: اختلف فى المسئول عنه والمسؤل، فقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما عن لا إله إلا الله. وقال الضحاك عن خطاياهم. وقال القرطبى: عن جميع أقوالهم وأفعالهم ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦] ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[الحجر: ٩٢ - ٩٣].

قال الفخر الرازى: والضمير فى قوله تعالى لنسألنهم، عائد على جميع المكلفين الأنبياء وغيرهم، ويدل على سؤالهم صريحا ﴿ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الأعراف: ٦] فهذه الآية تدل على أنه يحاسب كل عباده لأنهم لايخرجون عن أن يكونوا كلهم مرسلين أو مرسل إليهم. أ هـ.

والجواب: أنه لاحساب على الأنبياء عليهم السلام، على سبيل المناقشة والتقريع.

قال النسفى: الأنبياء لاحساب عليهم. وكذلك أطفال المؤمنين، وكذلك العشرة المبشرة بالجنة، هذا فى حساب المناقشة وعموم الآيات الكريمة مخصوص بأحاديث من يدخل الجنة بغير حساب، ولهذ قال علماؤنا فى عقائدهم: ويحاسب المسلمون المكلفون إلا من شاء الله أن يدخل الجنة بغير حساب، وكل مكلف مسؤل، ويسأل من شاء من الرسل عن تبليغ الرسالة، ومن شاء من لكفار عن تكذيب الرسل.

قال شيخ الإسلام فى الواسطية: ويحاسب الله تعالى الخلق ويخلو بعبده المؤمن ويقرره بذنوبه، كما وصف ذلك فى الكتاب والسنة. قال: وأما الكفار فلا يحاسبون محاسبة من توزن حسناته وسيئاته فإنهم لاحسنات له، ولكن تعد أعمالهم، وتحصى فيوقفون عليها ويقرون بها.

وأخرج الإمام أحمد بسند جيد عن أبى عسيب رضى الله تعالى عنه، أن النبى ﷺ دخل حائطا لبعض الأنصار، ومعه أبو بكر وعمر فجاء صاحب الحائط بعذق فوضعه، فأكل رسول الله ﷺ وأصحابه، ثم دعا بماء بارد، فشرب فقال: « لتسألن عن هذا يوم القيامة. فقيل: يارسول الله إنا لمسؤلون عن هذا يوم القيامة؟ قال نعم، إلا عن ثلاث: خرقة يكف بها عورته وكسرة يسد بها جوعته، وجحر يدخل فيه من الحر والبرد».

وأخرج الطبراني والبزار والحاكم عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول ﷺ « ثلاث من كن فيه حاسبه الله حساباً يسيراً وأدخله الجنة برحمته، قالوا: وماهي؟ قال: تعطي من حرمك، وتصل من قطعك، وتعفو عمن ظلمك» وفي ترغيب الأصبهاني عن أنس مرفوعا: « إن استطعت أن تمسي وتصبح ، وليس في قلبك غش لأحد، فافعل فإنه أهون عليك في الحساب».

وأخرج البيهقي عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أنه قال: قال أعرابي يارسول الله، من يحاسب الخلق يوم القيامة؟ قال: الله، قال: نجونا ورب الكعبة، قال: وكيف ياأعرابي؟ قال: إن الكريم إذا قدر عفا.

وما أحسن ماقيل من الحكم المدونة: الكريم، إذا قدر غفر وإذا زللت معه ستر، ومنها ليس من عادة الكرام سرعة الغضب والانتقام.

فائدة

ذكر القرطبي كغيره، أن الله تعالى يكلم المسلمين عند الحساب من غير ترجمان إكراماً لهم، ولايكلم الكافرين بل تحاسبهم الملائكة إهانة لهم. وتمييزا لأهل الكرامة.

الخامس: ثبت في عدة أخبار أن طائفة من هذه الأمة يدخلون الجنة بغير حساب، فقد أخرج الشيخان وغيرهما عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: خرج إلينا رسول الله ﷺ ذات يوم، فقال: « عرضت على الأمم يمر النبي معه الرجل والنبي معه الرجلان، والنبي وليس معه أحد، والنبي معه الرهط، فرأيت سوادا كثيراً، فرجوت أن تكون أمتي فقيل له: هذه أمة موسى وقومه، ثم قيل لي: انظر فرأيت سوادا كثيرا قد سد الأفق فقيل: هكذا وهكذا، فرأيت سواداً كثيراً فقيل: هذه أمتك ومع هؤلاء سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب، فتفرق الناس ولم يبين لهم رسول الله ﷺ ، فتذاكر ذلك أصحابه، فقالوا: أما نحن فولدنا في الشرك، ولكنا قد آمنا بالله ورسوله، هؤلاء أبناءنا. فقال رسول الله ﷺ : هم الذين لايسترقون ولايكتوون ولايتطيرون وعلى ربهم يتوكلون، فقام عكاشه بن محصن فقال: أنا منهم. وفي لفظ، ادع الله أن أكون منهم يارسول الله. قال: نعم، ثم قام آخر، فقال: أنا منهم، فقال سبقك بها عكاشة».

قال الإمام المحقق في كتابه « الداء والدواء » قوله ﷺ : « سبقك بها عكاشة »، ولم يرى أن عكاشة وحده أحق بذلك ممن عداه من الصحابة، ولكن لو دعا له، لقام آخر وآخر، وانفتح الباب، وربما قام من لم يستحق أن يكون منهم، فكان الإمساك أولى

وأخرج الترمذي وحسنه عن أبي أمامة رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله

ﷺ يقول « وعدني ربي أن يدخل الجنة من أمتي سبعين ألفاً لاحساب عليهم ولاعذاب، مع كل ألف سبعون ألفاً وثلاث حثيات من حثيات ربي» ويروى « حفنات» بالفتح وهو الغرف ملئ اليدين وقيل: الحفية باليد، والحفنة باليدين.

وأخرج الإمام أحمد والطبراني عن أبى أيوب رضى الله تعالى عنه، أن رسول الله ﷺ خرج ذات يوم إليهم فقال: « إن ربى خيرنى بين سبعين ألفاً يدخلون الجنة عفواً بغير حساب، وبين الخبيئة عنده لأمتى، فقال له بعض أصحابه: أيخبأ ذلك ربك؟ فدخل رسول الله ﷺ ثم خرج وهو يكبر، قال : إن ربى زادني مع كل ألف سبعين ألفاً والخبيئة عنده، فقيل: يا أبا أيوب، وما تظن خبيئة رسول الله ﷺ؟ فأكله الناس بأفواههم، فقالوا: ما أنت خبيئة رسول الله ﷺ؟ فقال أبو أيوب: دعوه، أخبركم عن خبيئة رسول الله ﷺ ، إن خبيئة رسول الله ﷺ أن يقول: ربى من شهد أن لا إله إلا الله، وحده لاشريك له، وأن محمد عبده ورسوله، مصدقاً لسانه قلبه، فأدخله الجنة »، الخبيئة بخاء معجمة فموحدة وهمزة بوزن خطيئة.

وأخرج البيهقى من حديث أبى هريرة مرفوعاً « سألت ربى فوعدنى أن يدخل من أمتى الجنة سبعين ألفاً على صورة القمر ليلة البدر، فاستزدته فزادني مع كل ألف سبعين ألفاً فقلت: أى ربى أرأيت إن لم يكن هؤلاء مهاجرى أمتى ،قال: إذاً أكملهم لك من الأعراب» .

وأخرج الطبرانى والبيهقى عن عمرو بن حزم الأنصارى رضى الله تعالى عنه قال: تغيب عنا رسول الله ﷺ ثلاثاً لايخرج إلا لصلاة مكتوبة، ثم يرجع،فلما كان اليوم الرابع خرج إلينا فقلنا يارسول الله، احتبست عنا حتى ظننا أن قد حدث حدثاً؟ قال: «لم يحدث إلا خير إن ربي وعدنى أن يدخل من أمتى الجنة سبعين ألفاً لاحساب عليهم، وإنى سألت ربى فى هذه الثلاثة الأيام المزيد، فوجدت ربى ماجداً كريماً فأعطانى كل واحد من السبعين ألفاً سبعين ألفاً. قلت: ياربى وتبلغ أمتى هذا؟ قال أكمل لك العدد من الأعراب.

وأخرج الإمام أحمد وأبو يعلى عن أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ «أعطيت سبعين ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب، وجوههم كالقمر ليلة البدر، وقلوبهم على قلب رجل واحد، فاستزدت ربى فزادنى مع كل واحد سبعين ألفاً » قال أبو بكر رضى الله تعالى عنه فرأيت أن ذلك يأتى على أهل القرى ويصيب من حفاة البوادى .

وأخرج الإمام أحمد والطبرانى عن عبدالرحمن بن أبى بكر الصديق رضى الله تعالى

عنهمـا أن رسول الله ﷺ قال « أعطانى ربي سبـعين ألفاً من أمتى يدخلون الجنة بـغير حساب، فقال عمر: يارسول الله فهـلا استزدته؟ قال: قد استزدته، فأعطانى مع كل رجل سبعين ألفاً فقال عمر: فهلا استزدته،

قال: قد استزدته فأعطانى هكذا، وفرج بين يديه وبسط باعيه وحثا » قال هشام هذا من الله، مايدرى ماعدده.

وأخرج البـزار عن أنس رضى الله تعالى عنه أن رسـول الله ﷺ قال يدخل الجنة من أمتى سبـعون ألفاً بغير حسـاب، فقال أبو بكر يارسول الله، زدنا، قال. وهكذا ، فقـال عمر يأبا بكر إن شاء أدخلهم الجنة بحفنة واحدة » .

وأخرج الإمام أحمد بسند حسن عن حذيفة رضى الله تعالى عنه، أن رسول الله ﷺ قال: « إن ربى استـشارنى فى أمـتى ماذا أفعل بهـم، ماشئت يارب هم خلقك وعـبادك، فقال: لانخزيك فى أمتك، وأخبرنى أن أول من يدخل الجنة من أمتى سبعون ألفاً، مع كل ألف سبعون ألفاً ليس عليهم حساب».

ولما أنهـينا الكلام على الحسـاب، ثنينا العطف على شرح الـصحف والميزان المـشار إلى ذلك بقوله (و) كذا وقوف الخلق لأخذ (الصحف) جمع صحـيفة، وهى الكتب التى كتبتها الملائكة، وأحصوا مافعله كل إنسان من سائر أعمـالهم فى الدنيا القولية والفعلية وغيرهـم. وقـيل: هى صحف كـتبـها العـبـاد فى قبـورهم، قال الله تعـالى﴿ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾ [التكوير: ١٠] قـال الثعلبى: أى التى فـيهـا أعمـال بنى آدم نشـرت للحسـاب، وإنما يؤتى بالصحف إلزاما للعباد ودفعاً للجدل والعناد. وقال تعالى﴿ وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴾[الإسراء: ١٣] قال العلماء: معنى طائره عمله.

وفى الآية الأخرى ﴿فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾[الإسراء٧١] والفتيل: هو القشر الذى فى شق النواة، وهذا يضرب مثلاً للشئ الحقير.

قال العـلامة الشـيخ مرعى: وإنما أخص بالقـرآن بمن أوتى كتـابه بيمينـه دون من أوتيه بشمـاله، لأن أهل الشـمال إذا طالعوا كـتابهم وجـدوه مشـتمـلا على المهلكات العظيـمة والقبـائح، فيتـولى الخوف والدهش على قلوبهم، ويثـقل لسانهم، فـيعجـزون عن القراءة الكاملة، بخـلاف أصحـاب اليمـين، فإنهم إذا طـالعوا صـحف حسناتهم وجـدوها على الكمال، فيقرءون كتابهم على أحسن الأحوال.

والحاصل: أن نشر الصحف وأخذها باليمـين والشمال مما يجب الإيمان به، وعقد القلب

بأن حق لثبوته بالكتاب والسنة والإجماع، فقد أخرج العقيلى عن أنس رضى الله تعالى عنه، أن النبى ﷺ قال: « الكتب كلها تحت العرش، فإذا كان يوم القيامة بعث الله ريحاً فتطيرها بالأيمان والشمال» أول خط فيها ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤] قال قتادة سيقرأ يومئذ من لم يكن قارئاً فى الدنيا. وأخرج ابن المبارك عن أبى عثمان المهدى قال: إن المؤمن ليعطى كتابه فيقرأ سيئاته فيتغير لونه ثم يقرأ حسناته ثم يرجع إليه لونه، ثم ينظر فإذا سيئاته قد بدلت حسنات، فعند ذلك يقول: هاؤم اقرؤا كتابيه.

وأخرج مكى فى تفسيره عن أم المؤمنين عن عائشة رضى الله تعالى عنها، قالت: يارسول الله، كيف يحاسب حساباً يسيراً قال: « يؤتى العبد كتابه بيمينه فيقرأ سيئاته ويقرأ الناس حسناته. ثم يحول الصحيفة فيحول الله حسناته فيقرؤها الناس فيقولون: ماكان لهذا العبد من سيئة فهذا تفسير قوله تعالى ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا * وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴾ [الانشقاق: ٧-٩] أهله هم أهل الجنة كما فى البهجة.

فائدتان

الأولى: يعطى الكافر كتابه بشماله من وراء ظهره بأن تخلع أو يدخلها من صدره أو تلوى، ويعطى المؤمن العاصى كتابه بشماله من أمامه، ويعطى المؤمن الطائع كتابه بيمينه من أمامه، وقد جزم الماوردى بأن المشهود: أن الفاسق الذى مات على فسقه دون توبة، يأخذ كتابه بيمينه. ثم حكى قولاً بالموقف قال: ولاقائل بأنه يأخذه بشماله.

وقال يوسف بن عمر من المالكية: اختلف فى عصاة الموحدين فقيل: يأخذون كتبهم بأيمانهم، وقيل بشمائلهم، وعلى القول بأنهم يأخذونها بأيمانهم، قيل: يأخذونها قبل الدخول فى النار، فيكون ذلك علامة على عدم خلودهم فيها، وقيل: يأخذونها بعد الخروج منها، والله أعلم.

الثانية: ورد أن أول من يأخذ كتابه بيمينه أبو سلمة بن عبد الأسد، واسمه عبد الله، وهو أول من يدخل الجنة من هذه الأمة بعد نبيها ﷺ، **وهو أول من هاجر من مكة إلى المدينة.**

وقال بعض علماء المالكية: أول من يعطى كتابه بيمينه، وله شعاع كشعاع الشمس، عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه، وبعده أبو سلمة أ هـ.

قال القرطبى: إذا وقف الناس على أعمالهم من الصحف التى يؤمر بها بعد البعث، حوسبوا بها.

وأخرج ابن المبارك عن رجـل من بنى أسد قال: قال عمـر رضى الله تعالى عنه لكعب حدثنـا عن حديث الآخرة، قـال: نعم يا أميـر المؤمنين، إذا كان يـوم القيامـة رفع اللوح المحفوظ، فلم يبق أحد من الخلائق إلا وهو ينظر إلى عـمله، ثم يؤتى بالصحف التى فيها أعمال العباد، فتنشر حول العرش، ثم يدعى المؤمن، فيعطى كتابه بيمينه فينظر فيه.

(و) كذا وقـوف الخلق لأجل (الميـزان) اعلم أن مـراتب الميعـاد والبعث والنشـور، ثم المحشر، ثم القيام لرب العالمين، ثم العرض ثم تـطاير الصحف وأخذها باليمين والشمال، ثم السؤال والحـساب، ثم الميزان (للثواب) أى ثواب الأعـمال الصالحة، وغب السـيئات الفاضحة.

قال علماؤنا كـغيرهم: نؤمن بأن الميزان الذى توزن به الحسنات والسيـئات حق، قالوا: وله لسان وكفتان توزن به صحائف الأعمال.

قال ابن عبـاس رضى الله تعالى عنهما تـوزن الحسنات فى أحسن صورة والسـيئات فى أقبح صورة.

قال القـرطبى: قال العلمـاء: إذا انقضى الحسـاب كان بعده وزن الأعـمال، لأن الوزن للجـزاء، فينبغـى أن يكون بعد المحـاسبة، وأن المحـاسبـة لتقـرير الأعمال والـوزن لإظهار مقاديرها، ليكون الجزاء بحسبها، قال الله تعالى ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾[الأنبياء: ٤٧] وقال تعالى ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ * وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾[القارعة: ٦-٩] ألخ.

والحاصل أن الإيمان بالميزان كأخـذ الصحف ثابت بالكتاب والسنة والإجماع. قال عبد الله بن سلام رضى الله تعالى عنه: إن ميزان رب العالمين ينصب للجن والإنس، يستقبل به العرش، إحدى كفتيه عـلى الجنة والأخرى على جهنم، لو وضعت السموات والأرض فى إحداهمـا لوسعتهن، وجـبريل آخذ بعمـوده ينظر إلى لسانه، قال فى البهـجة: فى هذا أن أعمال الجن توزن، كما توزن أعمال الإنس، وهو كذلك ارتضاه الأئمة.

قال القرطبى: المتـقون توضع حسناتهم فى الكفة النيِّرة وصغـائرهم فى الكفة الأخرى، فلا يجعل الله لتلك الصـغائر وزنا، وتثقل الكفة النيرة حـتى لاترتفع وترفع المظلمة ارتفاع الفارغة الخاليـة. قال: وأما الكفار، فيوضع كفـرهم وأوزارهم فى الكفة المظلمة، وإن كان لهم أعمال بر وضعت فى الكفة الأخرى، فلا تقاومها إظهاراً لفضل المؤمنين وذل الكافرين،

والحق إن الكفار لايقيم الله لهم وزنا لقوله تعالى ﴿فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٥] ومن قال: نوزن أعمالهم لوروده فى ظواهر عموم الآيات والأحاديث يجيب عن الاية الكريمة بأنه تعالى لايقيم لهم وزناً نافعاً كما فى قوله تعالى ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣] أى كالهباء فى عدم نفعه، وحصول فائدته.

وأخرج الحاكم وصححه من حديث سلمان الفارسى رضى الله تعالى عنه، عن النبى ﷺ أنه قال يوضع الميزان يوم القيامة فلو وزن فيه السموات والأرض لوسعهن، فتقول الملائكة يارب من يزن هذا ؟ فيقول: لمن شئت من خلقى، فتقول الملائكة سبحانك ماعبدناك حق عبادتك ».

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما: قال: « يحاسب الناس يوم القيامة فمن كانت حسناته أكثر من سيئاته بواحدة دخل الجنة، ومن كانت سيئاته أكثر من حسناته بواحدة دخل النار. قال: وإن الميزان تخف بمثقال حبة وترجح، ومن استوت حسناته وسيئاته كان من أصحاب الأعراف فوقفوا على الصراط».

وأخرج فى الزهد من طريق رباح بن يزيد عن أبى الجراح عن رجل يقال له حازم، أن النبى ﷺ نزل عليه جبريل وعنده رجل يبكى « فقال: من هذا؟ قال: فلان، قال جبريل: أنا أزن أعمال بنى آدم إلا البكاء، فإن الله يطفئ بالدمعة بحوراً من نيران جهنم».

وأخرج البيهقى عن مسلم بن يسار قال: قال رسول الله ﷺ « ماأغرورقت عين بمائها إلا حرم الله سائر الجسد على النار، ولاسالت قطرة على خدها فيرهق ذلك الوجه قتر ولا ذلة، ولو أن باكياً بكى فى أمة من الأمم، لرحموا، وما من شيء إلا له مقدار وميزان، إلا الدمعة فإنها يطفأ بها بحار من النار».

وأخرج الترمذى وحسنه من حديث أنس رضى الله تعالى عنه قال: سألت رسول الله ﷺ أن يشفع لى يوم القيامة قال: «أنا فاعل إن شاء الله. قلت: فأين أطلبك؟ قال أول ماتطلبنى على الصراط. قلت: فإن لم ألقك على الصراط، قال: فاطلبنى عند الميزان، قلت: فإن لم ألقك عند الميزان، قال فاطلبنى عند الحوض، فإنى لاأخطئ هذه الثلاث مواطن».

تنبيهات

الأول: اختلف فى الميزان، هل هو واحد أو اكثر، فالأشهر أنه ميزان واحد لجميع الأمم ولجميع الأعمال، كفتاة كأطباق السموات والأرض، كما مرّ وقيل : إنه لكل أمة ميزان وقال الحسن البصرى: لكل واحد من المكلفين ميزان وقال بعضهم: الأظهر اثبات موازين

يوم القيامة لا ميزان واحد، لقوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ﴾ وقوله ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ وقال بعضهم: إنما جمع الموازين فى الآية الكريمة لكثرة من توزن أعمالهم وهو حسن.

الثانى: اختلف فى الموزون. قيل: بوزن العبد على عمله، وقيل: توزن نفس الأعمال فتصور الأعمال الصالحة بصور حسنة نورانية، ثم تطرح فى كفة النور وهى اليمنى المعدة للحسنات، فتثقل بفضل الله سبحانه وتصور الأعمال السيئة بصور قبيحة ظلمانية ثم تطرح فى الكفة المظلمة وهى الشمال المعدة للسيئات فتخفف بعدل الله سبحانه كما جاء به الحديث فامتناع قلب الحقائق فى مقام خرق العادات غير ملتفت إليه كما لايخفى وقيل إن شاء الله تعالى يخلق أجساماً على عدد تلك الأعمال عن غير قلب لها.

والحق ماقدمناه أن الموزون صحف الأعمال، وصححه ابن عبد البر والقرطبى وغيرهما، وصوبه الشيخ مرعى، وذهب إليه جمهور المفسرين ويؤيد ذلك حديث البطاقة والسجلات، ورواه الترمذى وحسنه وابن ماجه وابن حبان والحاكم والبيهقى. وقال الحاكم على شرط مسلم، عن عبد الله بن عمرو بن العاص ﵁ عن رسول الله ﷺ قال: « إن الله يستخلص رجلاً من أمتى على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فينشر له تسعة وتسعون سجلاً، كل سجل مثل مد البصر: ثم يقول، أتنكر من هذا شيئاً؟ أظلمك كتبتى الحافظون؟ فيقول: لايارب. فيقول: أفلك عذر أو حسنة؟ فيقول: لا يارب. فيقول الله تعالى: بلى، فلك عندنا حسنة، فإنه لاظلم عليك اليوم، فتخرج بطاقة فيها: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. فيقول: احضر وزنك فيقول: يارب ماهذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقول: فإنك لاتظلم، وتوضع السجلات فى كفة، والبطاقة فى كفة، فطاشت السجلات، وثقلت البطاقة، فلا يثقل مع اسم الله شئ».

الثالث: فإن قيل ماالحكمة فى الوزن مع أن الله تعالى عالم بكل شئ، فيعلم خائنة الأعين وماتخفى الصدور.

أجاب الثعلبى: بأن الحكمة فى ذلك تعريف الله عباده مالهم عنده من الجزاء من خير أوشر.

قال العلامة الشيخ مرعى: بل الحكمة فيه إظهار العدل وبيان الفضل، إنه يزن مثاقيل الذر من خير أو شر ﴿ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾[النساء: ٤٠].

ولما انتهى الكلام على الوقوف والحساب والصحف والميزان أعقب ذلك **بذكر الصراط فقال:**

كذا الصراطِ ثم حوضِ المصطفَى   فياهنا لمنْ بهِ نال الشّفاَ

(كذا) جزم بثبوت (الصراط) فإنه حق ثابت، وهو فى اللغة الطريق الواضح. و منه قول جرير:

أمير المؤمنين على صراط   إذا اعوج الموارد مستقيم

والصراط: بالصاد والسين المهملتين وبالزاى على نزاع فى إخلاصهما ومضارعتها بين الصاد والزاى، وفى الشرع جسر ممدود على متن جهنم فيرده الأولون والآخرون. فهو قنطرة جهنم بين الجنة والنار، وخلق من حين خلقت جهنم.

قال القرطبى: اعلم رحمك الله تعالى أن فى الآخرة صراطين. أحدهما مجاز لأهل المحشر كلهم ثقيلهم وخفيفهم إلا من دخل الجنة بغير حساب وإلا من يلتقطه عنق من النار فإذا خلص من خلص من هذا الصراط الأكبر الذى ذكرناه، ولايخلص منه إلا المؤمنون الذين علم الله منهم أن القصاص لايستنفد حسناتهم حبسوا على صراط آخر خاص لهم ولايرجع إلى النار من هؤلاء أحد إن شاء الله تعالى لأنهم قد عبروا الصراط الأول المضروب على متن جهنم التى يسقط فيها من أوبقته ذنوبه وزاد على الحسنات جرمه وعيوبه فقد أخرج البخارى والإسماعيلى فى مشيخته واللفظ له عن أبى سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنه، عن النبى ﷺ فى هذه الآية ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾[الحجر:٤٧] قال« يخلص المؤمنون من النار فيجلسون على قنطرة بين الجنة والنار فيقتص بعضهم من بعض مظالم كانت بينهم فى الدنيا حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم فى دخول الجنة فوالذى نفس محمد بيده لأحدهم أهدى بمنزلة فى الجنة منه بمنزلة فى الدنيا ».

قال قتادة: كان يقال مايشبه بهم إلا أهل الجمعة انصرفوا من جمعتهم .

قال القرطبى: هذا فى حق من لم يدخل النار من عصاة الموحدين أما من دخلها ثم أخرج فإنهم لايحبسون بل إذا أخرجوا بقوا على أنهار الجنة».

قال الحافظ ابن حجر: قوله يخلص المؤمنون من النار. أى ينجون من السقوط فيها بمجاوزة الصراط عنها. قال: اختلف فى القنطرة المذكورة فقيل: إنها من تتمة الصراط، وهى طرفه الذى يلى الجنة،وقيل إنها صراط آخر: وبه جزم القرطبى.

قال الجلال السيوطى: والأول هو المختار الذى دلت عليه أحاديث القناطر والحساب على الصراط. انتهى.

قال العلماء: الصراط أدق من الشعرة، وأحد من السيف، وأحر من الجمرة فقد أخرج الطبرانى بإسناد حسن عن عبد الله بن مسعود رضى الله تعالى عنه قال: «يوضع الصراط على سواء جهنم مثل حد السيف المرهف مدحضة أى مزلقة أى لاتثبت عليه قدم بل تزل عنه إلا من يثبته الله تعالى عليه كلاليب من نار تخطف أهلها فتمسك بهواديها ويستبقون عليه بأعمالهم، فمنهم من شده كالبرق فذاك الذى ينشب أن ينجو، ومنهم من شده كالريح، ومنهم من شده كالفرس الجواد، ومنهم من شده كهرولة الرجل، ثم كرمل الرجل، ثم كمشى الرجل، وآخر من يدخل الجنة رجل لوحته النار فيقول الله له : سل وتمن، فإذا فرغ قال لك ماشئت ومثله معه».

وأخرج الإمام أحمد عن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت« قال رسول الله ﷺ : لجهنم جسر أدق من الشعر وأحد من السيف عليه كلاليب وحسك تأخذ من يشاء الله والناس عليه كالطرف، وكالبرق وكالريح، وكأجاويد الخيل والركاب، والملائكة يقولون رب سَلِّم سَلِّم فناج مُسَلَّم، ومخدوش مُسَلَّم، ومكروس فى النار على وجهه».

وأخرج البيهقى عن أنس رضى الله تعالى عنه سمعت رسول الله ﷺ يقول « الصراط كحد السيف وأن الملائكة ينجون المؤمنين والمؤمنات وأن جبريل لآخذ بحجزتى، وأنى لأقول يارب سَلِّم سَلِّم، فالزالون والزالات يومئذ كثير».

وفى بعض الآثار: أن طول الصراط مسيرة ثلاثة آلاف سنة، ألف منه صعود، وألف منها هبوط،وألف منها استواء.

وقد ذكر القرطبى عن بعض أهل العلم أنه قال: لايجوز أحد الصراط حتى يسأل عند سبع قناطر. فأما القنطرة **الأولى** فيسأل عن الإيمان بالله وهى شهادة أن لا إله إلا الله فإن جاء بها مخلصاً والإخلاص قول وعمل جاز، ثم يسأل على القنطرة **الثانية** عن الصلاة فإن جاء بها تامة جاز، ثم يسأل فى القنطرة **الثالثة** عن صوم رمضان فإن جاء به تاماً جاز ثم يسأل فى **الرابعة** عن الزكاة فإن جاء بها تامة جاز، ثم يسأل **الخامسة** عن الحج والعمرة فإن جاء بهما تامين جاز إلى القنطرة **السادسة** فيسأل عن الغسل والوضوء فإن جاء بها تامين جاز إلى **السابعة** وليس فى القناطر أصعب منها فيسأل فيها عن ظلامات الناس وتبعات الخلق.

تنبيه

اتفقت الكلمة على اثبات الصراط في الجملة لكن أهل الحق يثبتوه على ظاهره من كونه جسراً ممدوداً على متن جهنم أحد من السيف، وأنكر هذا الظاهر القاضى عبد الجبار المعتزلى، وكثير من أتباعه زعماً منهم أنه لايمكن عبوره وإن أمكن ففيه تعذيب ولاعذاب على المؤمنين يوم القيامة، وإنما المراد به طريق الجنة المشار إليه بقوله تعالى﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾[محمد:٥] وطريق النار المشار إليه بقوله تعالى ﴿ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴾[الصافات:٢٣] وهذا باطل لوجوب[1] رد النصوص على حقائقها وليس العبور على الصراط بأعجب من المشى على الماء .

والطبراني في الهواء والوقوف فيه. وقد أجاب ﷺ عن سؤال حشر الكافر على وجهه بأن القدرة صالحة لذلك.

وأنكر العلامة القرافى: كون الصراط أدق من الشعر وأحد من السيف، وسبقه إلى ذلك شيخه العز بن عبد السلام.

وقال المنكر لكون الصراط أدق من الشعر وأحد من السيف، هذا إن ثبت حمل على غير ظاهره لمنافاته للأحاديث الأخر من قيام الملائكة على جنبته وكون الكلاليب والحسك فيه وإعطاء كل من المارين عليه من النور قدر موضع قدميه.

قال القرافى والصحيح أنه عريض،وقيل طريقان يمنى ويسرى، فأهل السعادة يسلك بهم ذات اليمين وأهل الشقاوة يسلك بهم ذات الشمال وفيه طاقات كل طاقة تنفذ إلى طبقة من طبقات جهنم وجهنم بين الخلق وبين الجنة والجسر على ظهرها منصوب فلا يدخل أحد الجنة حتى يمر على جهنم وهو معنى قوله تعالى ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا﴾[مريم:٧١] على أحد الأقوال.

ثم قال القرافي تبعاً للحافظ البيهقى: كون الصراط أدق من الشعر وأحد من السيف لم أجده فى الروايات الصحيحة وإنما يروى عن بعض الصحابة فيؤول بأن أمره أدق من الشعر، فإن يسر الجواز عليه وعسره على قدر الطاعات والمعاصى ولايعلم حدود ذلك إلا الله تعالى،وقد جرت العادة بضرب دقة الشعر مثلاً للغامض الخفى وضرب حد السيف لإسراع الملائكة فى المضى لامتثال أمر الله تعالى وأجازه الناس عليه،ورد هذا الإمام القرطبى وغيره والله أعلم.

---

(١) مخ «الوجوب رد » والظاهر « لوجوب حمل » .

وقد أخرج الإمام عبد الله بن المبارك وابن أبى الدنيا عن سعيد بن هلال قال: بلغنا أن الصراط يوم القيامة يكون على بعض الناس أدق من الشعر وعلى بعض مثل الوادى الواسع(ثم) جزم بعد البعث والنشور وأخذ الصحف والمرور بثبوت (**حوض**) النبى (المصطفى) نبينا محمد ﷺ فإنه حق ثابت بإجماع أهل الحق قال تعالى ﴿ **إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ** ﴾.

قال الحافظ السيوطى: ورد ذكر الحوض من رواية بضعةوخمسين صحابياً منهم الخلفاء الأربعة الراشدون وحفاظ الصحابة المكثرون وغيرهم رضوان الله عليهم أجمعين ثم ذكر الأحاديث عنهم.

قال القرطبى: ذهب صاحب **القوت إلى أن الحوض بعد الصراط**، قال والصحيح أنه قبله، وكذا قال الغزالى ذهب بعض السلف إلى أن الحوض يورد بعد الصراط وهو غلط. قال القرطبى: والمعنى يقتصى تقديم الحوض على الصراط فإن الناس يخرجون من قبورهم عطاشا فناسب تقديمه لحاجة الناس إليه.

قال ابن حمدان فى عقيدته: يشرب منه المؤمنون قبل دخول الجنة وبعد جواز الصراط.

قال القرطبى: إن للنبى ﷺ حوضين أحدهما فى العرض قبل الصراط، والثانى فى الجنة، وكلاهما يسمى كوثراً، والكوثر فى كلام العرب الخير الكثير.

قال الجلال السيوطى: وقد ورد فى التصريح عند الحاكم وغيره **بأن الحوض** بعد الصراط فإن قيل إذا خلصوا من الموقف دخلوا الجنة فلم يحتاجوا إلى الشرب منه، فالجواب: بل يحتاجون إلى ذلك لأنهم محبوسون هناك لأجل المظالم، فكان الشرب فى موضع القصاص، ويحتمل الجمع بأن يقع الشرب من الحوض قبل الصراط لقوم وتأخيره بعده لآخرين بحسب ماعليهم من الذنوب والأوزار حتى يهذبوا منها على الصراط ولعل هذا أقوى أ هـ.

قال العلامة الشيخ مرعى: وهذا فى غاية التحقيق جامع للقولين وهو دقيق. انتهى.

تنبيهان

الأول: اختلفت الروايات فى تحديد الحوض وتقديره اختلافا كثيراً، ففى بعضها مسيرة شهر وزواياه سواء فى بعضها، كما بين عدن وعمان، وفى بعضها مابين صنعاء والمدينة وفى مسلم بين مابين عدن وعمان البلقا وغير ذلك.

قال النووى : ليس فى ذكر المسافة القليلة مايدفع المسافة الكبيرة ، فالأكثر ثابت بالحديث الصحيح فلا معارضة. وقال بعضهم: سبب الاختلاف ملاحظة سرعة السير وعدمها، فقد عهد فى الناس من يقطع مسيرة عشرة أيام فى ثلاثة أيام وتمسكه، وأكثر من ذلك وأقل والله أعلم.

الثانى: جاء فى الأحاديث أن لكل نبى حوضاً، فأخرج الترمذى من حديث سمرة بن جندب رضى الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ « أن لكل نبى حوضاً إلا صالحاً عليه السلام، فإن حوضه ضرع ناقته والله أعلم.

(فكن) أيها الناظر لنظامى السامع لكلامى (مطيعاً) لما جاءت به الأخبار من صحيح المنقول (واقف) أمر من قفوته قفوا تبعته أى اتبع فى اعتقادك (أهل الطاعة) من فرقة أهل السنة، فإنها الفرقة الناجية، والطاعة اسم من أطاع يطيعه فهو مطيع والاسم والطاعة فى إثبات (الكوثر) وهو فوعل من الكثرة والواو زائدة، ومعناه الخير الكثير.

قال النبى ﷺ وقد سأل ماالكوثر؟ « ذلك نهر أعطانيه الله عزوجل - يعنى الجنة - أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل فيه طير أعناقها كأعناق الجزر »: قال عمر رضى الله تعالى عنه إن هذه لناعمة. قال رسول الله ﷺ « أكلتها أنعم منها» رواه الترمذى وقال: حديث حسن.

وفى صحيح البخارى عن أنس رضى الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: « بينا أنا أسير فى الجنة إذ أنا بنهر حافتاه قباب اللؤلؤ المجوف فقلت ماهذا ياجبريل؟ قال:هذا الكوثر الذى أعطاك ربك. قال: فضرب الملك بيده فإذا طينته مسك أذفر ».

قال المحقق فى كتاب حادى الأرواح: قالت عائشة رضى الله تعالى عنها.

الكوثر نهر فى الجنة ليس أحد يدخل أصبعيه فى أذنيه إلا سمع خرير ذلك النهر شبه الخرير الذى يسمعه حين يدخل أصبعيه فى أذنيه انتهى(و) اقف أهل الطاعة واتبع أهل السنة والجماعة فى (الشفاعة) وهى لغة الوسيلة والطلب وعرفا سؤال الخير للغير، كذا عرفها بعضهم.

والحق أنها مشتق من الشفع الذى هو ضد الوتر فكأن الشافع ضم سؤاله إلى سؤال المشفوع له من شفع يشفع بفتح العين المهملة شفاعة فهو شافع وشفيع والمشفع بكسر الفاء الذى يقبل شفاعته واعلم أن « للنبى ﷺ » شفاعات.

الأولى الشفاعة العظمى التى يشفع فيها لأهل الموقف حتى يقضى بينهم بعد أن يتدافعها الأنبياء أصحاب الشرائع آدم إلى نوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام وهى المقام المحمود. وقد ورد من حديث الصديق الأعظم وأنس وأبى هريرة، و ابن عباس، وابن عمر، وحذيفة وعقبة بن عامر وأبى سعيد الخدرى وسلمان الفارسى هؤلاء ورد أمر الشفاعة فى أحاديثهم مطولا وورد مختصراً من حديث أبى بن كعب وعبادة بن الصامت وجابر بن عبدالله بن سلام وغيرهم رضى الله تعالى عنهم أجمعين. أخرج الإمام أحمد والبخارى ومسلم وغيرهم من حديث أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه أن النبى ﷺ قال: «يجتمع المؤمنون يوم القيامة فيلهمون لذلك فيقولون لو استشفعنا إلى ربنا فيريحنا من مقامنا هذا فيأتون آدم فيقولون ياآدم أنت أبو البشر خلقك الله بيده وأسجد لك ملائكته وعلمك أسماء كل شئ فاشفع لنا إلى ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا فيقول لهم آدم لست هناكم ويذكر ذنبه الذى أصابه فيستحى ربه من ذلك ويقول ولكن ائتوا نوحاً فإنه رسول بعثه الله إلى أهل الأرض فيأتون نوحاً فيقول لست هناكم ويذكر خطيئته سؤاله ربه ماليس له به علم فيستحى ربه من ذلك ولكن ائتوا إبراهيم خليل الرحمن فيأتونه فيقول لست هناكم ولكن أئتوا موسى عبداً كلمة الله وأعطاه التوراة فيأتون موسى فيقول لست هناكم ويذكر لهم النفس التى قتل بغير حق فيستحى ربه من ذلك ولكن ائتوا محمداً عبداً غفر له ماتقدم من ذنبه وماتأخر فيأتوننى فأقوم فامشى بين سماطين من المؤمنين فاستأذن على ربى فإذا رأيت ربى وقعت ساجداً فيدعنى ماشاء الله أن يدعنى ثم يقال ارفع محمد قل يسمع واشفع تشفع وسل تعط فأرفع رأسى وأحمده بتحميد يعلمنيه ثم اشفع » الحديث.

وأخرج الترمذى والبيهقى عن أنس رضى الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ «أنا أول الناس خروجاً إذا بعثوا وخطيبهم إذا أنصتوا وقائدهم إذا وفدوا وشافعهم إذا حبسوا ومبشرهم إذا أيسوا، لواء الكرم بيدى ومفاتيح الجنة يومئذ بيدى وأنا أكرم ولد آدم يومئذ على ربى ولافخر يطوف على ألف خادم كأنهم اللؤلؤ المكنون ».

وعند البخارى ومسلم وغيرهما من حديث أبى هريرة رضى الله عنه أنه ﷺ قال « أنا سيد الناس يوم القيامة وهل تدرون مم ذاك يجمع الله الأولين والآخرين فى صعيد واحد يسمعهم الداعى وينفذهم البصر وقد تدنو منه الشمس فيبلغ الناس من الغم والكرب مالا يطيقون ولايحتملون فيقول الناس ألا ترون إلى ما أنتم فيه إلى ماقد بلغكم ألا تنظرون إلى من يشفع لكم إلى ربكم؟ فيقول بعض الناس أبوكم آدم فيأتونه فيقولون يا آدم أنت أبو

البشـر خلقك الله بيده ونفخ فيه من روحـه وأمر الملائكة فسـجدوا لك وأسكنك الجنة ألا تشفع لنا إلى ربك ألا ترى مانحن فيه ومابلغنا فيقول إن ربى غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مـثله ولايغضب بعده مثله وإنه نهـانى عن الشجرة فعـصيت نفسى إذهبـوا إلى غيرى إذهبوا إلى نوح فيـحيلهم على ابراهيم وإبراهيم على موسى وموسى على عيـسى وعيسى يقول إذهبوا إلى غيرى إذهبـوا إلى محمد فيأتونى فيقولون يامـحمد أنت رسول الله وخاتم الأنبياء وقد غفر لك ماتقدم مـن ذنبك وماتأخر اشفع لنا إلى ربك ألا ترى إلى مانحن فيه فأنطلق فآتى تحت العرش فأقع ساجداً لربى ثم يفتح الله على من محامد وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتحه على أحد قبـلى ثم يقال يامحمد ارفع رأسك سل تعطه واشفع تشفع فأرفع رأسى فأقـول أمتى يارب فيقـال يامحمد أدخل مـن أمتك من لاحساب عليـهم من الباب الأيمن من أبواب الجنة وهم شـركاء الناس فيـما سوى ذلك مـن الأبواب، ثم قال والذى نفســى بيده إن مابين المـصراعين من مـصاريع الجنة كـما بين مكة وهـجر وكمـا بين مكة وبصرى ».

فـوائـد

الأولى: هذه الشفاعة العامة التى خصى بها نـبينا محمد ﷺ من بين سائر الأنبياء هى المرادة بقوله ﷺ « لكل نبى دعوة مستجابة فتـعجل كل نبى دعوته وإنى اختبأت دعوتى شفاعـة لأمتى » هذه الشفاعة لأصل الموقف إنما هى لأجل حـسابهم ويراحوا من الموقف، كما قاله القرطبى فى تذكرته قال: وقـوله فى حديث أبى هريرة « يامحمد ادخل من أمتك من لاحساب عليهم مـن الباب الأيمن » يدل على أنه شُفِّع فيما طلب من تعـجيل حساب أهل الموقف فإنه لما أمر بإدخال من لاحـساب عليه من أمته فقد شـرع فى حساب من عليه حســاب من أمته وغـيرهم وكان طلب هذه الشـفاعة من الناس غلط ثم يلهـون وذكر ابن برجان فى الإرشـاد وإن الذى يدلهم على ذلك رؤس المحشـر وهو رأساً اتبـاع الرسل قال الحافظ الجلال السيوطى وحديث لكل نبى دعـوة الخ متواتر وحكمة إلهام الناس التردد إلى غير النبى ﷺ قبله ولم يلهموا المجئ إليه من أول وهلة لإظهار فضله، وشرفه ﷺ .

الثانية: شفاعـة النبى ﷺ من السمعـيات وردت بها الآثار حتى بلغت مـبلغ التواتر المعنوى وانعقد عليها إجماع أهل الحق قبل ظهور المبتدعة **لكن هذه الشفاعة العظمى مجمع عليـها لم ينكرها أحـد ممن يقول بـالحشـر إذ هى للاراحة من طول الوقـوف حين يتـمنون الإنصرف من موقفهم ذلك ولو إلى النار.**

الثالثة: سئل القاضى جلال الدين البلقينى عن حكم سجود النبى ﷺ من حيث الوضوء فأجاب بأنه باق على طهارة غسل الموت ويحتمل وهو الأصح بأن أمور الآخرة ليست كأحكام الدنيا إذ الآخرةليست بدار تكليف فلا يتوقف السجود فيها على وضوء، والله أعلم.

فإنها ثابتةٌ للمصطَفى كغيرِهِ من كل أسباب الوفاَ

مِن عالم كالرُسلِ والأبرار سوَى الذى خصَّت بذِى الأنوارِ

(فإنها) أى الشفاعة العظمى وغيرها من سائر الشفاعات الآتى ذكرها (ثابتة) بالنقل الصحيح بل المتواتر (لـ) لنبى(المصطفى) ﷺ (كـ)ما أنها ثابتة لـ(غيره) أى غير نبينا ﷺ . (من كل أرباب) أى أصحاب (الوفا) بامتثال الأوامر والانتهاء عن الزواجر، ثم أخذ فى بيان ماأجمل من أرباب الوفا بقوله(من عالم) عامل بعلمه معلم لغيره وهم الربانيون هؤلاء ورثة الأنبياء فهؤلاء كما نفعوا الناس فى الدنيا بالدلالة والتعليم كذلك ينفعونهم بالشفاعة عند المولى الجواد الكريم فيقبل شفاعاتهم ويعلى درجاتهم (كالرُسْل) جمع رسول وهو من أوحى إليه بشرع من بنى آدم وأمر بتبليغه وكذا الأنبياء خواص الخلق من بنى آدم (والأبرار) جمع بار، وهم الأتقياء الأخيار.

والحاصل أنه يجب أن يعتقد أن غير النبى ﷺ من سائر الرسل والأنبياء والملائكة والصحابة والشهداء والصديقين والأولياء على اختلاف مراتبهم ومقاماتهم عند ربهم وبقدر جاههم ووجاهتهم يشفعون لثبوت الأخبار بذلك فيجب تصديقه والقول بموجبه لثبوت الدليل فقد قال ﷺ « أنا أول شافع وأول مشفع » رواه أبو هريرة، أخرجه مسلم.

وأما حديث ابن مسعود رضي الله عنه عند البيهقى قال يشفع نبيكم ﷺ رابع أربعة جبريل ثم إبراهيم ثم موسى أو عيسى ثم نبيكم ﷺ لايشفع أحد فى أكثر مما يشفع فيه نبيكم ﷺ ثم الملائكة ثم النبيون ثم الصديقون ثم الشهداء. قال البخارى كذا قال الزعرا عن ابن مسعود ولايتابع عليه، والمشهور أنه ﷺ أول شافع وكذا قال غير البخارى من أئمة الحفاظ، وأخرج الطبرانى فى الكبير، والبيهقى عن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ « ليدخلن الجنة قوم من المسلمين قد عذبوا فى النار برحمة الله وشفاعة الشافعين» وأخرج الطبرانى فى الأوسط عن أنس رضى الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ « يشفع الله آدم يوم ا لقيامة من جميع ذريته فى مائة ألف ألف عشرة آلاف ألف» وأخرج ابن أبى عاصم والأصبهانى عن أبى أمامة رضى الله تعالى عنه قال:

قال رسول الله ﷺ « يجاء بالعالم والعابد فيقال للعابد ادخل الجنة ويقال للعالم قف حتى تشفع للناس» وأخرج الديلمى من حديث ابن عمر رضى الله تعالى عنهما مرفوعا «يقال اشفع فى تلامذتك ولو بلغ عددهم نجوم السماء» وأخرج الترمذى والحاكم وصححاه والبيهقى عن عبدالله بن أبى الجدعاء قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول« ليدخلن الجنة بشفاعة رجل من أمتى أكثر من بنى تميم قالوا سواك يارسول الله؟ قال سواى ».

قال القرطبى يقال إنه عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه وأخرج البيهقى عن الحسن مرفوعاً « ليدخلن الجنة بشفاعة رجل من أمتى أكثر من ربيعة ومضر» وأخرج الترمذى وحسنه والبيهقى عن أبى سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ «إن من أمتى لرجالا يشفع الرجل منهم فى الفئام من الناس فيدخلون الجنة بشفاعته ويشفع الرجل منهم للقبيلة ويدخلون الجنة بشفاعتهم ويشفع الرجل منهم للرجل وأهل بيته فيدخلون الجنة بشفاعته» وأخرج الطبرانى عن ابن مسعود رضى الله عنه قال: لاتزال الشفاعة بالناس وهم يخرجون من النار حتى أن إبليس الأباليس ليتطاول لها رجاء أن تصيبه.

والحاصل: أن للناس شفاعات بقدر أعمالهم وعلو مراتبهم وقربهم من الله تعالى والقرآن يشفع لأهله والإسلام يشفع لأهله والحجر الأسود يشفع لمستلمه ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾[الأنبياء: ٢٨] ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ وبالله التوفيق(سوى) أى نبينا محمد المختار ﷺ ماتعاقب الليل والنهار فلا يشاركه فيها نبى مرسل ولاملك مقرب ولاصديق لأنها مختصة بجنابه الرفيع والشفاعات المختصة به ﷺ عدة.

أولها: وهى أعظمها وأعمها شفاعته ﷺ لفصل القضاء بين الورى بعد التردد إلى الأنبياءوتدافعها بين أخبار الملأ إلى أن تصل لصاحب الحوض المورود وهى المقام المحمود وقد عم العالم زيادة القلق وتصاعد العرق وقاسوا من ذلك مايذيب الأكباد وينسى الأولاد وهذه مجمع عليها لم ينكرها أحد.

ثانيهما: يشفع عند ربه فى إدخال قوم من أمته الجنة بغير حساب فإن هذه خاصة به أيضاً ﷺ ، كما قاله القاضى عياض والإمام النووى وتردد ابن دقيق العيد فى الإختصاص وتبعه الحافظ ابن حجر قال فإن: الاختصاص إنما يثبت بالدليل ولادليل عليه.

ثالثهما: شفاعته ﷺ فى قوم استوجبوا النار بأعمالهم فيشفع فيهم فلا يدخلونها، وهذه جزم القاضى وابن السبكى فى عدم اختصاصها به ﷺ وتردد النووى فى ذلك قال

السبكى: لأنه لم يرد نص صريح بثبوت الأختصاص ولابنفيه وجزم فى الأنموذج بأنها من خصائصه ﷺ .

رابعها: فى رفع درجات أناس فى الجنة فى الأنموذج جوز النووى فى اختصاص هذه والتى قبلها به ووردت الأحاديث فى التى قبلها،وصرح به القاضى عياض وابن دحية.

خامسها: الشفاعة فى إخراج عموم أمته من النار حتى لايبقى منهم أحد ذكره السبكى وبالشفاعة لجماعة من صلحاء المسلمين ليتجاوز عنهم فى تقصيرهم فى الطاعات ذكره القزوينى فى العروة الوثقى.

فصل

فى الكلام على الجنّة والنار

ولما أنهى الكلام على الشفاعة وأقسامها وتفصيلها وأحكامها أعقب ذلك بذكر العظيمتين: دار القرار للأخيار، ودار البوار للكفار، وهما الجنة والنار فقال:

وكل إنسان وكل جنّة	فى دار نار أو نعيم جنّة
هما مصير الخلق من كل الورى	فالنار دار من تعدّى وافترى
ومن عصى بذنبه لم يخلد	وإن دخلها يابوار المعتدى

(وكل إنسان) من بني آدم، فالإنس والإنسان من البشر والواحد إنس،وإنسىّ، والجمع أناسى، والمرأة انسان وبالهاء عامة كما فى القاموس.

(وكل جِنَّة) بكسر الجيم وتشديد النون مفتوحة طائفة من الجن والجان اسم للجن أى كل واحد من الثقلين اللذين هما الإنس والجن لابد أن يكون(فى) إحدى الدارين، أما فى (دار نار) وهى البوار ومقر الكفار وهى جسم لطيف محرق يطلب العلو يذكر ويؤنث وألفها منقلبة على واو بدليل تصغيره على نويره وتجمع جمع فله على نبره، وأنور وجمع كثرة على نيران، ونور ضوءها وضوء كل نير، وهو ضد الظلمة،والنار سبع طباق أعلاها جهنم، فلظى، ثم الحطمة، ثم السعير، ثم سقر، ثم الجحيم، ثم الهاوية، وباب كل واحدة منها من داخل الأخرى على الإستواء كما قاله ابن عطية وغيره (أو) فى دار (نعيم) مقيم فى (جنة) الولى الكريم الرؤوف الرحيم، فكل واحدة من الجنة والنار حق ثابت بالكتاب والسنة وإجماع الأمة وكل ماهو كذلك، فالإيمان به واجب، واعتقاد وجوده حق لارب ، والمراد من الجنة دار الثواب ومن النار دار العقاب (هما) أى الجنة والنار (مصير

الخلق) من يكونون فى الجنة كما سيأتى أن يصير إما إلى الجنة وإما إلى النار. **وأما أهل الأعراف فإن مصيرهم إلى الجنة كما يأتى.**

(فالنار) التى هى دار الهوان والبوار هى (دار من) أى كل شخص من إنس وجن (تعدى) طوره وخالف مولاه فكفر به أو بأحد من رسله أو بكتاب من كتبه أو شرع شرعه على لسان نبى بعثه ولم ينسخه.

(وافترى) فيما عبد واجترى بما قصد فلم يقف عند الحدود، ولم يف بالعهد المعهود فكل من حكم الشرع بكفره من كافراً أصلى من أهل الشرك وعبدة الأوثان والكواكب والنيران وأهل الشرائع المنسوخة بعد النسخ والتبديل من أهل التوراة والإنجيل فهم خالدون مخلدون فى النار ودار الخزى والبوار (ومن) أى وكل عبد مؤمن بالله ورسوله ولو مبتدعاً لم يحكم الشرع بكفره (عصى) بمخالفة ربه وتعدى حدوده (بذنبه) ولو كان ذنبه من أكبر الكبائر كالقتل والزنا وأكل الربا مات على الإيمان ولو لم يتب (لم يخلد) فى النار (وإن دخلها) ليطهر من الأوزار فإنه يخرج منها إما بشفاعة الشافعين أو رحمة أرحم الراحمين كما تقدم.

(يابوار) أى ياهلاك (المعتدى) **إشارة إلى تقبيح ماذهب إليه « المعتزلة » من زعمهم أن من دخل النار فهو خالد فيها لأنه إما كافر أو صاحب كبيرة مات بلا توبة، إذ المعصوم والتائب وصاحب الصغيرة إذا اجتنبت الكبائر ليسوا من أهل النار على ماسبق من أصولهم.** والكافر مخلد بالإجماع بخلاف العاصى وتقدم الكلام على ذلك بما فيه كفاية وإن مرتكب الكبيرة إذا مات ولم يتب فى مشيئة الله إن شاء عفا عنه ولم يعذبه، وإن شاء عذبه. ثم يخرجه.

وأما خلود المؤمن المصر فهو مذهب الخوارج والمعتزلة وأهل الحق على خلافه وهو الحق الذى لامرد فيه والله تعالى أعلم.

وجنــةُ النـعيـمِ للأبـرارِ مَصُونةٌ عن سائرِ الكفارِ

(وجنة النعيم) اعلم أن للجنة عدة أسماء باعتبار صفاتها ومسماها واحد باعتبار الذات فهى مترادفة من هذا الوجه وتختلف باعتبار الصفات فهى متباينة من هذا الوجه، وهكذا أسماء الرب تعالى وأسماء كتابه وأسماء رسوله وأسماء اليوم الآخر وأسماء النار، **فالإسم العام للجنة المتناول لتلك الدار وماشتملت عليه من أنواع النعيم واللذة والبهجة والسرور وقرة العين، واشتقاقها من الستر والتغطية،** ومنه الجنين لاستتاره في البطن، والجان

لاستتارهم عـن العيون، والمجن لستره ووقايتـه ومنه تسمية البستـان جنة، لأنه يستر داخله بالأشجار ويغطيـه فلا يستحق هذا الإسم إلا مـوضع كثير الشجـر مختلف الأنواع، والجُنَّة بالضم مايستجن به من ترس وغيره.

ومن أسماء الجنة: جنات النعيم قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ﴾[لقمان:٨] قال فى حادى الأرواح وهذا أيضاً إسم جامع لجميع الجنان لما تضمنه من الأنواع التى يتنعم بهـا من المأكول والمشروب والملبـوس والصور والرائحـة والمنظر البهـيج والمساكن الواسعة وغير ذلك من النعيم الظاهر والباطن.

وقوله فى النظم: (للأبرار) أشـار إلى أن هذه اللام لام الإختصـاص والإستحقـاق فلا يدخلها ولايسكنها غيرهم، والأبرار جمع بار وهو كثير البر اسم جامع للخير، ويجمع البار أيضاً على بررة.

وقد ذكر الله فـى كتابه عدة آيات يخص الجنة بأهل الإيمـان والتقوى كقـوله تعالى فى الجنة ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾، وقال تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾[النازعات:٤١] ،وهذا فى القرآن كـثير ومداره على ثلاث قـواعد: إيمان وتقوى وعمل خالص لله عزوجل على مـوافقة السنة فأهل هذه الثلاثة هم الأبرار، وهم أهل البـشرى دون من عـداهم من سائر الخلق، وعلى هذه الثـلاثة أشيـاء دارت بشارات الـقرآن والسنة جميعها وهى تجتمع فى أصلين إخلاص فى طاعة الله وإحسان إلى خلقه وترجع إلى خصـلة واحدة وهى مـوافقـة الرب تعالى فى مـحابه ولا طريق إلى ذلك إلا تحـقيق الـقدرة ظاهراً وباطنا برسول الله ﷺ .

وأما الأعمال التى هى تفاصيل هذا الأصل فهى بضعة وسبعون شعبة أعلاها قول لا إله إلا الله، و أدناها إماطة الأذى عن الطريق، وبين هاتين الشعبتـين التى مرجعها إلى تصديق الرسول فى كل ماأخبر به وطاعته فى جميع ماأمر به إيجاباً واستحباباً، واجتناب مانهى عنه تحريماً وكراهة.

وفى حديث أبى هريرة رضي الله عنه قـال: قال رسول الله ﷺ : «قال الله عـزوجل أعددت لعبادى الصالحـين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولاخطر على قلب بشـر واقرؤا إن شئتم ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾[السجدة:١٧] » رواه البخارى ومسلم وغيرهما.

وفى حـديث أبى هريرة أيـضـاً رضى الله تعـالى عنه قـال: قـال رسـوله الله ﷺ :

«حجبت النار بالشهوات وحجبت الجنة بالمكاره» أخرجه البخارى ومسلم، وفى رواية لمسلم حفت بدل حجبت.

وقد ثبت أن مفتاح الجنة كلمة الإخلاص وهى: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله.

قال الحافظ ابن رجب فى كتابه التوحيد: **فى سنده انقطاع.**

وفى صحيح البخارى عن وهب بن منبه أنه قيل له: **أليس مفتاح الجنة لا إله إلا الله؟** قال: بلى! ولكن ليس مفتاح إلا وله أسنان، فإن أتيت بمفتاح له أسنان فتح لك وإلا لم يفتح.

وفى صحيح البخارى عن جابر رضى الله تعالى عنه قال: جاءت الملائكة إلى النبى ﷺ فقال بعضهم: إنه نائم، وقال بعضهم: العين نائمة والقلب يقظان، فقالوا: لصاحبكم هذا مثل، فاضربوا له مثلا، فقالوا: مثله مثل رجل بنى داراً وجعل فيها مأدبة، وبعث داعياً فمن أجاب الداعى دخل الدار وأكل من المأدبة، ومن لم يجب الداعى لم يدخل الدار ولم يأكل من المأدبة، فقالوا: ولوها يفقهها، فقال بعضهم: العين نائمة والقلب يقظان، الدار الجنة، والداعى محمد ﷺ فمن أطاع محمداً ﷺ فقد أطاع الله، ومن عصى محمداً ﷺ فقد عصى الله، ومحمد ﷺ فرق بين الناس (مصونه) أى جنة النعيم محفوظة ومحمية (عن سائر) أى جميع (الكفار) سواء كان كفرهم بالشرك أو الجحود أو إنكار النبوة أو إنكار أحد من الأنبياء أو استحلال ماعلم تحريمه أو تحريم ماعلم حله من الدين بالضرورة أو إنكار المعاد الجسمانى أو جحود ماعلم مجئ النبى ﷺ به بالضرورة، أو جحود الكتب المنزلة، أو شيئا منها، أو ملكا من الملائكة أو انتقاص ملك نبى، ونحو ذلك فالجنة لايدخلها إلا نفس مؤمنة بإجماع أهل الحق.

وأما أهل الكفر والجحود فهم فى نار جهنم لايفتر عنهم العذاب ولاينقطع فعذابهم متواصل فى دار الهوان بما كانوا يكفرون كما قال تعالى ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ * لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٧٤-٧٥] .

والآيات فى مثل هذا كثيرة، وسأل الحسن البصرى أبا مرزة عن أشد آية فى كتاب الله تعالى على أهل النار قال: سمعت رسول الله ﷺ قرأ ﴿فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَابًا﴾ [النبأ: ٣٠] فقال: هلك القوم بمعاصيهم لله عزوجل. أخرجه ابن أبى حاتم وفيه ضعف.

وفى القرآن العظيم ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ

﴿الْجَنَّةَ﴾[التوبة: ١١١] إلى قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ فأشعرت الآية الكريمة بخطر النفس الإنسانية وعظم مقدارها عند ربها، فإن السلعة إذا خفى عليك قدرها فانظر المشترى لها من هو؟ وانظر إلى الثمن المبذول فيها ماهو؟ وانظر إلى من جرى على يده عقد التبايع، فالسلعة النفس، والله تعالى المشترى لها، والثمن جنات النعيم، والسفير فى هذا العقد خير خلقه من الملائكة وأكرمهم عليه وخيرهم من البشر وأكرمهم عليه.

وفى جامع الترمذى من حديث أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ « من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل ألا إن سلعة الله غالية » قال الترمذى حديث حسن غريب.

وفى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ أمر بلالاً ينادى فى الناس: أنه لايدخل الجنة إلا نفس مسلمة، وفى لفظ: مؤمنة.

وفى كتاب صفة الجنة لأبى نعيم من حديث أبان عن أنس رضى الله تعالى عنه قال: جاء إعرابى إلى رسول الله ﷺ فقال: ماثمن الجنة؟ قال: لا إله إلا الله. **قال الإمام المحقق وشواهد هذا الحديث كثيرة جداً.**

وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة: أن أعرابياً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يارسول الله دلنى على عمل إذا عملته دخلت الجنة، قال: « تعبد الله ولاتشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة المكتوبة، وتؤتى الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان»، قال: والذى نفسى بيده لاأزيد على هذا شيئاً ولاأنقص منه، فلما ولى قال ﷺ : « من سره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا».

وفى صحيح مسلم عن عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ : من مات وهو يعلم أن لاإله إلا الله دخل الجنة ».

وفى مسند الإمام أحمد، وسنن أبى داود، عن معاذ بن جبل رضى الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « من كان آخر كلامه من الدنيا لا إله إلا الله دخل الجنة».

وفى الصحيحين عن أبى ذر رضى الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ : « آتانى آت من ربى فأخبرنى، أو قال فبشرنى أنه من مات من أمتك لايشرك بالله شيئاً دخل الجنة، قلت: وإن زنا وإن سرق؟ قال: وإن زنا وإن سرق».

وفى الصحيحين أيضاً عن عتبان بن مالك الأنصارى رضى الله تعالى عنه أن النبى ﷺ قال: « إن الله حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغى بذلك وجهه » وفى هذا

عدة أحاديث تزيد على حد التواتر.

وأجزم بأن النارَ كالجنَّة في وجودِهَا وإنهاَ لم تَتْلف

(واجزم بـأن النار) ومافـيها من أنـواع العذاب موجـود الآن ومن قبل الآن (كـــ) ماأن (الجنة) وجميع مااشتملت عليه من أنواع الملاذ والسرور موجود الآن وقبل الآن، فالنار (فى وجودها) الآن كالجنة فهما موجودتان.

قال الإمام المحـقق فى كتابه حادى الأرواح: لم يزل أصـحاب رسول الله ﷺ ورضى عنهم، والتابعون وتابعوهم، وأهل السنة والحديث قاطبة، فقهاء الإسلام، وأهل التصوف، والزهد على اعتـقاد ذلك وإثباته مـستندين فى ذلك إلى نصوص الكتـاب والسنة، وماعلم بالضرورة من أخبار الرسل كلهم من أولهم إلى آخرهم، فإنهم دعوا الأمم إليها وأخبروا بها إلى أن نبـغت نابغة من القـدرية والمعتـزلة، فأنكروا أن تكون الجنة كـالنار الآن مخلـوقة، وقالوا: بل الله ينشئها يوم المعاد إلى آخر كلامه فيها.

قال: ولهذا صار السلف الصالح ومن نحا نحوهم، يذكرون فى عقائدهم أن الجنة والنار مخلوقتان، ويذكـر من صنف المقالات أن هذه مقالة أهل السنة والحديث قـاطبة لايختلفون فيهـا، منهم الإمام أبو الحسن الأشعرى فى كتـابه مقالات الإسلاميـين واختلاف المصلين، **وفيه وأن الجنة والنار مخلوقتان.**

ولقد رأى النبى ﷺ سدرة المنتهى، ورأى عندها الجنة كمـا فى الصحيحين من حديث أنس رضى الله تعالى عنه ثم ذكر عدة أحاديث، ثم قال: وفى مسند الإمام أحمد وصحيح مسلم من حديث أبى هريرة رضى الله تعـالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: « لما خلق الله الجنة أرسل جبريل للجنـة، فقال: فانظر إليها وإلى مـاأعددت لأهلها فيهـا، فرجع وقال: بعزتك لايسمع بها أحد إلا دخلها فأمر الجنة فـحفت بالمكاره فقال فارجع فانظر إليها وإلى ماأعددت لأجلهـا قال فنظر إليها ثم رجع فـقال وعزتك لقد خشـيت أن لايدخلها أحد ثم أرسله إلى النار يركب بعضها بعضاً فقال لايدخلهـا أحد فلما حفت بالشهوات قال وعزتك لقد خشيت أن لاينجو منها أحد إلا دخلها».

قال الترمذى حديث حسن صحيح ودخوله ﷺ الجنة ورؤيته نهر الكوثر، وقصور الجنة وحورها وثمارها، ودورها، وأضعاف أضعاف مـاذكرنا من الأدلة القطعية التى يفوت عدها ويتعسر حدها (و) اجـزم بـ (انها) أى النار (لم تتلف)، أى لم تهلك وتبيد يعنى: أن النار لاتفنى ولايفنى مافيها كالجنة ومـافيها. قال المحقق فى حادى الأرواح **أما أبدية الجنة وأنها**

لاتفنى ولاتبيد فـما يعلم بالاضطرار أن رسول الله ﷺ أخبـر به قال الله تعالى﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا﴾[هود: ١٠٨] وقوله: غـير مجـذوذ أى غيـر مقطوع. وفى الصحيحين من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنه عن النبى ﷺ قال: «يجاء بالموت كأنه فى صـورة كبش أملح فيـوقف بين الجنة والنار، ثم يقال ياأهل الجنة فـيطلعون مشفقـين ويقال ياأهل النار فيطلعون فرحـين، فيقال هل تعرفون هذا؟ فـيقولون نعم: هذا الموت فـيذبح بين الجنة والنـار ويقال ياأهل الجنة خلود ولامـوت فـيهـا وياأهل النار خلود ولاموت فيهـا، ثم قرأ رسول الله ﷺ: **﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾**[مريم: ٣٩] وأشـار بيده إلى الدنيا» وفى الـصحيـحين أيضاً عن ابن عـمر رضى الله تعالى عنهـما عن النبى ﷺ قال« يدخل أهل الجنة وأهل النار ثم يقـوم مؤذن بينهم ياأهل الجنة لاموت فيها وياأهل النار لاموت، كل خالد فى ماهو فيه» وفى رواية عنه عندهما فـيزداد أهل الجنة فرحـاً إلى فرحهم ويزداد أهل النار حـزناً إلى حزنهم، وفى هذا عدة أحـاديث فثبت بما ذكر مـن الآيات الصريحة والأخبـار الصحيـحة خلود أهل الدارين خلوداً مـؤبداً كل بما هو فـيه من نعـيم وعـذاب أليم وعلى إجمـاع أهل السنة والجـماعـة **وزعمت الجهمـية أن الجنة والنار يفنيان وقال هذا إمامهـم « جهم بن صفوان »** وليس له فى ذلك سلف قط لامن الصحـابة ولامن التابعين ولا أحـد من أئمة الدين، نعم حكى بعض العلماء فى أبدية النار قولين.

أحدهما أن الله تعالى يفنيها لأنه ربهـا وخالقها لأنه تعالى على زعم أرباب هذا القول جعل لها أمداً تنتهى إليه ثم تفنى ويزول عذابها قال شيخ الإسلام: وقد نقل هذا عن طائفة من الصحابة والتابعين ولشيخ الإسلام وتلميذه المحقق ميل إلى هذا القول وذكر على تأييده بضعاً وعشـرين وجهاً، ثم قال وماذكرناه فى هذه المسـألة من صواب فمن الله وهو المان به وماكان من خطـأ فمنى ومن الشيطان والله ورسوله ﷺ بريئـان منه، والله عند لسان كل قائل وقصده. والله أعلم.

تـنـبـيـه

ذهب جمع إلى أن الموت عرض ومـعنى،والأعراض لاتنقلب أجسامـاً بل زعم بعضهم أن الموت عدم محض وأجاب بعض أهل العلم أن لعل هذا الكبش صورة ملك من الملائكة الذين يقبضـون أرواح الخلائق وإلا فالموت فى نفسه عدم مـحض راجع إلى سلب الحياة أو هو استعارة وكناية عن الخلود الدائم فضرب المثل بالموت ولاموت هناك حقيقة.

وذهب جماعة إلى أن الموت جسم لاعرض وأنه مخلوق فى صورة كبش والحياة فى صوره فرس قال الإمام أبو الحسن الأشعرى الموت أمر وجودى لقوله تعالى ﴿ **خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ** ﴾ قال الحياة فرس جبريل والموت كبش أملح وأخرج أبو الشيخ فى كتاب العظمة عن وهب بن منبه قال: خلق الله الموت كبشاً أملح مستتر بسواد وبياض له أربعة أجنحة جناح تحت العرش وجناح فى الثرى وجناح فى المشرق قال له كن فكان ثم قال له ابرز فبرز لعزرائيل.

فائدة

ذكر فى البدور السافر للسيوطى أن عند اسماعيل بن زيد الشامى فى تفسيره أن الذى يتولى ذبح الموت جبريل عليه السلام وقيل يحيى بن زكريا عليهما السلام والله أعلم.

تتمة

فى ذكر مكان الجنة والنار وأين هما على مقتضى الآثار

اعلم أن الجنة فوق السماء السابعة وسقفها عرش الرحمن، كما قال جل شأنه فى محكم القرآن ﴿ **وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ * عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ * عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ** ﴾[النجم: ١٣-١٥] وقد ثبت أن سدرة المنتهى فوق السماء السابعة وسميت بذلك لأنه ينتهى إليه ماينزل من عند الله فيقبض منها ومايصعد إليه فيقبض منها وقال تعالى ﴿ **وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ** ﴾ [الذاريات: ٢٢] قال ابن أبى نجيح عن مجاهد هوالجنة وروى أبو نعيم عن بن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه قال الجنة فى السماء السابعة ويجعلها الله تعالى حيث شاء يوم القيامة وجهنم فى الأرض السابعة.

وثبت فى الصحيحين أنه ﷺ قال « **الجنة مائة درجة مابين كل درجتين كما بين السماء والأرض**» وهذا يدل على أن الجنة فى غاية العلو والإرتفاع قال فى حادى الأرواح والجنة مقببة أعلاها ووسطها وهو الفردوس وسقفها العرش قاله ﷺ فى الحديث الصحيح« إذا سألتم الله فأسألوه الفردوس فإنه وسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرض الرحمن ومنه تنفجر أنهار الجنة » قال فى حادى الأرواح قال شيخنا أبو الحجاج المربى الحافظ والصواب رواية من رواه فوقه بضم القاف على أنه اسم الظرف أى وسقفه عرش الرحمن فإن قيل فالجنة جميعها تحت العرش سقفها، فإن الكرسى وسع السموات والأرض والعرش أكبر منه، فالجواب لما كان العرش أقرب إلى الفردوس مما دونه من الجنان بحيث لاجنة فوقه دون العرش كان سقفاً له دون ماتحته من الجنان لعظم سعة الجنة وغاية ارتفاعها

يكون الصعود من أدناها إلى أعلاها بالتدريج شيئاً فشيئاً درجة فوق درجة كما يقال لقارئ القرآن اقرأ وارق فإن منزلتك عند آخر آية كنت تقرؤها وهذا يحتمل شيئين.

أن تكون منزلته عند آخر حفظه، وأن تكون عند آخر تلاوته لمحفوظه وأخرج جويبر فى تفسيره عن معاذ بن جبل رضى الله تعالى عنه قال سئل رسول الله ﷺ من أين يجاء بجهنم يوم القيامة؟ قال« يجاء بها من الأرض السابعة لها سبعون ألف زمام معلق كل زمام سبعون ألف ملك تصيح: إلى أهلى إلى أهلى فإذا كانت من العباد مسيرة مائة سنة زفرت زفرة فلا يبقى ملك مقرب ولانبى مرسل إلا جثى على ركبتيه يقول رب نفسى نفسى » ولما أنهى الكلام على الجنة والنار أعقب ذلك بقوله:

فنسأل الله العظيمَ والنظر ... لربنا من غير ماشين غبر

فإنه ينظر بالأبصارَ ... كما أتى فى النصّ والأخبارِ

(فنسأل الله) العظيم (النعيم) المقيم فى جنات النعيم (و) نسأل الله العظيم (النظر) (لوجهه) ربنا الكريم (من غير ما)زائدة لمزيد من النفى أى من غير (شين) أى عذاب ومناقشة حساب والشين ضد الزين (غبر) بفتح الغين المعجمة والباء الموحدة أى ذهب والمراب سبق يعنى غير سابقة عذاب، يقال غبر غبوراً مكث ذهب ظل وأما النظر إلى مولانا الكريم فهو من أصول أهل الحق خلافاً لأهل الضلال ومن ثم قال (فإنه) سبحانه (ينظر بالأبصار) فى دار القرار باتفاق أئمة الدين الأبرار (كما أتى) أى جاء (فى النص) القرآن أصل النص الشئ وغايته ومنه قول الفقهاء نص القرآن ونص السنة أى مادل ظاهر لفظها عليه من الأحكام وأتى فى الأخبار النبوية والآثار السلفية وأجمع عليه أهل الحق ورؤية الله رب العالمين أعظم وأجل وأشرف وأنعم نعيم الجنة قدراً وأعلاه وأغلاه خطراً أو أمراً وهى الغاية القصوى والنهاية العظمى التى شمر إليها السابقون وتنافس فيها المتنافسون واتفق عليها الأنبياء والمرسلون والصحابة والتابعون على ثبوتها فى دار القرار وإنما أنكرها أهل البدع والضلال والتجهم والاعتزال قال الله تعالى ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣] وقال﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾[يونس: ٢٦] وقال فى حق أهل الكفر والفجور ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾[المطففين: ١٥] وقال تعالى ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾.

وأخرج مسلم والترمذى وابن ماجه عن صهيب رضى الله تعالى عنه عن النبى ﷺ قال « إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله تعالى تريدون شيئاً؟ أزيدكم فيقولون: ألم تبيض وجوهنا ألم تدخلنا الجنة وتنجينا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئاً أحب

إليهم من النظر إلى ربهم » ثم تلا هذه الآية ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ يعنى أنه يرفع الموانع عن الإدراك عن أبصارهم حتى يروه على ماهو عليه من نعوت العظمة والجلال فذكر الحجاب إنما هو فى حق الخلق لا الخالق. كذا قال القرطبى فى تذكرته.

وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن أبى موسى الأشعرى رضى الله تعالى عنه عن رسول الله ﷺ قال: « إن الله يبعث يوم القيامة منادياً ينادى بصوت يسمعه أولهم وآخرهم ياأهل الجنة إن الله وعدكم الحسنى وزيادة. الحسنى الجنة والزيادة النظر إلى وجه الرحمن».

قال الإمام الحافظ البيهقى فى كتاب الرؤيا : هذا التفسير قد استفاض واشتهر فيما بين الصحابة والتابعين، ومثله لايقال إلا بتوقيت، وفسروا قوله تعالى ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ .

* * *

الباب الخامس

فى ذكر النبوة وذكر نبينا محمد ﷺ

وذكر بعض الأنبياء وفضله وفضل أصحابه وأمته ﷺ وعلى سائر الأنبياء والمرسلين وسلم وعظم وكرم.

اعلم أن حاجة الخلق إلى ارسال الرسل وبعثه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ضرورية لاينتظم لهم حال ولايصلح لهم دين ولابال إلا بذلك فإنهم أشد إحتياجاً إلى ذلك من ارسال المطر والهواء، بل ومن النفس الذى لابد لهم منه كما فى مفتاح دار السعادة للمحقق ابن القيم رحمه الله تعالى، والحق أنه جائز عقلاً فى حقه سبحانه واجب سمعاً وشرعاً وإلى ذلك أشار بقوله :

ومن عظيم منّه السلامِ   ولُطفه بسائرِ الأنام
أن أرشدَ الخلقَ إلى الوصول   مبيناً للحقِّ بالرسول ﷺ

(ومن عظيم منه) الرب (السلام) المنة مأخوذة من المن وهو الإحسان إلا من لا يستثيبه ولايطلب الجزاء عليه، **ومن أسماء الله تعالى المنان وهو المنعم المعطى من المن وهو العطاء**، وقد يقع المنان على الذى يعطى شيئاً إلا منه، واعتد به على من أعطاه وهو مذموم لأن المنة نفس الصنيعة إذا كانت من غير البارى جل وعلا والسلام من أسمائه تعالى ومعناه ذو السلامة من كل عيب ونقيصة فيكون من أسمائه التنزيه، وقيل معناه مالك تسليم العباد من المهالك فارجع إلى معنى القادر.

وقيل ذو السلام على المؤمنين فى الجنان فيرجع إلى الكلام القديم الأزل (و) عظيم (لطفه) تعالى أى رفقه (بسائر) أى جميع (الأنام) كسحاب والأنام بالمد والأنيم كأمير الخلق أو الإنس والجن وجميع ماعلا وجه الأرض، والمن بإرسال الرسل شاملة الثقلين بل لكل الخلق (أن) بفتح الهمزة وسكون النون حرف مصدرى تسبق مابعدها بمصدر (أرشد) أى هدى، ودل وداعاً سبحانه وتعالى وأن ومابعدها فى تأويل مصدر مبتدأ، والخبر قوله فى البيت قبله ومن عظيم . . . إلخ.

والتقدير أرشد الخلق إلى الوصول كائن من عظيم منه السلام (الخلق) من الثقلين (إلى الوصول) إلى معرفة الله وعبادته والقيام بما شرعه من التكليف الذى ثمرته الفوز بالسلامة الأبدية والسعادة السرمدية والنعيم المقيم حال كونه (مبينا) أى مظهراً وموضحاً (لـ) نهج

(الحق) وهو الحكم المطابق للواقع ويطلق على الأقوال والعقائد والأديان والمذاهب، باعتبار اشتمالها على ذلك ويقابله الباطل (بالرسول) متعلق بيمين، والرسول إنسان أوحى إليه بشرع وأمر بتبليغه، وتقدم فى صدر الكتاب.

تنبيهان

الأول: فى قوله: ومن عظيم منه السلام البيتين، إشارة إلى أن إرسال الرسل وإنزال الكتب وشرع الشرائع منه **من الله تعالى وفضل لاواجب عليه،** ذلك وإنما هو على سبيل اللطف بالخلق والفضل عليهم فبعثه تعالى جميع الرسل من آدم إلى محمد ﷺ أجمعين، إلى المكلفين لطفاً من الله بهم ليبلغوهم عنه سبحانه أمره ونهيه، ووعده ووعيده، وبينوا لهم عنه سبحانه مايحتاجون إليه من أمور المعاش والمعاد، مما جاءوا به من شرائعهم وأحكامهم التى نزلها الله فى كتبه عليهم اختصاصاً كالقرآن العظيم، واشتراكاً لتوراة موسى وهارون، ويوشع ومن بعدهم إلى عيسى عليه وعليهم السلام، حتى تقوم الحجة عليهم بالبينات وتنقطع عنهم سائر التعللات. كما قال تعالى **﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً﴾** [طه: ١٣٤]، وقوله **﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً﴾** وقوله **﴿رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾**[النساء: ١٦٥] فلولا إعذاره تعالى على ألسنة الرسل، وإقامة الحجة عليهم ببعثة هل خيرته ممن ذوى النبوة والفضل، لتوهموا أن لهم حجة سائغة ومعذرة، فإرسال الرسل لمعاضد العقل أمر جائز فى حقه وواجب وقوعاً وسمعاً، يزيد هذا وضوحاً.

التنبيه الثانى: **أن الرسالة ضرورية للعباد لاغنى لهم عنها،** وحاجتهم إليها فوق حاجتهم إلى كل شئ، فإن الرسالة روح العالم ونوره وحياته. فأى صلاح للعالم إذا أعدم الروح والحياة والنور والدنيا مظلمة. ملعون كلها إلا ماطلعت عليه شمس الرسالة، **وكذلك العبد مالم تشرق فى قلبه شمس الرسالة، وتناله حياتها وروحها، فهو فى ظلمة،**وهو من الأموات. قال الله تعالى **﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾**[الأنعام: ١٢٢] فهذا وصف المؤمن كان ميتاً فى ظلمات الجهل، فأحياه الله بروح الرسالة، وبنور الإيمان وجعل له نوراً يمشى به فى الناس.

وأما الكافر فميت القلب فى الظلمات،وسمى الله تعالى رسالته روحا، والروح إذا عدمت فقدت الحياة، قال تعالى: **﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾**[الشورى: ٥٢]. فالروح الحياة والنور والإضاءة المزيلة للظلمة، **فالكافر فى ظلمة الكفر والشرك وهو ميت غير حى،** وإن كان فيه حياة بهيمة لكنه عادم **الحياة الروحانية العلوية،** الناشئة عن الإيمان

وبها يحصل للعبد الفوز والسعـادة والفلاح في الدنيا والآخرة، فإن الله تعالى جعل الرسل عليهم السلام **وسائط بينه وبين عباده في تعريفهم ماينفعهم ومايضرهم، وتكميل مايصلهم في معاشهم ومعادهم، فبعثوا جميعاً بالدعوة إلى الله تعالى وتعريف الطريق الموصل إليه**، وبيان حالهم بعد الوصول إليه فأرشدوهم إلى توحيده تعالى. وإثبات صفاته وإثبات القدر وذكر أمام الله تعالى في أوليائه وأعدائه وهي القصص التي قصها على العباد والأمثال التي ضربها لهم وأرشدوهم إلى العلم بتفصيل الشرائع، والأمر والنهي والإباحة وبيان مايحبه الله تعالى ويكرهه.

وكذلك بينوا لهم وجوب الإيمان باليوم الآخر والجنة والنار، والثواب، والعقاب. **وعلى هذه الثلاثة أصول مدار الخلق والأمر والسعادة، والفلاح** موقوفة عليها ولاسبيل إلى معرفتها إلا من جهة الرسل - فلا فلاح إلا باتباع الرسول ﷺ فإن الله تعالى خص بالفلاح أتباعه المؤمنين، وأنصاره كما قال تعالى **﴿ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾**[الاعراف:١٥٧] أي لامفلح إلا هم فالهدى والفلاح دائر حول ربع الرسالة وجودا وعدما قال النبي ﷺ «إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب» قال شيخ الإسلام روح الله روحه في قاعدة وجوب الاعتصام بالنبي ﷺ :وهذا المقت لعدم هدايتهم بالرسل فرفع الله عنهم هذا المقت برسول الله ﷺ فبعثه الله رحمة للعالمين ومحجة للسالكين وحجة على الخلق أجمعين، وافترض على العباد طاعته وتوقيره وتعزيره والقيام بأداء حقوقه، وسد إليه جميع الطرق فلم يفتح لأحد إلا من طريقه، وأخذ العهود والمواثيق بالإيمان به، واتباعه على جميع الأنبياء والمرسلين، وأمرهم أن يأخذوها على من اتبعهم من المؤمنين. أرسله بين يدي الساعة بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً. فختم به الرسالة وهدى به من الضلالة وعلم به من الجهالة، وفتح برسالته أعينا عمياء، وآذانا صما وقلوباً غلفاً فأشرقت برسالته الأرض بعد ظلماتها وتألفت بها القلوب بعد شتاتها، فأقام به الملة العوجاء، وأوضح به المحجة البيضاء وشرح له صدره ووضع عنه وزره، ورفع له ذكره وجعل الذلة والصغار على من خالف أمره، أرسله ﷺ على حين فترة من الرسل، ودروس من الكتب حين حرف الكلم وبدلت الشرائع، واستند كل قوم إلى ظلمة آرائهم، وحكموا على الله وبين عباده بمقالاتهم الفاسدة وأهوائهم النادرة فهدى الله به الخلائق، وأوضح فيه الطريق، وأخرج الناس به من الظلمات إلى النور، وميز به بين أهل الفلاح، وأهل الفجور فمن اهتدى بهديه اهتدى ومن مال عن سبيله فقد ضل واعتدى، فصلى الله وسلم عليه وسائر الرسل والأنبياء مالاح نجم وبدا، وعلى آله وصحبه والتابعين ومن اقتدى.

وشرط من أُكرم بالنَّبوة حـريـة ذكـورة كـقـوة

(وشرط) مبتدأ (من) أى كل انسان (أُكرم) بضم الهـمزة مبينا لما لم يسم فاعله أى أكرمه الله تعالى (بالنبوة) بضم النون والـباء الموحدة وتشديد الواو (حرية) خبـر المبتدأ وذلك لأن الرق وصف نقص لايليق بمقام النبـوة، وشرط من أكرمه الله بالنبـوة أيضاً (ذكورة) أى أن يتصف بالذكوريـة. لقوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ ﴾[النحل: ٤٣] فأثبت الرسالة للرجال الموحى إليهم وأشعر بنفى ذلك عن غيرهم فلا تكون أنثى نبيه (كقوة) أى كما يعتـبر فيمن أكرمه الله تعـالى بالنبوة أن يكون قوياً بأعباء مـاحمل من ثقل النبوة، يعتـبر كونه حراً ذكـراً، والقوة الطاقة والجمع قـوُىً بالضم وبالكسر ذا عقل صحـيح وفهم رجيح، وعلم بالأمور الدينيـة حسن الخلق والخلق ليسهل عليه تحمل الخلق فـى مخالطتهم وتعليمهم لأمور الديانة، **فإن الأنبياء منزهون عن جـميع الرذائل من البخل والجبن، واللهو واللغو، وسـائر الأخلاق الذميـمة، كمـا أنهم مبرؤن من لوم النسب وشـره القلب وحرص النفس على الدنيا. ولهذا لم يبعث نبياً عبداً ولا لئيماً ولا امرأة.**

والحاصل: **اختـصاص الـنبوة بأشـرف أفراد النوع الانسـانى من كمـال العقل والـذكاء والفطنة وقوة الـرأى، ولو فى الصبا كـعيسى ويحـيى عليهـما السلام و(السـلامة)** من كل مانفـر عن الاتباع كدناءة الأباء ، وعـهر الأمهـات، والغلظة والفضـاضة،والعيـوب المنفرة للطباع، كـالبرص والجذام،والأمـور المخلة بالمروءة، كالأكل على الطريق والحرف الدنيـئة، كالحجامة وكل مايخل بحكمة البعثة ونحو ذلك.

ولما ذكر مأأشعـر بانفراد كل النوع الإنسانى بالنبوة واختصـاص الذكور الأحرار المنزهين عن النقائص، خشى أن يتوهم متوهم أن ذلك يدرك بالرياضـة والتهذيب والجد والاجتهاد، فنفى ذلك بقوله:

ولاتُنـــال رتبـــة الـنـبـوَّة بالكسـب والتهذيب والفتـوةً
لكنَّها فضلٌ من المولى الأجلّ لمن يشاءُ من خلقه إلى الأجلِ

(ولاتنال) بضم التـاء المثناة فـوق مبنيـاً لما يسم فـاعله أى لم تعط (رتبـة) بالرفع نائب فاعل، والرتبة بالضم، والمرتبة: المنزلة (النبوة) بالجر لإضافـتها إلى الرتبة، وهى صفة عالية ينكشف بها من الغيوب، التى هى مطلوبات الله تعالى من عباده وأحكامه التى يكلفهم بها انكشافـاً يناسب انكشاف رائحـة المسك، بجذب النفس إلى الأنف، والمراد بهـا هنا مايعم الرسالة كما لايخفى.

(بالكسب) متعلق بلا تنال (و) لاتنال أيضا با (لتهذيب) أى تنقية البدن، وتصفية الأخلاق وخلوص النية من الأخلاق الرديئة، وتبقية الأوصاف الجميلة، والنعوت الجليلة (و) لاتنال أيضاً بـ (الفتوة) أى كرم النفس وتخليصها من الأوصاف المذمومة إلى الأوصاف الممدوحة.

فمذهب أهل الحق أن النبوة لاتنال بمجرد الكسب بالجد والاجتهاد، وتكلف أنواع العبادات واقتحام أشق الطاعات (لكنها) أى النبوة والرسالة (فضل من المولى الأجل) سبحانه وتعالى يؤتيه من يشاء من عباده ممن سبق علمه، وإرادته الأزليان، باصطفائه لها. فالله أعلم حيث يجعل رسالته، وهذا خلاف قول الفلاسفة، وعندهم أن القرآن كلام النبى، وهذا من أعظم الكفر.

والحاصل: أن النبوة فضل من الله وموهبة ونعمة يمن بها سبحانه ويعطيها (لمن يشاء) أن يكرمه بالنبوة (من خلقه) ومن زعم أنها مكتسبة فهو زنديق يجب قتله لأنه يقتضى اعتقاده أن النبوة لاتنقطع، وهو مخالف للنص القرآنى، والأحاديث المتواترة بأن نبينا ﷺ خاتم النبيين عليهم السلام، ولهذا قال (إلى الأجل) يعنى أن النبوة فضل من الله، وكان ذلك ممتداً من عهد الأب الأول الصفى آدم عليه السلام، إلا أن بعث الخاتم النبى الحبيب محمد ﷺ ، ولهذا قال:

منها كلام الله معجز الورى كذا انشقاق فى غير امترا

(منها) أى من معجزات نبينا ﷺ ،بل أعظمها وأجلها (كلام الله) المنزل على النبى المرسل (معجز الورى) كفتى الخلق، جميعهم، إنسهم، وجنيهم أولهم وآخرهم، فهو معجز بنفسه ليس فى وسع البشر الإتيان بسورة من مثله وتقدم ،و(كذا) من غرر معجزاته ﷺ (انشقاق) البدر أى القمر فانشقاق القمر نصفين ثابت (من غير امتراء) أى من غير شك ولاجدل مأخوذ من المرية بالضم والكسر الشك والجدل وقضية، ذلك كما فى الصحيحين من حديث أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه، أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية ، فأراهم القمر شقتين حتى حراء بينهما.

وقال شيبان عن قتادة: فأراهم انشقاق القمر مرتين، وفى حديث ابن مسعود رضى الله عنه عند البخارى ومسلم وغيرهما ، قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فرقتين فرقة فوق الجبل وفرقة دونه فقال رسول الله ﷺ : اشهدوا وقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما اجتمع المشركون إلى رسول الله ﷺ فقالوا : إن كنت صادقاً فشق لنا القمر

فرقتين، فقال لهم رسول الله ﷺ إن فعلت تؤمنون؟ قالوا نعم، فسأل رسول الله ﷺ ربه أن يعطيه ماسئلوا فانشق القمر فرقتين ورسول الله ﷺ ينادى: يافلان اشهدوا وذلك بمكة قبل الهجرة.

وروى الطبرانى عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فقال قوم: هذا سحر ساحركم ابن أبى كبيثة فاسألوا السفار يقدمون عليكم، فإن كان مثلما رأيتم فقد صدق وإلا فهو سحر، فقدم السفار فسألوهم فقال: نعم، قد رأينا انشقاق القمر.
قلت: قد ثبت انشقاق القمر بنص القران العظيم وبالسنة الصحيحة الصريحة وقد بلغت الأحاديث بذلك مبلغ التواتر وأجمع على ذلك أهل الحق، وهذا من خصائص نبينا محمد ﷺ التى اختص بها عن سائر المرسلين والنبيين صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين وهذا من أمهات معجزاته التى لابعد لها بعد القرآن شئ ولابعد لها اية من آيات الأنبياء عليهم السلام لظهور ذلك فى ملكوت السموات خارجا عن جملة طباع مافى هذا العالم المركب من الطبائع فهو آية عظيمة ومعجزات جسيمة.

تنبيهان

الأول: قال شيخ الإسلام ابن تيمية روح الله روحه فى الجواب الصحيح: آياته ﷺ المتعلّقة بالقدرة والفعل والتأثير منها أنواع ماهو فى العالم العلوى كإنشقاق القمر وحراسة السمآء بالشهب الحراسة التامة ومعراجه إلى السماء قال: وإنما جعل الآية فى انشقاق القمر دون الشمس وسائر الكواكب لأنه أقرب إلى الأرض من الشمس والنجوم وكان الانشقاق فيما دون جزاء الفلك لأنه مستنير فيه الإنشقاق لكل من رآه ظهوراً لايتمارى فيه. فإذا قبل الانشقاق فقبول محله أولى بذلك قال: وفيه حكمتان عظيمتان **أحدهما** كونه من آيات النبوة **والثانية** أن فيه دلالة على جواز انشقاق الفلك وأن ذلك دليلاً واضحاً على ماأخبرت به الرسل عليهم السلام **من انشقاق السموات خلافاً للفلاسفة فى زعمهم أن الفلك لايقبل الخرق والإلتئام، ومنها ماهو فى الجو** كاستسقائه واستصحائه وطاعة السحاب فى حصوله، وذهابه، ومنها تصرفه فى الأشجار والخشب والأحجار، ومنها تصرفه فى الحيوانات، الإنس والجن والبهائم، ومنها تأييده بملائكة السماء ومنها كفاية الله تعالى له أعداءه وعصمته من الناس، ومنها إجابة دعائه ومنها إعلامه بالمغيبات الماضية والمستقبلة، ومنها تأثيره فى تكثير الماء والشراب والطعام والثمار، وغير ذلك من دلائل نبوته وإعلام رسالته **ومعجزاته الظاهرة وآياته الباهرة**صلى الله عليه وسلم.

الثانى: أن نفسه أى النبى ﷺ الشريفة الباهرة وطلعته الظاهرة وسمته ليدل العقل على صدقه، ولهذا قال عبدالله بن سلام ﷺ فلما رأيت وجهه عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب ومن سمع كلامه ورأى آدابه لم يدخله شك فى نبوته. قال الحافظ ابن الجوزى وغيره: وثبت فى عدة أخبار أنه ﷺ كان فى صغره يعرف بالأمانة والصدق وجميل الأخلاق.

وقد قال هرقل فى حديث أبى سفيان ما كان ليترك الكذب على الناس ويكذب على الله تعالى. قال شيخ الإسلام قال نفطويه فى قوله تعالى ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾[النور: ٣٥] هومثل ضربه الله لنبيه محمد ﷺ يقول يكاد منظره يدل على نبوته وإن لم يتل قرآنا، كما قال عبد الله بن رواحه ﷺ لو لم تكن فيه آيات بينة.

فصل

فى ذكر فضيلة نبينا صلى الله عليه وسلم وأولى العزم وغيرهم من النبيين والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وأفضلُ العالمِ من غَيْرِ امتَرا   نبينا المبعوثَ فى أم القُرى

«وأفضل العالم» العلوى و السفلى من ملك وبشر وجن فى الدنيا و الآخرة فى سائر خلال الخير و خصال الكمال ونعوت المكارم و الجمال «من غير امتراء» أى شك ولا ريب. قال فى القاموس العالم الخلق كله وما حواه بطن الفلك «نبينا» خبر المبتدأ الذى هو أفضل العالم محمد «المبعوث» رسولاً للثقلين قيل والملائكة «فى أم القرى» مكة المشرفة. قال الحافظ ابن الجوزى فى تسميتها بذلك أربعة أقوال.

أحدها: لأن الأرض دحيت من تحتها. قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما وقال ابن قتيبة: لأنها أقدمها.

الثانى: لأنها قبلة يؤمها جميع الناس.

الثالث: لأنها أعظم القرى شأنا.

الرابع: لأن فيها بيت الله عز وجل، ومن أعظم ما يدل على تعظيم نبينا وفضله على سائر الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين أن الله سبحانه وتعالى أقسم بحياته، وفى شرعه إنما تنعقد الإيمان بأسماء الله تعالى وصفاته وكلامه لايدون ذلك. قال الإمام الحافظ ابن الجوزى فى الوفا: أقسم الحق عز وجل بحياته وإنما يقع القسم بالمعظم والمحبوب قال

تعالى ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[الحجر: ٧٢].

وأخرج الترمذى وغيره من حديث ابن عباس رضى الله تعالى عنهما «قال ما خلق الله وذرأ نفسا هى أكرم عليه من محمد ﷺ: ماسمعت أن الله تعالى أقسم بحياة أحد غيره، فقال: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ قال الإمام ابن عقيل رحمه الله تعالى وأعظم من قوله لموسى ﴿ وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾[طه: ٤١] قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠] وبيان ذلك أنه جعل اللام فى قوله: واصطنعتك لنفسى التى هى للملك والاختصاص بينه وبينه ولم يجعل بينه تعالى وبين سيدنا محمد ﷺ واسطة بل قال ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ وقوله تعالى ﴿لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ * وَأَنتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ [البلد: ١-٢] المعنى أقسم بك لا بالبلد فإن أقسمت بالبلد فلأنك فيه ثم قال ابن عقيل ياموسى أخلع نعليك ولاتجيئ إلا ماشياً يا محمد اركب البراق ولاتجئ إلا راكباً.

وأخرج الطبرانى وصححه وابن حبان من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنه مرفوعاً « أتانى جبريل فقال: يقول لك ربك أتدرى كيف رفعت النصوص المحكمة فى فضلهم، كما سنذكر طرفاً منه، وهى بحاء مضمومة فدال مهملة والدال مفتوحة فموحدة مكسورة فتحتية مفتوحة بالتخفيف والتشديد قال البكرى: قريبة من مكة أكثرها فى الحرم، وكانت فى ذى القعدة من السنة السادسة، وكان عدة المسلمين الذين مع رسول الله ﷺ ورضى عنهم أربعة عشر مائة، وكان سبب البيعة أن قريشاً لما صدت النبى ﷺ والمسملين عن المسجد الحرام فبعث عثمان بن عفان رضى الله عنه، وقال له اذهب إلى قريش، وأخبرهم أننا لم نأت لقتال،و إنما جئنا عمارا، وادعهم إلى الإسلام ثم بلغه أن عثمان قد قتله قريش فدعا الناس إلى البيعة، وقال: لانبرح حتى نناجز القوم. روى ابن جرير وغيره من حديث سلمة بن الأكوع قال رضى الله تعالى عنه« بينا نحن قائلون إذ نادى منادى رسول الله ﷺ أيها الناس: البيعة نزل روح القدس فاخرجوا على اسم الله،فسرنا إلى رسول الله ﷺ وهو تحت شجرة سمر فبايعناه ».

والصحيح أن الذى بايع رسول الله ﷺ أول الناس فى تلك البيعة أبو سنان الأسدى فقال: ابسط يدك أبايعك. فقال النبى ﷺ « علام تبايعنى؟ قال على مافى نفسك، قال: ومافى نفسى؟ قال: اضرب بسيفى بين يديك حتى يظهرك الله أو أقتل فبايعه، وبايعه الناس على بيعة أبى سنان، وضرب رسول الله ﷺ بإحدى يديه على الأخرى عن عثمان رضى الله عنه، وقال: اللهم إن عثمان فى حاجتك وحاجة رسولك، فكانت يد رسول الله ﷺ

لعثمان خيراً من أيديهم لأنفسهم. ثم كذب الخبر بقتل عثمان ﷺ فقدم رسول الله ﷺ هو ومن معه، وكانوا عشرة ثم كانت الهدنة بين النبى ﷺ ، وبين قريش ».

وقد روى البخارى ومسلم وغيرهما من حديث جابر بن عبد الله رضى الله تعالى عنه قال: كنا فى الحديبية ألفا وأربعمائة فقال لنا رسول الله ﷺ « أنتم خير أهل الأرض » وروى الإمام أحمد وغيره أيضاً عن جابر ومسلم عن أم بشير رضى الله تعالى عنها أن رسول الله ﷺ قال « لايدخل النار أحد بايع تحت الشجرة » وأخرج الإمام أحمد أيضاً بسند رجاله ثقات عن أبى سعيد الخدرى ﷺ أنه ﷺ قال « لايدرك قوم بعدكم صاعكم ولامدكم ».

تنبيهات

الأول: ظاهر الكلام علمائنا أن أفضل الصحابة بعد العشرة أهل بدر من المهاجرين ثم الأنصار على قدر الهجرة أولاً بأول، ثم سائر أصحاب رسول الله ﷺ ولهم رتب، وهذا الذى قدمه ابن حمدان فى نهاية المبتدئين ثم ذكر أن أمة محمد ﷺ خير الأمم وأفضلهم القرن الذى صحبوه وشاهدوه وآمنوا به وصدقوه ونصروه وأفضل القرن الذى صحبوه أربعة عشر مائة الذين بايعوه بيعة الرضوان وأفضلهم أهل بدر الذين نصروه، وأفضلهم أربعون فى الدار كنفوه، يعنى السابقين الأولين، وأفضلهم عشرة عزروه ووقروه وشهد لهم بالجنة، ومات وهو عنهم راض.

وأفضل هؤلاء العشرة الخلفاء الأربعة، وأفضلهم أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم على رضوان الله عليهم أجمعين، وهذا موافق لما حررنا من تقديم أهل البيعة على أهل غزوة أحد لما قدمنا من نصوص. ولأن الله تعالى قال فى أهل بيعة الرضوان ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾[الفتح:١٨]. وقال فى أهل غزوة أحد ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٥]. وفى الآية الأخرى ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٢] فوصفهم فى الموضعين بالعفو، وصف أهل البيعة بالرضاء. وهو أعلى وأسنى وأفضل من العفو وهذا ظاهر، والله أعلم.

الثانى: المراد بالسابقين الأولين الذين أنفقوا قبل الفتح وقاتلوا، والمراد بالفتح أمر الحديبية قال الله تعالى ﴿لا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا﴾[الحديد: ١٠].

الثالث: المراد بالأفضلية من حيث الجملة ولايلزم تفضيل كل فرد مثلاً من المهاجرين على كل فرد من الأنصار، وإنما نقول الصحبة أفضل من غيرها ولاأحد من غير الصحابة يساوى أحدا من الصحابة، وكذلك الهجرة، وكذلك كل ما امتازت به جملة على غيرها من غير هضم للمفضول من الفضائل والكمالات التى امتاز بها على غيره من تلك الحيثية التى فضله فيها غيره، كما يأتى بيان ذلك والله أعلم.

وعائشة فى العلم مع خديجة   فى السبق فافهم نكتة النتيجة

(وعائشة) الصديقة بنت الصديق رضي الله عنهما أم المؤمنين، وحبيبة رسول الله ﷺ، قد عقد عليها وهى بنت ست سنين قبل الهجرة بسنتين، وبنى بها بالمدينة أول مقدمة وهى بنت تسع، ومات عنها وهى بنت ثمانى عشرة، وتوفيت بالمدينة، ودفنت بالبقيع، وأوصت أن يصلى عليها أبو هريرة رضي الله عنه سنة ثمان وخمسين. فهى رضى الله تعالى عنها، وعن أبيها أفضل نسائه ﷺ (فى العلم) النافع والفقه الناصع، فلها الفضل فى ذلك ماليس لغيرها من سائر أزواجه ﷺ، حتى أكابر الصحابة رضي الله عنهم، إذا أشكل عليهم أمر من الدين استفتوها فوجدوا علمه عندها.

وقد وقع الخلاف بين علماء السلف فى التفاضل بينها وبين أم المؤمنين خديجة، فقدم البلبانى من أصحابنا المتأخرين تبعاً لابن حمدان أن عائشة أفضل النساء.

وقال الإمام موفق الدين: أفضل النساء خديجة، قال المحقق : سألت شيخ الإسلام عنها فقال: اختص كل واحدة منهما بخاصية، وإلى هذا أشرت بقولى (مع خديجة) بنت خويلد بن أسد أم المؤمنين، وأول أزواج رسول رب العالمين تزوجها رسول الله ﷺ وهو ابن خمس وعشرين سنة، وبقيت معه إلى أن أكرمه الله تعالى برسالته فآمنت به وصدقته ونصرته، وكانت له، وزير صدق، وماتت قبل الهجرة بثلاث سنين فى الأصح، و لم يتزوج عليها، وكل أولاده منها الذكور والإناث، إلا إبراهيم عليه السلام فإنه من سريته مارية القبطية، فخديجة المذكورة أفضل نساء النبى ﷺ (فى السبق) إلى الإسلام ومؤازرة خير الأنام.

قال شيخ الإسلام فى جوابه للمحقق رحمهما الله تعالى: خديجة كان تأثيرها فى أول الإسلام، وكانت تسلى رسول الله ﷺ، وتثبته، وتبذل دونه مالها وأدركت غرة الإسلام واحتملت الأذى فى الله، وفى رسوله ﷺ وكانت نصرتها للرسول ﷺ فى أعظم أوقات الحاجة فلها من النصرة، والبذل ماليس لغيرها، قال: عائشة رضى الله عنها تأثيرها

فى آخر الإسلام فلهـا من التفقه فى الدين وتبليـغه الأمة، وانتفاع بنيـها بما أدت إليهم مع العلم ماليس لغـيرها، فلعـائشة رضي الله عنها فى آخر الإسـلام من حمل الدين وتبليغـه إلى الأمة وإدراكها من العلم مالم تشاركها فيه خديجة ولاغيرها مما تميزت به عن غيرها.

قال المحقق فى بدائـع الفوائد: الخلاف فى كون عائشـة رضي الله عنها أفضل من فاطمة عليـهما السلام، أو فاطمة أفضل، إذا حرر محل التـفضيل لايستقيم أى الخلاف فإن أريد بالفضل **كثرة الثواب عند الله فذلك أمر لايطلع عليه إلا بالنص، لأنه يحسب تفاضل أعمال القلوب لا بمجرد أعمال الجوارح وكم من عاملين أحدهما أكثر عملاً بجوارحه، والآخر أرفع درجة منه فى الجنة، وإن أريد بالتفضيل بالعلم، فـلا ريب أن عائشة أعلم، وأنفع للأمة، وأدت من العلم ما لم يؤد غيرها،** واحتاج إلى علمها خواص الأمة وعامتها، وإن أريد بالتفضيل شرف الأصل وجلالة النسب، فلا ريب أن فاطمة أفضل فإنها بضعة من رسول الله ﷺ ،وذلك إختصاص مالم يشاركها فيه غير إخوتها، وإن أريد السيادة، ففاطمة سيدة نساء أهل الأمة، وإذا تبينت وجوه التفضيل وموارد الفضل وأسبابه صار الكلام بعلم وعدل، وأكثر الناس إذا تكلم فى التفضيل لم يفصل جهات الفضل، ولم يوازن بينها فيبخس الحق، ولهذا التفضيل أشرنا بقولنا: (فافهم) فهم تحقيق (نكتة النتيجة) أى أثر فائدة الخلاف، والنكتة أثر قليل كالنقطة أى شبه الوسخ، فأصله من النكت بالعصى.

والنتيجـة المراد بها هنا الحكم المتولد من القضيـتين بالتفصيل فى التـفضيل، وأصله من نتجت الناقـة إذا ولدت فهى منتوجـة، وأنتجت إذا حملت فـهى نتوج، والحكم الناتج مما نحن فـيـه، **أن خـديجـة أفـضل بحـسب السـبق والمؤازرة وإنـفـاقـهـا عـلى رسـول الله ﷺ ،وتسليتـه وحمل المشاق لسـببه، ونحـو ذلك، وعائشة أفـضل بحسب تحـملها العلوم وأحاديث النبى ﷺ فإنهـا أحد المكثرين ونشرها لسنته ﷺ ،ونفعها للأمة فـإنها كانت عالمة فـقيـهة فصيحة فـاضلة كثـيرة الحديث، عـارفة بأمـر العرب، وأشعـارها وفضـائلها، ومناقـبهـا لاتحـصى، ومحبـة النبى ﷺ إياها وتفـضيلهـا على سـائر زوجاته ﷺ أمـر لايخفى.**

فصل

فى ذكر الصـحابة الكرام بطريق الإجمال والتـعريف بما يجب لهم من المحبـة، والترضى والتفـضيل على سائر الأمـة، وتقبيـح من آذاهم، والكف عما جـرى بينهم مما لعله لم يصح عنهم، وماصح فله تأويلات سائغة.

وإذا كان لأحد منهم هنات تقع مكفرة مستهلكة فى عظيم حسناتهم،ثم التابعين لهم بإحسان، ولهذا قال:

وليس فى الأمة كالصحابة   فى الفضل والمعروف والإصابة

(وليس فى الأمة) المحمدية المفضلة على سائر الأمم (كالصحابة) الكرام الذين فازوا بصحبة خير الأنام، فمعتمد القول عن أئمة السنة أن الصحابة كلهم عدول قال تعالى﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[آل عمران: ١٤٣].

قيل: اتفق المفسرون ذلك فى الصحابة، لكن الخلاف بالتفاسير مشهور، ورجح كثير عمومها فى أمة محمد ﷺ وقوله تعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾[البقرة: ١٤٣] وهذا خطاب للموجودين حينئذ، وقال تعالى ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾[الفتح: ٢٩]، فليس فى الأمة المحمدية مثل الصحابة الكرام (فى الفضل) بشاهد مافى الصحيحين من حديث أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه « لاتسبوا أصحابى فوالذى نفسى بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ماأدرك مد أحدهم ولانصيفه » هذا وإن ورد على سبب، وهو ماجرى بين عبد الرحمن بن عوف، وبين خالد بن الوليد رضي الله عنهما، فالعبرة بعموم اللفظ لابخصوص السبب.

ولاينافى ذلك كون الخطاب لأصحابه، فإن المراد لابسب غير أصحابى أصحابى ولايسب بعضهم بعضاً، فالمراد النهى عن حصول السب لهم مطلقا، وقوله(بعضه) فضلا عن غالبه أو كله (فاقنع) بما ذكرته من الآيات، والأحاديث (وخذ) ذلك واعتمد عليه فإنه (عن علم) ويقين وإيضاح وتبيين.

فمن تأمل ماذكرنا حق التأمل، وأعطى المقام حقه، نجا من قبح ماانتحلته الرافضة، وفضيح ماذهبت إليه الإلحاد فى آيات الله، وأحاديث رسول الله ﷺ من الإفك والمناقضة، فالحذر الحذر من أدنى شائبة تؤدى بتلك المناصب الشامخة، والعلوم الراسخة، ولهذا نقول:

واحذر من الخوضى الذى قد يزرى   بفضلهم مما جرى لو تدرى

فإنه عن اجتهاد قد صدر   فاسلم أذل الله من لهم هجر

(واحذر) حذر إذعان وتسليم مع سلامة صدر، وامتثال أمر النبى الكريم ﷺ (من الخوض) المفضى إلى التنقيب (الذى قد يزرى)،وينقص ويحط (بفضلهم) المعلوم من الكتاب والسنة عند ذوى العلوم، (مما) أى من الاختلاف، والتخاصم والتشاجر الذى

(جرى) بينهم (لو) كنت (تدرى) غب ذلك الخوض المفضى إلى توليد الإحن، وحزازات القلوب، والحقد على أصحاب رسول الله ﷺ.

وذلك من أعظم الذنوب **فإنهم خير القرون وهم السابقون الأولون**، وذلك أنه جرى بين على، ومعاوية، وقبلهما، وبعدهما من المنازعات والمقاتلات مالوصدرت من سواهم وكانت من غيرهم لم تقصر عن التفسق فضلا عن غيره.

والجواب عن ذلك ماأشير إليه بقوله: (فإنه) أى التخاصم والنزاع والتقاتل (عن اجتهاد قد صدر) من كل واحد من رؤساء الفريقين، ومقصد لكل فرقة من الطائفتين، و إن كان المصيب فى ذلك واحد، وهو على رضي الله عنه، ومن والاه، والمخطئ من نازعه وعاداه، غير أن للمخطئ فى الإجتهاد أجراً، وثوابا خلافا لأهل الجفاء و العتاد ، فكل ما صح مما جرى بين الصحابة الكرام. وجب حمله على وجه ينفى عنهم الذنوب والآثام، فمقاولة على مع العباس رضي الله عنهما لا تفضى إلى شين، **وتقاعد على رضي الله عنه عن مبايعة الصديق الأعظم فى بادىء الأمر، كان لأحد أمرين.** إما لعدم مشورته كما عتب عليه بذلك، وإماوقوفا مع خاطر سيدة نساء العالمين فاطمة البتول عليها السلام. مما ظنت أنه لها وليس الأمر كما هنالك. ثم إن عليا بايع الصديق رضي الله عنهما على رؤس الأشهاد فاتحدت الكلمة ولله الحمد، وحصل المراد. **وتوقف على رضي الله عنه عن الاقتصاص من قتلة عثمان. إما لعدم العلم بالقاتل، وإما خشية تزايد الفساد والطغيان.**

وكانت عائشة، وطلحة، والزبير، ومعاوية رضي الله عنهم، ومن أتبعهم مابين مجتهد ومقلد فى جواز محاربة أمير المؤمنين على رضي الله عنه، وقد اتفق **أهل الحق أن المصيب من غير شك**، والحق الذى ليس عنه نزول أنهم كلهم رضوان الله عليهم عدول، ولهذا اتفق أهل الحق ممن يعتد به فى الإجماع على قبول شهاداتهم، ورواياتهم وثبوت عدالتهم.

ولهذا قال علماؤنا كغيرهم من أهل السنة: **يجب حب كل الصحابة، والكف عما يجرى بينهم كتابة، وقراءة وإقراء، وسماعاً وتسميعاً، ويجب ذكر محاسنهم والترضى عنهم،وترك التحامل عليهم، واعتقاد العذر لهم.** ولهذا قال: (فاسلم) من الخوض في تلك البحور، ثم إن الناظم دعا على طائفة الجفاء، والفجور فقال: (أذل الله) سبحانه، وقد فعل (من) أى كل متبدع من الرافضة (لهم) أى للصحابة أو بعضهم (هجر)، وعادى، ولم يوال.

قال الإمام أبو زرعة وهو من أجل شيوخ مسلم: **إذا رأيت الرجل ينقص أحداً من**

أصحاب رسول الله ﷺ، فاعلم أنه زنديق، وذلك أن القرآن حق، والرسول ﷺ حق، وماجاء به حق، وماأدى إلينا ذلك إلا الصحابة، فمن جرحهم إنما أراد إبطال الكتاب والسنة فيكون الجرح به أليق، والحكم عليه بالزندقة أقوم وبالضلال أحق. وقال ابن حزم: الصحابة كلهم من أهل الجنة قطعاً. قال تعالى: ﴿لا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلاً وَعَدَ اللَّهُ﴾[الحديد: ١٠]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾[الأنبياء: ١٠١]. فثبت أن جميعهم من أهل الجنة. قال العلامة ابن حمدان: من سب أحد من الصحابة مستحلاً كفر، وإن لم يستحل فسق عنه يكفر مطلقاً، وإن فسقهم أو طعن فى دينهم أو كفرهم كفر، والله أعلم.

ولما أنهى الكلام على الصحابة الكرام حسبما يقتضيه المقام ذكر التابعين له بإحسان ثم تابعيهم كما قال خير الأنام فقال:

وبعدهم فالتابعون أحرى بالفضل ثم تابعوهم طرا

(وبعدهم) أى الصحابة (فالتابعون) لهم بإحسان (أحرى) أى أحق وأجدر (بالفضل)، والتقديم على غيرهم من سائر أهل الإيمان، وتعريف التابعى هو كل من صحب الصحابى، ومطلقه مخصوص بالتابعى بإحسان، ويقال فى الواحد تابع وتابعى، ولابد فى التابعى من زيادة ماتعتبر به الصحبة فى الصحابى كما تقدم، ولهم طبقات بالنسبة إلى من اجتمع بعشرة أو ثلاثة من الصحابة، وبالعلم والزهد وغير ذلك.

وقد اختلف فى أفضل التابعين، قال لسيدنا الإمام أحمد وغيره: أفضل التابعين سعيد بن المسيب، وقال قوم: أو يس بن عامر، ويقال عمرو، وكنيته أبو عمرو، وهو القرنى، واستدلوا له بحديث « خير التابعين أو يس » رواه الحاكم عن على عن النبى ﷺ .

وفى صحيح مسلم: « أن خير التابعين رجل يقال له: أو يس وله والدة، وكان به بياض فمروه فليستغفر لكم ».

والقرنى : بفتح القاف والراء هو بطن من مراد. فإن قيل: كيف استجار الإمام أحمد ومن نحا نحوه تفضيل سعيد عبد المسيب على سائر التابعين مع وجود النص الصريح بالنقل الصحيح فى تفضيل أويس ؟

فالجواب: أن مراد سيدنا الإمام أحمد وأضرابه، أفضلية سعيد فى العلوم الشرعية، كالتفسير، والحديث، والفقه، ونفع الأمة بذلك وبما بلغه عن الصحابة الكرام عن النبى عليه أفضل الصلاة والسلام. فإنه الإمام الحافظ الثقة المأمون. حتى قيل فيه: أعلم أمة محمد بدين

محمد ﷺ محمد سعيد بن المسيب رحمه الله تعالى.

والدليل على أفضلية التابعين قول النبي ﷺ :« خير الناس قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم » قال عمران: فلا أدرى أذكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثة . **ثم إن بعدهم قوماً يشهدون ولايستشهدون ويخونون ولايؤتمنون وينذرون ولايوفون يظهر فيهم السمن »**. زاد فى رواية « ويحلفون ولايستحلفون » رواه البخارى، ومسلم، والترمذى من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه.

وقد قال النبى ﷺ : « لاتمس النا رمسلما رآنى أو رأى من رآنى » رواه الترمذى من حديث جابر. قال طلحة: فقد رأيت ابن عبد الله رضي الله عنه ، وقال موسى: قد رأيت طلحة، وقال يحيى، وقال لى موسى وقد رأيتنى ونحن نرجو الله تعالى.

قال الإمام المحقق فى أول كتابه إعلام الموقعين. **ألقى الصحابة الكرام إلى** التابعين ماتلقوه من **مشكاة النبوة خالصاً صافياً**، وكل سندهم عن نبيهم ﷺ عن جبريل عن رب العالمين سنداً صحيحاً عالياً، وقالوا: هذا عهد نبينا إلينا، وقد عهدناه إليكم، وهذه وصية ربنا، وفرضه علينا، وهى وصيته، وفرضه عليكم فجرى التابعون لهم بإحسان على منهاجهم القويم، واقتفوا آثار صراطهم المستقيم.

ولهذا قال (ثم) الأفضل بعد التابعين (تابعوهم) أى اتباع التابعين لما تقدم من صحيح الأخبار، وصريح الآثار (طرا) أى جميعا، وهو منصوب على المصدر أو الحال لأنهم سلكوا مسلكهم الرشيد **﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَىٰ صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾**[الحج: ٢٤] ثم جاء الأئمة من القرن الرابع المفضل فى إحدى الروايتين كما ثبت فى الصحيح قوله ﷺ : «خير الناس قرنى». الحديث.

والقرن: أهل زمان واحد متقارب اشتركوا فى أمر من الأمور المقصودة. والأصح: أنه لايضبط بمدة، فقرته ﷺ هم أصحابه، وكانت مدّتهم من المبعث إلى آخر من مات من أصحابه وهو أبو الطفيل مائة وعشرين سنة، وقرن التابعين من نحو مائة إلى سبعين سنة، وقرن أتباع التابعين من ثم إلى حدود العشرين ومائتين.

وفى هذا الوقت ظهرت البدع ظهوراً فاشياً، وامتحن أئمة الدين وعلماء المسلمين ليقولوا بخلق القرآن. وكان المقصود منهم إمامنا الأعظم أحمد رحمه الله فقام بأمر السنة أتم قيام وعاضده عليها أئمة أعلام ، وحفاظ للدين فخام، شكر الله سعيهم، وثبتنا على نهجهم آمين.

فصل[1]

فى ذكر كرامات الأولياء وإثباتها

وهذا من العقائد السلفية التى يجب اعتقادها ولهذا قال:

وكل خارق أتى عن صالح   من تابع لشرعنا وناصح
فإنها من الكرامات التى   بها نقول فاقف للأدلة
ومن نفاها من ذوى الضلال   فقد أتى فى ذاك بالمحال
فإنها شهيرة ولم تزل   فى كل عصر ياشقا أهل الزلل

(وكل خارق) للغادة من الخوارق وهى ستة أنواع:

الأول: « المعجزة » وتقدم الكلام عليها.

عمر ابن الخطاب ﷺ، وغير ذلك من كرامات الصحابة، والتابعين، ومن بعدهم، ولذا قال لمن انتحل المحال(ياشقا أهل الزلل) بما ارتكبوا من رد المجوس، وتكذيبهم للبرهان بوساوس النفوس.

---

(١) قال الشيخ العلامة محمد بن عبدالعزيز بن مانع رحمه الله في شرحه لهذه الأرجوزة المسمى ـ بالكواكب الدرية ص٩٩ بعد ذكر نحو ما ذكره السفاريني من شروط الكرامة وصاحبها ما لفظه :

وبهذا يتبين أن من ظهر على يديه شيء من الخوارق التي يسمونها كرامات الأولياء وهو مصر على دعوة غير الله تعالى من الأحياء والأموات معتقداً أنهم ينفعونه أو يضرونه فهو من الحيل والشعوذة لا من الكرامات إذ من شروط حصولها صحة الاعتقاد وأي اعتقاد أفسد من الإشراك بالله؟ وكذا يتبين كذب من ادعى الولاية وهو تارك للصلوات مع المسلمين في مساجدهم ، ويزعم أنه يصلي بمكة جميع الصلوات ولو كان بينه مسافة أيام ، وينشد على ذلك :

وفي طندتا قالوا صلاتي تركتها   ولم يعلموا أني أصلي بمكة
أصلي صلاة الخمس في البيت دائماً   مع السادة الأقطاب أهل الطريقة

وكذلك من سالم الحيات سالمنه فأمسكهن فإن ذلك ليس من الكرامات في شيء لأنه معصية لأمر رسول الله ﷺ بقتلهن كما في سنن أبي داود عن ابن مسعود قال: « قال رسول الله ﷺ «اتقوا الحيات كلهن فمن خاف ثأرهن فليس منا » وفيها أيضاً عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ «ما سالمناهن منذ حار بناهن ومن ترك شيئاً منهن خليفة فليس منا» فانظر إلى قوله ﷺ «ما سالمناهن منذ حار بناهن» وهؤلاء الجهال سالموهن وادعوا أن ذلك كرامة وولاية قال أهل الحق والولي يكتمها أي الولاية ويسرها غالباً، وهذا دليل على كذب المشعوذين الدجّالين الذين جعلوا الكرامات سلاحاً يحاربون به ضعاف العقول من العوام بالترغيب والترهيب وهم بذلك أكذب من مسيلمة وسجاح وقد نقل عن بعض الدجّالين أنه قال :ـ قاتله الله إن صح عنه ـ أن الله أعطاني أن أقول للشيء كن فيكون . فهذا المخدوع ادعى الألهية من حيث لا يشعر ـ كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً » .

تـنـبـيـهـات

قال بعض المحققين: **للولى أربعة شروط:**

أحدها: أن يكون عارفاً بأصول الدين حتى يفرق بين الخلق والخالق، والنبى والمتنبى.

الثانى: أن يكون عالماً بأحكام الشريعة نقلا وفهما، ليكتفى بنظره عن التقليد فى أحكام الشريعة كما اكتفى عن ذلك فى اصول التوحيد.

الثالث: أن يتخلق بالأخلاق المحمودة التى دل عليها الشرع والعقل مثل الورع عن المحرمات بل والمكروهات، وامتثال المأمورات، وإخلاص العمل وحسن المتابعة، والاقتداء.

الرابع: أن يلازمه الخوف أبداً، واحتار النفس سرمداً، و أن ينظر إلى الخلق بعين الرحمة والنصيحة، وأن يبذل جهد فى مراقبة محاسن الشريعة، ومطالعة عيوب الناس وآفاتها، والخوف بملاحظة السابقة، والخاتمة ويجمع ذلك كله ويزيد عليه قوله تعالى **﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ * لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾**[يونس: ٦٢-٦٤].

فصل

فى المفاضلة بين البشر والملائكة

وهى مسألة عظيمة كثر فيها الاختلاف فلذا قلنا:

وعندنا تفضيل أعيان البشر	على ملاك ربنا كما اشتهر
قال ومن قال سوى هذا افترى	وقد تعدى فى المقال واجترى

(وعندنا) معشر أهل السنة (تفضيل أعيان البشر) محركة الإنسان ذكر أو أنثى، والمراد بأعيانهم الأنبياء عليهم السلام، والأولياء، فالأنبياء أفضل من الأولياء، وهما أفضل من الملائكة.

قال أبو الوفاء ابن عقيل: الأنبياء أفضل من الملائكة، وجبريل وإسرافيل وميكائيل أفضل من الأولياء .

وقال سيدنا الإمام أحمد ﷺ: **بنو آدم أفضل من الملائكة**، ولذا قلنا (على ملاك ربنا) تعالى (كما اشتهر) ذلك من نصوص إمامنا، **والملاك هو الملك، وجمعه ملائكة**، وحذفت همزة ملاك لكثرة الاستعمال، وأصل وزنه **مفعل**، فقيل: ملك. وقد تحذف الهاء من الجمع فيقال: ملائك، وأصله ملاك بتقديم الهمزة من الألوكة، وهى الرسالة، ثم قدمت

اللام على الهمزة فى الجمع (قال) إمامنا (من قال سوى هذا) أى غير القول بتفضيل بنى آدم على الملائكة فقد (افترى) أى أتى بكلام خطأ يشعر بالافتراء (وقد تعدى) أى جاوز الحد (فى المقال) الذى اعتمد (واجترى) أى افتات على الشارع بالاعتقاد الذى اعتقده.

قال المحقق فى بدائع الفوائد: سئل شيخنا شيخ الإسلام ابن تيمية روح الله روحه، عن صالحى بن آدم والملائكة أيهما أفضل؟ فأجاب: **بأن صالحى البشر أفضل باعتبار كمال النهاية، والملائكة أفضل باعتبار البداية. فإن الملائكة الآن فى الرفيق الأعلى منزهون عما يلبسه بنو آدم.** مستغرقون فى عبادة الرب، ولاريب أن هذه الأحوال الآن أكمل من أحوال البشر، وأما يوم القيامة بعد دخول الجنة، فتصير حال صالحى البشر أكمل من حال الملائكة. قال: وبهذا التفضيل يتبين سر التفصيل، وتتفق أدلة الفريقين ويصالح كل منهم على حقه.

وقد قال بعض السلف من العلماء مسألة تفضيل البشر على الملك، والملك على البشر ليست مما يجب اعتقاده، ويضر الجهل به، ولو لقى العبد ربه ساذجاً من المسألة بالكلية لم يكن عليه إثم فما هى مما كلف الناس بمعرفته.

قال القاضى تاج الدين السبكى بعد كلام. والذى أفهمه عن الوالد السلامة والسكوت عن هذه المسألة.

ثم قال رحمه الله تعالى: وما للسوقة، والدخول بين الملوك، وأعنى بالسوقة فى هذا مثالنا، وبالملوك الأنبياء والملائكة عليهم السلام.

الباب السادس
فى ذكر الإمامة ومتعلقاتها(*)

قال علماؤنا كغيرهم نصب الإمام الأعظم فرض كفاية. فلهذا قلنا:

ولاغنى لأمة الإسلام ... فى كل عصر كان عن إمام
يذب عنها كل ذى جحود ... ويعتنى بالغزو والحدود
وفعل معروف وترك نكر ... ونصر مظلوم وقمع كفر
وأخذ مال الفئ والخراج ... ونحوه والصرف فى منهاج

(ولاغنى) ولابد (لأمة) دين (الإسلام فى كل عصر) من الأعصار (كان) أى وجد (عن إمام) متعلق بقوله لاغنى، بل هو فرض كفاية لازم لمسيس الحاجة إليه، **فإنه ﷺ أمر بإقامة الحدود، وسد الثغور، وتجهيز الجيش للجهاد، وحماية البيضة، والذب عن الحوزة.**

ولذا قنا (يذب) أى يدفع (عنها) أى عن ملة الإسلام (كل ذى) أى صاحب (جحود) أى إنكار، أى للجاحد للدين القويم، وأضرابه (ويعتنى) ذلك الإمام أى يهتم (بالغزو) أى غزو الكفار (و) يعتنى بإقامة (الحدود) جمع حد، فيقيم الحدود، لتصان محارم الله تعالى عن الانتهاك، وتحفظ حقوق العباد(و) يعتنى أيضاً بالأمر بـ(فعل معروف وترك منكر) معطوف على ماقبله (و) يعتنى بـ(نصر مظلوم) من ظالمه وتخليصه وأخذ حقه ممن هو عليه

(*) وينظر الفصل الخامس والعشرين من مقدمة ابن خلدون « في معنى الخلافة والإمامة »
وقد عرّف الخلافة بأنها هي (حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الدنيوية والأخروية الراجعة إليها، إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به)
ثم يوضح في الفصل الثاني حقيقة هذا المنصب (بأنه نيابة عن صاحب الشريعة في حفظ الدين وسياسة الدنيا به ، تُسمّى خلافة وإمامة والقائم به خليفة ، وإماماً .
فأما تسميته إماماً فتشبيهاً بإمام الصلاة في اتباعه والاقتداء به ولهذا تقال (الإمامة الكبرى)، وأما تسميته خليفة فلكونه يخلف النبي ﷺ ـ في أمته، فيُقال خليفة بإطلاق وخليفة رسول الله ﷺ) .
«مقدمة ابن خلدون »
أما الشيعة فإنهم الذين شايعوا علياً عليه السلام على الخصوص، وقالوا بإمامته وخلافته : نصاً ووصية، إما جلياً وإما خفياً ﷺ واعتقدوا أن الإمامة لا تخرج من أولاده، وإن خرجت فبظلم يكون من غيره، أو تبعية من عنده، وقالوا : ليست الإمامة قضية مصلحية تناط باختيار العامة وتنصيب الإمام بنصبهم، بل هي قضية أصولية، وهي ركن الدين، لا يجوز للرسل عليهم السلام إغفاله وإهماله، ولا تفويضه إلى العامة وإرساله.
ص١٣١ الملك والنحل جـ١ للشهرستاني .

ونحو ذلك (وقمع) أهل (كفر) أى قهرهم وذلهم.

(و) يعتنى أيضاً بـ(أخذ مال الفئ) من جهاته المذكورة فى كتب الفقه سمى فيئاً لأنه راجع منها إلى أهل الإسلام، فإنه فى الأصل لهم، ثم رجع إليهم، وهو ماأخذ من مال كافر بحق الكفر بلا قتال كالجزية (والخراج) وزكاة تغلبى وعشر مال تجارة حربى، ونصفه من ذمى (ونحوه).

(و) يقتنى أيضاً بـ(الصرف) لذلك المال المذكور (فى منهاج) أى طريق وجهة مصرفه المعينة له شرعاً فيصرف فى مصالح أهل الإسلام، ويبدأ بالأهم من المصالح العامة من وظائف جند الإسلام، وعمارة الثغور ومايحتاج إليه من السلاح، والكراع، وسد البثوق، وكرى الأنهار، وعمل القناطر والمساجد، وأرزاق القضاة والأئمة، والمؤذنين والفقهاء، ومايعود نفعه على المسلمين فإن فضل منه شئ قسم على المسلمين غنيهم وفقيرهم.

ونصبه بالنص والإجماع   وقهره فحل عن الخداع
وشرطه الإسلام والحرية   عدالة سمع مع الدرية
وأن يكون من قريش عالماً   مكلفاً ذا خبرة وحاكما

(و) يثبت (نصبه) أى الإمام (بالنص) من الإمام كما عهد أبو بكر بالخلافة إلى عمر رضى الله عنهم (و) **يثبت أيضاً بـ(الإجماع) من أهل الحل والعقد. كإمامة الصديق.** فإذا بايعه أهل الحل والعقد والعلماء، ووجوه الناس ثبتت إمامته، وكذا يجعل الأمر شورى فى عدد محصور كما فعل عمر (و) يثبت نصبه أيضا بـ(قهره) الناس بسيفه حتى يذعنوا له، ويدعوه إماماً لأن عبد الملك بن مروان خرج على ابن الزبير رضي الله عنه فقتله. واستولى على البلاد وأهلها، حتى بايعوه طوعاً وكرها، ودعوه إماماً، **ولما فى الخروج عليه من شق عصا المسلمين، وإراقة دمائه، وذهاب أموالهم، ولذا قلنا** (فحل) أمر إرشاد أى بعد وذل، ومنه ﴿لا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً﴾[الكهف:١٠٨] (عن الخداع) متعلق بحل يعنى اترك مخادعة أهل البدع من جواز الخروج على الإمام ثم ذكر شروط الإمام فقال:

(وشرطه الإسلام والحرية) وشرطه فيه أيضاً (عدالة) نعم إن قهر الناس غير عدل فهو إمام، نص الإمام أحمد فى مثل ذلك، ويعتبر فيه أيضاً (سمع) أى يكون سميعاً بصيراً ناطقاً (مع الدرية) بفتح الدال المهملة، وكسر الراء، وتشديد التحتية فهاء تأنيث من الدراسة، وهى العلم والخبرة (و) يعتبر أيضاً (أن يكون) الإمام (من قريش) وهو من كان من نسل فهو بكسر الفاء وسكون الهاء ابن النضر، واسمه قيس بن كنانة، ويعتبر أيضاً أن

يكون (عالما) بالأحكام (مكلفاً) أى بالغاً عاقــلاً، وأن يكون (ذا خبرة) بتدبير الأمور (و) أن يكون (حاكماً) أى قادراً على إيصال الحق إلى مستحقيه، وإذا عقدت له الإمامة:

وكن مطيعا أمره فيما أمر   مالم يكن بمنكر فيحذر

(فكن مطيعا) أنت وسائر رعيته (أمره فيما أمر) إن كان طاعة.

والحاصل: أن طاعـته تجب فى الطاعـة وتسن فى المسنون، وتكره فى المكروه فـإذا أمر بمعروف وجب امتـثال أمره (مالم يكن) أمره (بـ)ـشئ (منـكر) ضد المعروف (فـ)ـلا يطاع فى ذلك بل (يحتذر) ويجتذب.

فصل

فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

ولما كان صلاح العباد لايتم إلا بذلك قال:

واعلم أن الأمر والنهى مـعا   فرضا كفاية على من قد وعا

وإن لم يكن ذا واحداً تعينا   عليه لكن شرطه أن يأمنا

فاصبر وذل باليد واللســان   لمنكر واحذر من النقصان

(واعلم بأن الأمر) أى بالمعروف (والنهى) عن المنكر (معـاً) أى كل واحد منهما منفرداً وكلاهما (فرضا كفاية) على جماعة المسلمين (على من قد وعا)، أى حفظ حكمه وعلمه وبه صارت هذه الأمة خـير أمة أخرجت للناس قـال تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾[آل عمران: ١١٠]، وقـال تعالى ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُـونَ إِلَى الْخَـيْـرِ وَيَأْمُـرُونَ بِالْمَعْـرُوفِ وَيَنْهَـوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُـمُ الْمُـفْلِحُـونَ ﴾[آل عمران: ١٠٤].

وفى الحديث عـن أبى بكر رضى الله عنه أنه خطب الناس على منبـر رسول الله ﷺ فقال: أيها الناس إنكم تقرؤون هذه الآية وتضعونهـا على غير موضعها ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُـسَكُمْ لا يَضُـرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَـدَيْتُمْ ﴾[المائدة: ١٠٥]. وانى سـمعت رسـول الله ﷺ يقول: «إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه، أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه». وفى لفظ «من عنده» رواه أبو داود والتـرمذى، وقال حـديث حسن صـحيح(وإن يكن ذا) أى الذى علم بالمنكر (واحداً)، أو كانوا عدداً، ولكن لايحصل المقصـود إلا بهم جميعاً (تعينا) أى الأمر بالمعروف والنهـى عن المنكر وصارا فرض عين(عليه) أو علـيهم (لكن شرطه)

أى افتـراضه (أن يـأمنا) بألف الإطلاق على نفســه وأهله ومـاله، ولم يخف سـوطاً، ولاعصـا، ولاأذى، ولافتنة تـزيد على المنكر وقيل : إن زادت وجب الكف، وإن تسـاويا سقط الإنكار.

قال الإمام أحمد رضي الله عنه : يأمر بالرفق والخضوع فإن أسمعوه مايكره لايغضب فيكون يريد أن ينتصـر لنفسه، ولهذ قـال: (فاصبر) على الأذى (وزل) المنكر، وغـيره من أزله عن مكانه (باليد)، هو أعلى درجات الانكار (و) غير المنكر بـ(ـللسان) حيث لم تستطع تغييره باليد بأن تعظه، وتذكره بالله وأليم عقابه، وتعنفه مع لين وإغـلاظ، بحسب مايتتضيه الحال، وقد يحصل المقـصود بالرفق والسياسة بأزيد، وأتم مما يحصل بالعنف والـرياسة، كأن يقول لمن رآه مـتكشفـاً فى حمـام، ونحوه: اسـتر سـترك الله، ونحـو ذلك (لمنكر) متـعلق بزل (واحذر) من النزول من أعلى المراتب حيث قدرت على أن تغـير المنكر باليد إلى أوسطها، وهو الإنكار بلسانـك إلا مع العجز عن ذلك، فـلا يسوغ لك العدول عن التـغييـر للمنكر باللسـان، وأنت تقـدر عليـه إلى الإنكار بالقلب، وهو أضـعف الإيمـان فلذ أحـذر (من النقصان).

وأشار بذلك إلى حديث أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « من رأى منكم منكراً فليغيـره بيده فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يسـتطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمـان» رواه مسلم وغيره. قـال ابن مسعـود رضى الله عنه: هلك من لم يعرف المعروف، وينكر المنكر بقلبه يشير إلى أن معرفة المعروف، والمنكر بالقلب فرض لايسقط عن أحد فمن لم يعرفه هلك.

قال سفيان الثورى قدس الله روحه: لايأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر إلا من كانت فيه خصال ثلاث: رفـيق بما يأمر، **رفيق بما ينهى، عـدل بما يأمر. عدل بما ينهى، عـالم بما يأمر،** عالم بمـا ينهى. وقال الإمـام أحمد رضى الله تعـالى عنه : الناس يحـتاجـون إلى مداراة ورفق، الأمر بالمعروف بلا غلظة إلا رجل معلن بالفسق فلاحرمة له، كون الآمر بالمعروف، والناهى عن المنكر عدلاً بما ينهى، أشار بقوله:

ومن نهى عما له قد ارتكب   فقد أتى مما به يقضى العجب

فلو بدا بنفس فذادها   عن غيها لكان قد أفادها

(ومن) أن أى إنسان (نهى) الناس (عمـاله قد ارتكبه) وفعله (فـقد) والله (أتى) منقاله، وحاله (مما) أى من العـمل الذى (به) أى منه (يقضى) بأنبائه لم لما يسم فـاعله و(العجب)

نائب فاعل أى يقضى العقلاء. وأهل العلم من مخالفة قوله لعمله العجب. روى الطبرانى بإسناد حسن عن جندب بن عبد الله رضى الله عنه. عن رسول الله ﷺ قال: « مثل الذى يعلم الناس الخير وينسى نفسه، كمثل السراج يضئ للناس، ويحرق نفسه، كان الإمام أحمد رحمه الله تعالى لاتذكر الدنيا فى مجلسه، ولاتذكر عنده، والنفوس مجهولة على عدم الانتفاع بكلام من لايعمل بعمله، ولاينتفع به، ولهذا قال:(فلو بدا) الآمر بالمعروف، والناهى عن المنكر (بنفسه) متعلق ببدا (فذادها) أى منعها وردها (عن غيها) متعلق. بذادها أى عن ضلالها (لكان) ببدايته بإرشاد نفسه (قد أفادها) النجاة والرشد».

تنبيهات

الأول: ماقدمنا من كون الآمر بالمعروف والناهى عن المنكر مستقيم الحال هو عين الكمال، والمؤثر أمره،ونهيه فى القلوب، والذى قاله، وحاله ترياق الذنوب، وأما الوجوب فلا يسقط عن المكلف، وإن كان بغير تلك الأوصاف، فعلى مرتكب الذنب النهى عن مثل ماارتكب لأن تركه للمنكر، ونهيه فرضان متميزان ليس لمن يترك أحدهما أن يترك الآخر، فيجب على متعاطى الكأس أن ينكر على الجلاس. لأن النهى عن المنكر واجب،والإنكفاف عن المحرم واجب، والإخلال بأحد الواجبين لايمنع وجوب فعل الآخر. وقد روى ابن أبى الدنيا بإسناد فيه ضعف عن أبى هريرة ﷺ مرفوعا « مروا الناس بالمعروف، وإن لم تعملوا به، وانهوا عن المنكر وإن تتناهوا عنه كله» وقيل للحسن: إن فلانا لايعظ بقول: أخاف أن أقول مالا أفعل. قال الحسن: وأينا يفعل مايقول، ود الشيطان أنه قد ظفر بهذا، فلم يأمر أحد بمعروف ولم ينه عن منكر.

الثانى: متعلق وجوب الإنكار الرؤية للمنكر وتحققه فلو كان مستوراً فلم يره. فالمنصوص عن الإمام أحمد فى أكثر الروايات أنه لايتعرض له، ولايفتش على مااستراب، وإذا سمع صوت ملهاة، ولم يعلم مكانه فلا شئ عليه، وأما تسور الجدران على من علم اجتماعهم على منكر ، فقد أنكره الائمة، مثل سفيان الثورى وغيره، وهو داخل فى التجسس المنهى عنه.

الثالث: الذى يجب إنكاره هو ماكان مجمعاً عليه فأما المختلف فيه فمن علمائنا من قال: لايجب إنكاره على من فعله مجتهداً مقلداً لمجتهد سائغاً أو عذراً ظاهراً. والله تعالى الموفق.

تم بحمد الله تعالى وتوفيقه
وما توفيقى إلا بالله،،

الفهرس